حسن الأمين

سراب الاستقلال في بلاد الشام

١٩١٨-١٩٢٠





سراب الاستقلال
في بلاد الشام
١٩١٨-١٩٢٠

حسن الأمين

سراب الاستقلال في بلاد الشام

١٩١٨-١٩٢٠



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

MIRAGE OF INDEPENDENCE
SYRIA AND LEBANON
(1918 - 1920)

BY:

HASSAN AL-AMIN

First Published in 1998
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 265 6

©جميع الحقوق العربية محفوظة ١٩٩٨
شركة رياض الريّس للكتب والنشر ش.م.م.
بيروت ـ لبنان

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by
anymeans, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني ١٩٩٨

المحتويات

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

مقدمة

ما هي بلاد الشام التي نتحدث عنها في هذا الكتاب؟

هي ما تعرف اليوم بكل من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، مضافاً إليها قسم من تركيا هو: عين تاب ومرعش وسيس وأضنة وإسكندرونة.

وفي المصطلح القديم: هي البلاد الممتدة من الفرات إلى مصر، أو: هي القطر الممتد من سقي النيل إلى سقي الفرات، ومن سفوح طورس إلى أقصى البادية.

وفي تفصيل الجغرافيين العرب[١]: تحدها من الشرق: البادية من أيلة[٢] إلى الفرات. ومن الغرب: البحر المتوسط. أما غربها البحري فيمتد من طرسوس غرب أضنه إلى رفح بين مصر والشام. ويحدها من الشمال حد يمتد من بالس[٣] مع الفرات إلى قلعة نجم ثم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهنس إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرطوس. أما الحد الجنوبي فيمتد من رفح إلى تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيلة إلى البلقاء[٤]. وياقوت في معجم البلدان يكتفي في تحديدها بهذا القول: أما حدها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبلي طيء[٥] من نحو القبلة إلى بحر الروم.

وتنقسم بلاد الشام إلى خمسة أقسام:

١ ـ السهل الساحلي الذي هو شريط يقع شرق البحر المتوسط وغرب الجبل ويمتد من ساحل شبه جزيرة سيناء حتى خليج الإسكندرونة، وهو متسع في الشمال والجنوب، فيبلغ اتساع السهل الساحلي عند عسقلان عشرين ميلاً، وضيق عند لبنان. وينقطع امتداد السهل الساحلي في نقطتين: الأولى إلى الجنوب من مصب نهر الكلب فيصل الجبل إلى البحر، والثانية عند جبل الكرمل.

٢ ـ يقع القسم الثاني إلى الشرق من السهل الساحلي الذي يمتد من جبل الأمانوس شمالاً حتى جبل سيناء جنوباً مكوناً سلسلة من المرتفعات التي تشكل عائقاً أمام الاتصال بين البحر وداخل الشام. وأهم جبال هذه السلسلة هو جبل الأمانوس الذي يفصل بين الشام وآسيا الصغرى، ويقطع هذا الجبل نهر العاصي في جزئه الجنوبي. ويعرف هذا الجزء بجبل الأقرع ويقطع طرقاً تمتد إلى إنطاكية وحلب مارة بمضيق بيلان المعروف بأبواب سوريا. وتمر هذه الجبال باللاذقية إلى أن تصل إلى النهر الكبير الجنوبي. وأعلى قمم هذه السلسلة الجبلية: جبال لبنان.

وتستمر هذه السلسلة في الاتجاه جنوباً في شكل مرتفعات وهضبات تسمى جبل الجليل الأعلى. وأقصى ارتفاع فيه عند جبل الجرمق شمال مدينة صفد، وهو أعلى قمة في فلسطين. والجليل الأدنى وأعلى قمة فيه جبل طابور قرب الناصرة. وتنقطع هذه السلسلة عند مرج ابن عامر.

٣ ـ يقع القسم الثالث إلى الشرق من سلسلة الجبال الغربية ويبدأ من الشمال بسهل العمق فسهل البقاع ويمتد في وادي الأردن حتى البحر الميت، ثم وادي عربة حتى خليج العقبة. على أن سهل البقاع يرتفع عند بعلبك فيتجه نهر العاصي نحو الشمال، أما نهر الليطاني فيتجه نحو الجنوب، وهما النهران الكبيران الوحيدان في الشام. ثم يأخذ نهر الليطاني مسار نهر العاصي فينعطف فجأة في مجراه الأسفل نحو الغرب عند سفح قلعة الشقيف.

٤ ـ يتكون هذا القسم من سلسلة الجبال الشرقية وتبدأ من جنوبي حمص وتقابل جبل لبنان الغربي بجبل لبنان الشرقي (سنير)[٦] ثم تنحدر نحو هضبة حوران ومنها إلى هضبة الجولان في الغرب، ثم إلى شرق الأردن حيث تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة إلى جبل سعير جنوبي البحر الميت. ويحد هضبة حوران من الشمال الشرقي منطقة اللجا المعروفة بالوعر. وفي الجنوب الشرقي لهذه المنطقة يوجد جبل حوران (جبل الدروز).

٥ ـ إلى الشرق من سلسلة الجبال الشرقية المتقدم ذكرها نجد بادية الشام وهي تكوّن مثلثاً رأسه عند حلب شمالاً وقاعدته عند خليج الكويت في الشرق وخليج العقبة في الغرب. وهي التي تفصل الشام عن العراق.

ولا بد لنا من أن نشير إلى التقسيمات الإدارية التي عرفت بها بلاد الشام في القديم، منذ قسمت إلى خمس وحدات إدارية عرفت بها منذ الفتح الإسلامي، بل ربما كان هذا التقسيم موروثاً عن البيزنطيين كما يرى بعضهم. وهذه الأقسام الخمسة هي: جُند قنسرين[٧] (وفيها حلب) وجند حمص. وجند دمشق. وجند الأردن. وجند فلسطين.

أما لماذا سميت هذه الأقسام الإدارية باسم (جُنْد)، فليس هناك ما يوضح ذلك، على أن بعضهم يرى أن ذلك كان لأن الجنود كانوا يقبضون أعطياتهم فيه.

وجند دمشق يضم في قسمه البري كلاً من البقاع: وقاعدته بعلبك.

وحوران: وقاعدته بُصرى.

والبثنيّة: وقاعدتها أذرعات[٨].

والظاهر: وقاعدته عمّان.

والغور: وقاعدته أريحا.

والجبال: وقاعدتها عرندل[٩].

والجولان: وقاعدته بانياس.

وزُغر[١٠].

ويضم جند دمشق في قسمه البحري:

عِرقة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس.

ويضم جند الأردن كلاً من: طبرية وبانياس وصفد وهونين وتبنين وشقيف أرنون وشقيف تيرون وكوكب[١١] وقلعة الطور[١٢] وصور وعكا وحيفا.

وجند فلسطين يضم كلاً من: الرملة والقدس والخليل ونابلس وقيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة. وكانت التقسيمات الإدارية تتطور حتى كانت قبل نهاية القرن السادس عشر بعد الفتح العثماني (١٥٢٠) مقسمة إلى ثلاث باشويات كبرى:

١ ـ دمشق وتتبعها عشرة سناجق أهمها: بيت المقدس، وغزة، ونابلس، وصيدا، وبيروت.

٢ ـ طرابلس وتشمل سناجق حمص، وحماه، وسلمية، وجبلة.

٣ ـ حلب وتشمل شمال سوريا كله ما عدا عين تاب التي أدخلت في باشوية مرعش. وأنشئت في القرن التالي باشوية صيدا التي شملت لبنان. وفي منتصف القرن الثامن عشر نقلت قاعدة الحكم من صيدا إلى عكا.

وبعد سنة ١٨٦٤ كانت الشام ولايتين: ولاية حلب، وولاية دمشق وفي سنة ١٨٨٨ جعلت بيروت ولاية ثالثة.

وفي سنة ١٩١٨ كانت بلاد الشام تتألف من هذه الولايات الثلاث بما فيها متصرفيتان مرتبطتان رأساً بالعاصمة، هما متصرفية القدس ومتصرفية جبل لبنان.

الهوامش

(١) البكري، معجم ما استعجم، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، أبو الفداء، ابن حوقل المسالك والممالك، ياقوت، معجم البلدان، عبد المؤمن عبد الحق، مراصد الاطلاع، الأنباري، أسماء البلدان، الاصطخري، أسماء الأمكنة والبقاع، أبو الحسين أحمد بن فارس، كتاب اشتقاق أسماء البلاد.

(٢) أيلة: مدينة قديمة على مقربة من العقبة اليوم.

(٣) بالس: كانت مدينة عامرة على الضفة الغربية لنهر الفرات، على مسافة نحو مئة كلم من مدينة حلب. وتقع خرائبها اليوم على مسافة خمسة كلم من قرية مسكنة على هضبة تطل على وادي الفرات الذي يجري غير بعيد عنها.

(٤) البلقاء: تطلق على النصف الجنوبي من شرقي الأردن.

(٥) جبلا طيء هما: أجأ، وسلمى. قال أبو عبيد السكوني: أجا أحد جبلي طيء وهو غربي فيد، وبينهما مسير ليلتين وفيه قرى كثيرة. ومنازل طيء في الجبلين عشر ليال من دون فيد إلى أقصى أجأ، إلى القريات من ناحية الشام. وبين المدينة والجبلين على غير الجادة ثلاث مراحل. وقال في معجم البلدان عن جبل سلمى: جبل وعربه واد يقال له رَكَ به نخل وآبار مطوية بالصخر طيبة الماء، وهو أحد جبلي طيء.

(٦) سنير: قال في معجم البلدان: جبل بين حمص وبعلبك على الطريق على رأسه قلعة سنير. يمتد مغرباً إلى بعلبك ويمتد مشرقاً إلى القريتين وسلمية، وهو في شرقي حماه وجبل الجليل مقابله من جهة الساحل وبينهما الفضاء الواسع الذي فيه حمص وحماه وبلاد كثيرة. ويتصل بلبنان متيامناً حتى يلتحق ببلاد الخزر ويمتد متياسراً إلى المدينة. وسنير الذي ذكر أنه بين حمص وبعلبك شعبة منه إلاّ أنه انفرد بهذا الاسم.

وفي سنير يقول الشاعر الدمشقي ابن حَيُّوس:

إذا جبل الريان لاحت قبابه ... لعيني ولاحت من سنير هضابه
وقامت جبال الثلج زهراً كأنها ... سلائن في بحر يعب عبابه
لثمت الثرى مستشفياً بترابه ... ومن لي بأن يشفي غليلي ترابه

وقال الشاعر الحلبي عبد الله بن سنان الخفاجي:

اسيم ركابي في بلاد غريبة ... من العيس لم يسرح بهن بعير
لقد جهلت حتى أراد غبيرها ... بوادي السلطين أن يلوح سنير
وكم طلبت ماء الأحص بآمد ... وذلك ظلم للرجال كبير

وقال البحتري:

وتعمدت أن تظل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعرض منها بياض تلك القصور

(٧) قنسرين قرية تعرف بـ (أسكي) حلب. وعن خرابها يقول في معجم البلدان: كانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص. وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١، وغلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع ما كان بربضها فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد، فطائفة عبرت البلاد، وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان إلى حلب كثّر بهم من بقي من أهلها، فليس بها اليوم إلاّ خان تنزله القوافل... وقال بعضهم: كان خراب قنسرين سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة بأشهر... ولم تعمر بعد ذلك. ثم يقول: وحاضر قنسرين بلدة باقية إلى الآن.

(٨) هي درعا قاعدة محافظة حوران في سوريا.

(٩) قال الإدريسي: الجبال تقابل عسقلان. وفي صورة الأرض لابن حوقل: الجبال والشراة ناحيتان متميزتان، أما الشراة فمدينتها أذرح، وأما الجبال فمدينتها رواث. وفي البلدان: عرندل: قرية من أرض الشراة من الشام.

(١٠) في صورة الأرض لابن حوقل: زغر: مدينة متصلة بالبادية. وفي مصادر أخرى أن زغر قرية بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيام في طرف البحيرة المنتنة (البحر الميت).

(١١) في: معجم البلدان: كوكب: اسم قلعة مطلة على مدينة طبريا.

(١٢) في: معجم البلدان: الطور: جبل بعينه مطل على طبريا.

الفصل الأول

انبعاث الحكم العربي

يوم الثلاثاء الأول من تشرين الأول/ أكتوبر من السنة ١٩١٨ شهدت الدنيا حدثاً لم تشهد نظيراً له منذ أكثر من أربعمائة سنة.

هذا الحدث هو أن جيشاً عربياً يقوده قائد عربي وترفرف فوقه راية عربية قد دخل مدينة عربية باسطاً سلطانه فيها باسم العرب.

كان يقود هذا الجيش قائد حجازي ينوب في قيادته هذه عن قائده العام الذي هو أيضاً حجازي.

كان القائد الداخل هو الشريف ناصر[١] والقائد العام هو الشريف فيصل بن الحسين.

وقد كان ذلك إثر تمزق الجيش التركي بقيادته الألمانية التركية المشتركة[٢].

لقد استطاع الشريف ناصر أن يسبق بجيشه الصغير، القائد الإنكليزي بجيشه الكبير في الدخول إلى دمشق، فقد كان التسابق بين الجيشين إلى احتلال المدن السورية قائماً، فالعرب حريصون

على أن يسجلوا أنهم الذين حرروا مدنهم، والإنكليز حريصون على أن يمنوا على العرب بأنهم هم الذين حرروا لهم مدنهم.

ويوهم (دافيد فرومكين) في كتابه (سلام ما بعده سلام) بأنه يعتقد بصدق الإنكليز في دعواهم أنهم هم الذين سبقوا إلى احتلال دمشق، وأنهم في مؤتمر الصلح استطاعوا صرف نظر الرئيس الأميركي ويلسون عن أهداف بريطانيا في البلاد العربية في الحكم العثماني وحولوه إلى أهداف فرنسا وذلك عندما شدّوا انتباهه إلى التهديد الفرنسي لاستقلال سوريا، وهو تهديد يتنافى ونقاط ويلسون ومبادئه.

ويقول فرومكين: لم يصل الوفد البريطاني في تماديه إلى حد التظاهر أمام الرئيس الأميركي وغيره من ممثلي الدول بأن فيصل حرر دمشق. فقد كان الجنرال اللنبي دقيقاً في قوله لأعضاء المؤتمر أنه «بعيد الاستيلاء على دمشق سمح لفيصل باحتلال دمشق وبإدارتها» (انتهى)

ونقول نحن: إن رستم حيدر كان أحد أبرز القادة غير العسكريين للجيش العربي الزاحف بقيادة فيصل إلى دمشق وقد رأيناه يؤكد دخول الجيش العربي دمشق بقيادة الشريف ناصر قبل دخول الجيش الإنكليزي إليها.

وكما أننا نعلم يقيناً بأن رستم حيدر قد أثبت صدقه في كل ما دوّن، كذلك فإننا لا نتهم اللنبي بالكذب، فما هي الحقيقة إذن في هذين القولين المتناقضين، وهما في الوقت نفسه صادقان؟!

الحقيقة ـ في رأينا ـ هي أن فيصلاً خشي أنه في ظروفه التي هو فيها، وما يترتب على جيشه مما يقوم به من إنجازات في طريقه إلى

دمشق قبل الوصول إليها خشي أن يسبقه الإنكليز إلى دخول دمشق، فعمد إلى إرسال رسول إلى سلطان الأطرش ليجمع رجاله ومن ينضم إليهم من المتطوعين السوريين غير المرتبطين بالجيش وأن يسرع الجميع بقيادة الرجل الثاني في الجيش العربي بعد فيصل: الشريف ناصر الذي يكسب وجوده على رأس هؤلاء المقاتلين وقيادته لهم، شرعية عسكرية تجعلهم جزءاً من الجيش العربي وممثلين له.

وهكذا سبق الشريف ناصر بمتطوعيه إلى الدخول إلى دمشق قبل الإنكليز وأعلن فيها الحكم العربي، ودخل الإنكليز بعده، وبُعيد دخولهم دخل الجيش العربي ودخل فيصل.

واستعمال اللنبي كلمة (سمح) لفيصل باحتلال دمشق تدل دلالة واضحة على أن اللنبي كان يعرقل تقدم فيصل بجيشه إلى دمشق باعتباره هو القائد العام واعتبار فيصل من القادة التابعين لقيادته، فهو الذي يسمح بالتقدم والتأخر، فهو لم (يسمح) لفيصل بالتقدم إلاّ بعيد تيقنه من دخول الجيش الإنكليزي إلى دمشق.

ولم يكن يعلم أن فيصلاً قد دبّر ما دبّر. ويسمي يوسف الحكيم(٣) قوة الشريف ناصر طليعة الجيش العربي فيقول: فما بزغت شمس أول تشرين الأول حتى ظهرت تحت سماء دمشق (طليعة الجيش العربي) بقيادة الشريف ناصر فاستقبلت استقبالاً شعبياً رائعاً، وأعقبتها فرقة أسترالية حلّت دمشق وضواحيها، ويقول صبحي العمري في الجزء الثاني من كتابه (أوراق الثورة العربية(٤)): دخل الشريف ناصر دمشق ومعه جموع كبيرة: معه هجانة عقيل ونوري الشعلان وعودة أبو تايه وجموعهما وجموع الدروز وفي مقدمتهم سلطان وحسين الأطرش، وغيرهم «انتهى».

ومن هذا يتبين واضحاً أن الداخلين لم يكن فيهم أحد من عسكريي الجيش، ويذكر العمري في مكان آخر من كتابه أن القوة العسكرية النظامية دخلت بعد ذلك، وكان العمري نفسه من ضباطها.

ويكذب العمري لورنس في دعواه أن الجنرال اللنبي دخل دمشق قبل فيصل، فيقول: إن فيصل دخل دمشق قبل اللنبي بعدة ساعات، فاللنبي وصل راكباً سيارة، وفيصل دخلها خيّالاً من طريق الميدان تحف به الألوف من الخيالة والهجانة بموكب لم يشاهد مثله من قبل «انتهى».

وكذلك يقول العمري إن الجيش الإنكليزي وصل إلى المزة من ضواحي دمشق بعد دخول الجيش العربي النظامي إليها بعدة ساعات، وأن الجيش الإنكليزي لم يدخل أحد منه المدينة. وهنا لا بد من القول إن الثورة العربية عندما أعلنت في الحجاز كان مقاتلوها من بدو الحجاز وحدهم، وكانوا مجرد ثوار لا تنظيم عسكرياً لهم، وقد تألف منهم ثلاثة جيوش بقيادة أبناء الحسين الثلاثة، لم يكن في إمرتهم جهاز من الضباط متسلسلي الرتب، أو أي تنظيم قيادي عسكري.

وقد كان لا بد في استمرار الثورة من تشكيل جيش نظامي أرتئي أن تكون نواته من الضباط العرب في الجيش العثماني الذين وقعوا في أسر الإنكليز.

وفي ٢ آب/أغسطس ١٩١٦ وصلت إلى ميناء جدة أول قافلة من هؤلاء وكان معظمها من العراقيين، وتتابع بعد ذلك وصول قوافل الضباط وضباط الصف والجنود، فكانوا يوزعون على الجيوش الثلاثة.

ولما تقرر أن يتجه فيصل بجيشه نحو الشمال واحتل (الوجه)، تقرر ضم معظم الضباط والجنود النظاميين إلى جيشه، وأن يرسل إليه كل من يصل من أمثالهم بعد ذلك. وكان ممن وصل جعفر العسكري فعين قائداً عسكرياً عاماً لجيش فيصل النظامي. وقد جرى تنظيم هذا الجيش وفق الأساليب الحديثة ووزع رجاله ألوية وأفواجاً وسرايا وفصائل وحظائر، كما صنفوا مشاة ومدفعية وخيّالة ومخابرة وهندسة.

وكان هؤلاء إما ممن قدموا من معتقلات الأسر أو فرّوا من الجيش العثماني والتحقوا بجيش الثورة أو أسروا خلال المعارك مع الجيش العثماني.

وعند وصول الجيش العربي النظامي إلى العقبة جرى تنظيم فرقتين، كل فرقة من لوائين وكل لواء من فوجين أو ثلاثة وكل فوج من ثلاث سرايا مشاة وسرية رشاش وفصيل نقلية، كما جرى تشكيل لواء خيالة، وتشكلت المدفعية بلواء صحراء من بطاريتين كل منهما من مدفعين أو أربعة، ومن لواء مدافع جبلية عيار ٧,٥ ببطاريتين كل بطارية من مدفعين أو أربعة مدافع. ونظمت الإعاشة والمهمات والنقليات برئاسة ضباط.

وتشكل المقر العام من ضباط ركن يترأس كل واحد منهم شعبة: العمليات، الإدارة، الاستخبارات، اللوازم، الصحة، المحاسبة.

وجميع هؤلاء الضباط ممن نشأوا في مدارس الجيش العثماني ومنهم من تخرج من مدرسة الأركان ومنهم من أكمل تحصيله العالي في ألمانيا، وكذلك ضباط الصف والجنود، جميعهم ممن خدموا وتدربوا في الجيش العثماني. وكان الضباط ما بين عراقي وشامي ما عدا يمانياً واحداً اسمه (سري) كان ضابطاً في الجيش

العثماني. ولم يكن فيهم أي ضابط أو جندي حجازي لأن الحجازيين كانوا معفيين من الخدمة العسكرية.

وكما سبق الجيش العربي الجيش الإنكليزي في الدخول إلى دمشق فقد كان سبقه من قبل في الدخول إلى مدينة درعا ما أثار غيظ الإنكليز، كما يذكر ذلك رستم حيدر الذي كان من أبرز القادة غير العسكريين في الجيش العربي[٥].

فهو يقول في مذكراته التي كان يدوّنها يومياً، يقول عن يوم الأحد ١٩١٨/٩/٢٩: سباق بين العرب والإنكليز على دمشق، ثم يقول عن يوم الاثنين ١٩١٨/٩/٣٠: صباحاً مع الفجر مشينا إلى درعا.. ثم يقول: السباق بين جيوشنا والإنكليز... ثم يقول: تألم الإنكليز من العرب لأنهم دخلوا درعا قبلهم...

وكما كان دخول دمشق بقيادة الشريف ناصر، فكذلك كان دخول درعا قبل ذلك بقيادته فبادر في الحال إلى تأليف حكومة عربية فيها قبل وصول الجيش الإنكليزي الذي كان يسير في أثر الجيش التركي المنهزم.

يقول لورنس:

«ولما سألت عن أخبار الجنرال باور قيل لي بأن رجاله ينتشرون الآن للإحاطة بدرعا، فسارعت إلى قمة البويب ومنها إلى حيث يتخذ باور استعداداته لمهاجمة درعا كي أبلغه نبأ سقوطها وأوفر عليه عناء المعركة.

وبعد التحية والسلام أخبرت باور بواقع الحال فدهش للخبر وقال:

على كل حال سأذهب إلى درعا كما تشير التعليمات المعطاة لي لأشكل قوة حرس للمحافظة على الأمن.

فأجبته بأن العرب قد سبقوه إلى ذلك ونظموا حكومة عسكرية في المدينة».

ونقل الأمير فيصل مقر قيادته إلى درعا، وتولاه القلق الشديد خشية أن يسبقه الإنكليز إلى احتلال دمشق، فبادر بإرسال نسيب البكري إلى صديقه سلطان باشا الأطرش(٦) ليستحثه على الاشتراك بالمعركة. ولبى سلطان الأطرش نداء الأمير فالتحق بالجيش العربي مع عدد من رجاله، كما انضم عدد من المتطوعين السوريين وزحف الجميع بقيادة الشريف ناصر إلى دمشق فقضوا على مقاومة الجيش التركي نهائياً واستطاعوا الوصول إلى دمشق قبل الجيش الإنكليزي(٧).

دخول فيصل إلى دمشق

في اليوم الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر كان الأمير فيصل يقف عند أبواب دمشق في (القدم)(٨). وكان يُنظر إليه في تلك الساعة على أنه البطل العربي الأول الذي انبعث من بين القرون بعد خمود البطولات العربية طيلة أكثر من أربعمائة سنة...

فلأول مرة بعد تلك السنين الطويلة تشهد الدنيا العربية قائداً عربياً على رأس جيش عربي يقبل على عاصمة عربية محرراً لها...

ومضى فيصل وإلى جانبه الشريف ناصر في موكب فروسي يحف به ما لا يقل عن خمسمائة وألف فارس شاهرين سيوفهم وبنادقهم، يخترق بهم شوارع دمشق المزدحمة بالناس المهللين الهازجين المصفقين، وتتناثر عليه من الشرفات والأسطحة الورود والزهور والعطور.

ويقول رستم حيدر عن أحداث الخميس ١٩١٨/١٠/٣ واصفاً وصول فيصل إلى دار الحكومة:

فكان الدوي والهتاف والتصفيق فوق ما يتصوره كاتب. الكل يترامون على يده فرحين مبتهجين حتى دخل بهو الحكومة الكبير وهناك جمع عظيم من العلماء والأعيان فأحاطوا به والناس تداكت من الباب والخفر يمنعهم ولكن نصحت عليهم فتركوهم. في أثناء ذلك تقدم المفتي وبايعه باسم والده، وكان قبل أعطى فتوى بقتله. وبعده قام الأمير فخطب... فقام (الشيخ) عبد القادر الخطيب وبلّغ الأمر بصوت عال ونوه عن الإسلام ولزوم اتباع القرآن والسنّة ومحافظة حقوق العنصر... فسبحان الله كيف تدور الألسن من محور إلى آخر، وكيف يحول الإنسان لسانه من الذم إلى المدح.

يشير رستم حيدر بهذا القول إلى موقف الشيخ عبد القادر الخطيب وكيف أنه يبلغ عن لسان الأمير فيصل ويمدحه، في حين أنه عند إعلان الثورة العربية في الحجاز تملّق جمال باشا فخطب في الجامع الأموي لاعناً الملك حسين وقال إنه خارجي عاصٍ، عصى الله وشق عصا الطاعة وخرج على خليفة المسلمين.

وعندما جاء فيصل إلى دمشق منتصراً كان أول من دعا باسم والده وأول من لقّبه بأمير المؤمنين.

تأليف أول حكومة عربية

في الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ عهد الأمير فيصل إلى رضا الركابي بتأليف حكومة تدير البلاد ومنحه صلاحيات الحاكم العسكري(٩).

فتألفت حكومة عربية مستقلة استقلالاً تاماً توزعت المناصب فيها على عرب من الأقطار التي وجد منها رجال يومذاك في دمشق. فلم يكن هناك مكان للإقليمية، بل كان الموضوع موضوع أمة عربية ثائرة لطلب استقلالها ووحدتها وحريتها.

فتولى قيادة الجيش نوري السعيد (عراقي). وتولى إدارة الأمن العام جميل المدفعي (عراقي). وتولى إدارة الشرطة محمد علي التميمي (فلسطيني). وتولى قيادة موقع دمشق زكي العظمة (سوري).

فضلاً عن المناصب الكبيرة الأخرى التي كان بين من تولوها لبنانيون مسيحيون مثل إدارة العدلية التي تولاها إسكندر عمون (لبناني ماروني من دير القمر) ما سيأتي تفصيله.

في الطريق إلى بيروت

في الوقت نفسه الذي عُين فيه رضا الركابي حاكماً عسكرياً في دمشق عُيّن شكري الأيوبي حاكماً عسكرياً لبيروت وأُمر بالتوجه إليها في الحال لإعلان الحكومة العربية فيها ورفع العلم العربي. فاتجه إليها على رأس قوة صغيرة يصحبه رستم حيدر الذي حفظ لنا في يومياته حقائق وطرائف عن هذه الرحلة الشاقة التي اتجهوا فيها إلى بيروت على ظهور الخيل عن طريق راشيا فحاصبيا فجديدة مرجعيون فالنبطية فصيدا، وعدا رستم حيدر فقد كان مع شكري الأيوبي معاونه رفيق التميمي ورئيس أركان حربه جميل الألشي.

وكان خروجهم من دمشق في منتصف ليل الجمعة ١٩١٨/١٠/٤ فباتوا في خان ميسلون. ويروي رستم حيدر عن أحداث يوم الجمعة بأنهم جاءوا عين حلوة ومنها إلى ينطا فباتوا فيها في تفاصيل يذكرها، وفي يوم السبت يذكر وصولهم إلى قرية كفرقوق حيث بدأت فيها الاستقبالات الشعبية فيقول:

لاقتنا الخيول فدخلنا في مهرجان عظيم.

ومنها إلى راشيا حيث استقبلتهم الخيل وهتافات: ليحي العرب.

وكان في راشيا والد عارف الشهابي(١٠) الذي أعدمه السفاح

جمال باشا فيمن أعدم من أحرار العرب. ويقول رستم حيدر أنه قال لهم:

الآن أخذت بثأري.

ومضوا إلى دار الحكومة في ازدحام وأهازيج حيث تلي بيان الأمير فيصل. ثم خرجوا من راشيا في احتفال قاصدين حاصبيا، فدخلوها مستقبلين بموكب حافل من رجال ونساء وخيول ورصاص وهتاف: ليحي العرب.

وباتوا ليلتهم في حاصبيا، وهنا غاب الأخذ بالثأر وانطوت فرحة الاستقلال، وتحركت النوازع القبلية... الشهابيون لا يريدون القائمقام إلاّ منهم.

على أن الوافدين لم ينسوا أن يزوروا زوجة الشهيد عارف الشهابي. وهناك خطب رسم حيدر معدداً مناقب الشهيد فأبكى الناس.

ومضوا من حاصبيا يوم الأحد فوصلوا إلى جديدة مرجعيون قبل الظهر. وهنا برز الوجه اللبناني في مختلف تلفتاته، ما عبر عنه رستم حيدر بقوله:

إن الاستقبال كان بسيطاً.

وبقوله:

ميل إنكليزي.

وخطب شاب بعد الطعام مشيراً إلى الإنكليز، فعارضه الباشا (شكري الأيوبي) بلزوم الاتحاد وأن الحكومة عربية مع شكرنا لحلفائنا.

وتركوا جديدة مرجعيون متجهين إلى النبطية، ويذكر رستم حيدر

مرورهم على جسر [تاركاً في مكان اسمه فراغاً مملوءاً بأربع نقط] فيعلق محقق الكتاب على ذلك بأن الاسم غير مذكور في الأصل. ويبدو أن رستم لم يجد من يسأله عن اسم الجسر فترك مكان اسمه فارغاً.

الجسر هو جسر الخردلة على نهر الليطاني.

وقبيل النبطية مع المساء خرج إليهم كامل الأسعد مع بعض بني عمه على حد تعبير رستم. وأحسب أن الذين كانوا مع كامل الأسعد ليسوا بعض بني عمه كما توهم رستم، بل هم آل الفضل (بكوات النبطية) محمود الفضل وأخوه فضل الفضل ومن إليهما.

والنبطية ليست بلدة كامل الأسعد، بل إن بلدته هي الطيبة وهي ليست على طريقهم، لذلك جاء النبطية ليستقبلهم فيها.

ونزلوا في النبطية في بيت محمود الفضل الذي يقتصر رستم في تعريفه على ذكر اسمه مقروناً بنعت (بك) دون ذكر لقبه.

ويبدو جلياً أن رستم حيدر كان في ما يكتب إنما يسجل رؤوس أقلام ليعود بعد ذلك فيفصلها، ولكن المشاغل صرفته عن ذلك، فلم يبق مما كتبه إلاّ رؤوس الأقلام هذه.

فهو يقول:

الأسعد والصلح ورياض الصلح. توحيد الكلمة، وعد.

والذين يعرفون خفايا الأمور هناك يدركون ما تعني هذه الكلمات. إن القبلية الكامنة موقتاً بدأ قرنها يذر، وإن فرحة التحرر وبهجة الاستقلال لم تستطيعا لها مواراة دائمة. فإن تباغضاً بعيد الجذور بين الأسعد والصلح، وتزاحماً على النفوذ المحلي بينهما بدأت طلائعهما وستبدو أكثر في السيطرة على صيدا التي حاول رياض

الصلح أن يعلن فيها الحكم العربي برئاسته فدهمته خيالة كامل الأسعد، وبينما الفريقان على وشك المعارك دهمتهما خيالة الإنكليز فتواريا من الميدان.

ويبدو أن رستم كان مطلعاً على ما في النفوس فحضّ كامل الأسعد على توحيد الكلمة وأن كاملاً وعده بذلك.

ولا يبرز الأمر واضحاً في مرورهم على صيدا. إذ كل ما دونه رستم هو هذه الكلمات:

في التاسعة مشينا، في الخان استرحنا[١١] ثم سرنا حتى صيدا، مجيء الإنكليز إلى صيدا، الذهاب لاستقبالهم. لزوم الإسراع. المرور شرق صيدا. الإنكليز على الجسر[١٢] الوثيقة.

وفي هذا الكلام كلمة واحدة نفهم منها شيئاً كثيراً، هي كلمة: (لزوم الإسراع). فإن وصول الإنكليز إلى صيدا وتوقع وصولهم إلى بيروت يقضيان بوجوب الإسراع في الوصول إلى بيروت ودخولها قبل الإنكليز.

لذلك لم يعرج الركب على صيدا ولم يقابل أحداً، ولا توقف حتى الوصول إلى بيروت. وفي أحداث يوم الاثنين ١٩١٨/١٠/٧ يقول:

في بيروت

وصلت إلى بيروت في خمس ساعات، لبس مكي حجازي، استلفات النظر، عمر الداعوق، احضار عربيات، أبو علي سلام، سرنا، مختار بيهم، موسيقى لقاء باهر، تصفيق على الأطراف. قبلاً في الطريق، استحضارات الإنكليز، كل ينتظر ويسأل. دخولنا مهيج حتى ساحة البرج، ركّز العلم في موقع الشهداء، الازدحام، ثم في الحكومة الخلق، قبل وصولنا، ثلاثة اطومبيلات إنكليزية، الروحانيون،

العلماء، الأعيان، خطب، والقائد الإنكليزي، ثم تلوت بيان الأمير وكتبت بيان الباشا على بعض كلمات فكان لتلاوته تأثير: سوريا هي جبل لبنان، بيروت - شام - حلب - حتى جبال طوروس. هتاف. أصدقاء، زي بدوي، لحيتي، الحكومة في لبنان، أعمال البيروتيين، الدعوة عند علي سلام المسيحيون. هلاك من التعب، ٢٦ ساعة على الخيل.

وإلى هذا الحد ينتهي ما سجله عن يوم الاثنين. ويبقى علينا حل هذه الرموز:

يبدو أن أول المستقبلين في بيروت كان عمر الداعوق. ويبدو أن استقباله هذا كان بصفته رئيس الحكومة العربية الموقتة التي تشكلت بناء على برقية تلقاها عمر الداعوق من دمشق بصفته رئيس بلدية بيروت، بهذا النص:

«بناء على انسحاب الحكومة التركية فقد أسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف. طمئنوا الجميع وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية».

واجتمع وجهاء بيروت وألفوا حكومة عربية موقتة برئاسة عمر الداعوق. وأسندت إدارة الأمن العام إلى أحمد مختار بيهم يعاونه كل من سليم الطيارة وجان فريج.

وكان إسماعيل حقي والي بيروت أذاع قبل أن ينسحب منها بياناً على الموظفين هذا نصه:

إلى عموم المأمورين.

بناء على إعلان الحكومة العربية أصبحت المدينة تجاه أمر واقع، فلقد عهد بإدارة الحكومة لرئيس البلدية عمر بك الداعوق. فتجاه هذه الوضعية أصبحت وظيفتكم منتهية لذلك أطلعكم على هذه التبديلات وأودعكم إياها.

وقد أذاع عمر الداعوق بياناً على الأهلين هذا نصه:

١ ـ على الأهلين والمأمورين ورجال الجندرمة والبوليس متابعة أشغالهم ووظائفهم بتمام السكينة والهدوء وبكل نشاط واستقامة. ويتحتم على الأهلين أن لا يتداخلوا بما لا يعنيهم ولا يتعدّى بعضهم على بعض.

٢ ـ ممنوع قطعياً حمل السلاح والخروج على الطرق ليلاً بعد الساعة الثامنة مساء.

٣ ـ إذا حدث تعدٍ على أحد فعليه حالاً أن يخبر أقرب مخفر للبوليس.

٤ ـ إذا وقعت أقل مغدورية أو مخالفة أو تماهل بالوظيفة على الأهالي من قبل أي كان فعليه أن يعلمنا حالاً.

٥ ـ كل من يتجرأ على مخالفة هذه الأوامر يجازى أشد الجزاء. ومن يتجاسر على الإخلال بالأمن العام يحاكم ويعدم حالاً.

٦ ـ المظاهرات والتجمع وإلقاء الخطب ممنوعة بتاتاً من طرف الأهلين.

٧ ـ بما أن الأتراك وعيالهم وسائر الغرباء هم ودائع عندنا فيجب على العموم العناية براحتهم ورفاهيتهم كما تقتضيه الشهامة العربية.

بيروت الثلاثاء في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٦
و٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨
رئيس الحكومة العربية في بيروت
عمر الداعوق

ويبدو أن القادة استبدلوا الخيول التي قدموا عليها بالعربات التي

أعدها لهم عمر الداعوق، وأنه كان في استقبالهم مع عمر الداعوق كل من أبو علي سلام ومختار بيهم مع جمهور قابلهم بالتصفيق متواصلاً على جوانب الشوارع بحيث صح أن يصفه رستم حيدر بأنه لقاء باهر جرى على نغمات الموسيقى، وأن دخولهم كان دخولاً مهيجاً وأنهم مشوا رأساً إلى ساحة البرج حيث ركزوا العلم العربي في المكان الذي شنق فيه الشهداء، وكان الازدحام شديداً.

وقبل أن يتابع الحديث عما جرى يتذكر شيئاً قبل وصولهم فيقول:

> قبلاً في الطريق استحضارات الإنكليز، كل ينتظر ويسأل.

ونحن لا نستطيع تفسير ما يعنيه باستحضارات الإنكليز. ومن الطبيعي أن يكون الإنكليز معنيين بما يجري، ولكن ما هي استحضاراتهم الراهنة؟

وبمثل قوله:

> كل ينتظر ويسأل: تلهف الناس على معرفة تفاصيل ما يجري، فهم يشاهدون قوى إنكليزية، ويشاهدون ركباً عربياً، وشهدوا انهيار حكم دام أربع مئة سنة، فلا بدع أن ينتظروا ويسألوا.

ثم يعود رستم حيدر إلى متابعة سرد الأحداث سرداً لا يعدو رؤوس الأقلام فيقول:

> ثم في الحكومة. وهو يعني هنا دار الحكومة (السرايا). ورأيناه يستعمل الكلمة بهذا المعنى أثناء سرده لأحداث دمشق.

ثم يتابع:

> الخلق، إلى آخر ما ذكرناه فيما تقدم.

فهو يذكر هنا انتقالهم من ساحة البرج إلى دار الحكومة في ازدحام للناس شديد، هذا الازدحام الذي عبر عنه بكلمة (الخلق).

ولا شك أنه استنتج شيئاً مهماً من لقياهم ثلاثة اطومبيلات إنكليزية على الطريق ولولا ذلك لما أشار إلى هذا اللقاء، أما ما هو هذا الاستنتاج فهو ما غاب عنا لأن رستم حيدر لم يعد بعد ذلك إلى تفصيل رؤوس الأقلام التي سجلها.

ومن بين الخلق الذين ذكرهم أوضح أصنافاً معينة كانت بين المزدحمين حولهم، بدأها بالروحانيين فالعلماء. ونحن نفهم من كلمة: (الروحانيون) أنها تعني رجال الدين المسيحي، وحرص على أن يخصهم بالذكر لأهمية مشاركتهم في مهرجان يقام احتفالاً بإعلان الحكم العربي في بيروت. وهذا شيء مهم جداً يدلنا على أن المواطنين على اختلاف عقائدهم الدينية كانوا مع هذا الحكم ولا اعتراض لهم عليه، لأنهم كانوا حتى تلك الساعة لا يزالون على فطرتهم الوطنية لم تدخل بينهم الدسائس الأجنبية لتفسد هذه الفطرة وتبلبل الآراء وتشتت الأفكار. على أن اللافت للنظر هو أن الاستقبال الأول لم يكن فيه بعد عمر الداعوق غير اثنين من وجهاء المسلمين دون مشاركة أي وجيه مسيحي. على أننا سنلحظ أنه بعد حديثه عن وقائع ما جرى على طريقة رؤوس الأقلام أنهى هذا الحديث بكلمة (المسيحيون) ما سنتحدث عنه عند الوصول إليه.

بعدما ذكر (الروحانيون) بين الحاضرين ذكر (العلماء)، وبذلك نعرف أنه التقى هناك رجال الدين المسيحيين ورجال الدين المسلمين، ومن الطبيعي حضور (الأعيان). وكلمة (خطب) تدل على أن خطباً ترحيبية حماسية ألقيت.

ويعترضنا هنا لغز يعسر علينا حله هو مثل لغز (الاطومبيلات الثلاثة) المتقدم. قال بعد كلمة (خطب): «والقائد الإنكليزي».

فماذا كان شأن القائد الإنكليزي هنا؟

ثم يذكر رستم حيدر أنه تلا هناك بيان الأمير فيصل، دون أن نعرف نص هذا البيان، وكان في معرفته توضيح لمنهج الأمير في الحكم الجديد، وهذا التوضيح كبير الأهمية في تاريخ تلك الحقبة.

وبعد تلاوة بيان الأمير يقول إنه كتب بيان شكري الأيوبي على بعض كلمات، ثم يقول: كان لتلاوته تأثير. والضمير في تلاوته يعود يقيناً إلى بيان الأمير، على أن الشيء غير المفهوم هو قوله إنه كتب بيان شكري الأيوبي على بعض كلمات، فماذا يعني ذلك؟

أما الشيء الخطير فهو هذا التعداد الذي تتابعت فيه كلمات: (سوريا هي جبل لبنان، بيروت ـ شام ـ حلب ـ حتى جبال طوروس) والذي ذكر بعدها أن البيان قوبل بهتاف. إن هذه الكلمات تشير إلى ما تضمنه بيان الأمير الذي ألقاه رستم حيدر والذي قوبل بهتاف، فماذا تعني هذه الكلمات التي لم يصل إلينا غيرها من بيان الأمير؟

ماذا كان يعني البيان من قوله: سوريا هي جبل لبنان؟

من الطبيعي أن بيان الأمير كان يتضمن منهجه في الحكم العربي الذي يعلن الآن قيامه، وأن مصير لبنان هو من صميم هذا المنهج، وأن علاقة لبنان بسوريا هي من صميم هذا الصميم، وجاء تحديد هذه العلاقة في (رؤوس أقلام) مذكرات رستم حيدر بأن سوريا هي جبل لبنان، وفي هذا التعبير كل الوضوح، وفيه في الوقت نفسه كل الغموض.

الوضوح في ذهن من يهوى أمتن علاقة بين البلدين، والغموض في نفس من يريبه تداني البلدين!

والفريقان كانا موجودين يستمعان إلى تلاوة البيان.

فهل يمكننا أن نستنتج أن قول رستم حيدر: أنه (كتب بيان شكري الأيوبي على بعض كلمات) يعني أن شكري الأيوبي ومن معه أرادوا أن يزيلوا ريب المستريبين، فكلف شكري الأيوبي، رستم حيدر أن يكتب تعليقاً على بعض الكلمات الباعثة على الريب، وأن لب تلك الكلمات هو: (سوريا هي جبل لبنان).

وينتقل رستم حيدر بعد هذا الرأس من رؤوس أقلام مذكراته إلى رأس آخر هو قوله: «الحكومة في لبنان».

وهذا يعني أنهم كانوا مسلّمين بأن للبنان شأناً خاصاً لا يرتبط بشأن بيروت، ولا هو تبع له، وأن له حكومة أخرى غير حكومة بيروت ومنفصلة عنها، وأن عليهم التهيؤ لإقامة هذه الحكومة.

فهم لم يفكروا مثل هذا التفكير في صيدا مثلاً، ولم يشغلهم أمر حكومتها، لأن إقامة الحكومة في بيروت مؤداه إقامة الحكومة في صيدا.

وليس الأمر كذلك ـ عندهم ـ في لبنان، فلبنان يرث حكماً لا بد من مراعاة شأنه في العهد العربي الجديد.

ثم ينتقل بنا رستم حيدر إلى موضوع جديد، يجعلنا نتميز غيظاً لأنه لم يزد على أن سطره كما سطر غيره في رؤوس أقلامه، وهو قوله: «أعمال البيروتيين».

فماذا كان وراء هذا القول؟ أكان وراءه أن أعمالاً بيروتية ضايقته، أم ماذا؟

ثم يقول: «الدعوة عند علي سلام». وكما ذكرنا من قبل فهو يقصد: أبو علي سلام، لا علي سلام. وبعد ذلك نصل إلى موضوع من أخطر مواضيع مذكرات رستم حيدر وهو قوله: «المسيحيون». وهنا يتركنا ـ كما تركنا من قبل ـ في جهل مطبق

بهذا الموضوع الخطير. ومن أجل أن يخصهم بالذكر في مذكراته لا بد أن يكون لهم موقف متميز في هذا الحدث الكبير، وهذا طبيعي، ولكن ما هو هذا الموقف وما هي أبعاده؟

هذا ما كان رستم حيدر ينوي أن يفصله حين يعود إلى تفصيل ما أوجزه في ما دون من رؤوس أقلام. ولكن الأحداث المصيرية الخطيرة التي ظلت تتوالى، وكان رستم حيدر في قلبها ومن المصطلين بنارها والمحاولين الأخذ بزمامها، صرفته عن الكتابة، فخسرنا بذلك تسجيل تاريخ لهذا البلد كان في تسجيله كل الخير وأعظم النفع.

ورستم حيدر وهو يكتب ما يكتب لم ينس كتابة أشياء خاصة به، فهو يقول: (زي بدوي) إشارة إلى الزي الذي كان يرتديه، ولا نحسب أن بداوة زيه كانت تتعدى لباس الرأس.

ثم هو يقول: (لحيتي) إشارة إلى أنه كان في تلك الأيام يطلق لحيته. ثم هو يشير إلى ما كان وصل إليه من تعب بعد تلك الرحلة الطويلة على ظهور الخيل فيختصر ذلك بقوله: هلاك من التعب، ٢٦ ساعة على الخيل.

ومن قبل كان كتب كلمة «أصدقاء» وهي تدل على أنه التقى بأصدقائه القدامى الذين فارقهم (تلميذاً)، ثم عاد إليهم بعد رحلة طويلة بدأها طالباً في باريس ثم معلماً في دمشق والقدس وغيرهما، ثم ثائراً في مشارف بلاد الشام وفي الأردن وحوران، ثم فاتحاً مع الفاتحين لدمشق، وها هو الآن رسول من رسل المملكة العربية إلى أقطار العرب.

ها هو الآن يعود إلى أصدقائه في بيروت بدوي اللباس، كث اللحية، خشن اليدين، مجهد الجسم، بعد أن فارقهم غض الإهاب

في ريق الشباب ونضارة الوجه ونعومة الأنامل وراحة الجسد... فارقهم وهو يحلم وهم يحلمون باستقلال عربي وملك قحطاني عدناني، وراية مستمدة ألوانها من تاريخهم.

وها هو يعود إليهم بإعلان الاستقلال، وتحقيق الملك، ورفع الراية. تحقق الحلم ولكن إلى حين، وما كان أقصره من حين!

وفي رؤوس أقلام يوم الثلثاء ۱۹۱۸/۱۰/۸ يفتتح بهذه الجمل الثلاث «بعض الأخوان لزوم التشكيلات»، «إلى الحكومة»، «رفعنا اللحية».

هذه الرموز توصلنا إلى استنتاجات نرجح سلامتها: فنرى أنهم لم يكونوا حملوا معهم خطة مفصلة لأن قصر الوقت بين إعلان الحكم العربي في دمشق وقرار إيفادهم إلى بيروت لم يكن يسمح بدراسات يتقرر معها منهج معين وقرار مركزي عليهم تنفيذه في ما يمرون به من بلاد، ثم في بيروت وهي الهدف المقصود في الرحلة. وإنما كان الأمر متروكاً لهم يتصرفون بما يقتضيه الحال ويرتجلون ما يجب فيه الارتجال.

قلنا متروكاً لهم، والحقيقة أن ذلك كان متروكاً لرستم حيدر وحده، وأن مهمة شكري باشا الأيوبي كانت مهمة تنفيذية بحتة اقتضتها سنه وماضيه ورتبته العسكرية، والدليل على ذلك ما ورد في الكتاب المكلف رستم القيام بمهمته هذه. والكتاب بخط رضا الركابي باعتباره حاكم سوريا العسكري العام وموقّع منه، وعلى ورقة عادية لا تحمل أي رمز حكومي أو ترقيم أو أي شيء يدل على أنها صادرة عن مرجع حكومي أو الأحرى عن أعلى مرجع حكومي.

وهذا يدلنا على أن الحكم العربي في دمشق لم يكن تيسر له في

هذه الفترة القصيرة حتى أبسط ما يجب أن يتيسر لأي حكم من أدوات، وأنه لم يكن أعد حتى الأوراق الرسمية.

يقول كتاب التكليف الذي احتفظ به رستم حيدر بين أوراق مذكراته، ثم نشره ناشرو المذكرات مصوراً فكان من الوثائق المهمة في تاريخ تلك الحقبة.

يقول الكتاب:

«لحضرة محمد بك رستم

حيث وجدت من الضروري تبليغ أهالي ولاية بيروت ولواء جبل لبنان تأسيس الحكومة العربية فقد انتخبناكم لهذه المهمة فالرجاء من همتكم السفر برفاقة حضرة شكري باشا الأيوبي والي بيروت وحاكمها العسكري إلى بيروت وتبليغ الأهلين تأسيس الحكومة العربية باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين وركز علمها المنصور على دائرة الحكومة وبعد الفراغ من هذه المهمة تسافرون إلى جبل لبنان وتقوموا لنا بالوظيفة نفسها بما عهد بكم من الدراية والحكمة وحسن السياسة وبعد ذلك تعاودون إلى بيروت وتبقون برفاقة شكري باشا إلى إشعار آخر. ويجب عليكم أيضاً أن تقوموا بمثل هذا الواجب في كل بلد حلّ ركابكم بها أثناء الطريق راجياً لكم النجاح والسلام عليكم.

... سنة ١٣٣٦هـ حاكم سوريا العسكري العام

علي رضا الركابي

وهكذا نرى أن المهمة المحددة هي إعلان الحكم العربي ورفع علمه على الدوائر الحكومية، وإعلان شكري الأيوبي والياً على ولاية بيروت وفي الوقت نفسه حاكماً عسكرياً.

أما التفصيلات فهي متروكة لحكمة رستم حيدر. وقد رأينا أنه على طول الطريق الذي اجتازه الركب العربي لم يسم أحداً لحكم

المناطق التي لا بد من وجود حاكم إداري فيها (قائمقام) ابتداء من راشيا حتى صيدا وفي ذلك حاصبيا وجديدة مرجعيون، فيما عدا ما ذكر من أن الشهابيين طلبوا أن يكون قائمقام حاصبيا منهم.

أما صيدا فإن رياض الصلح استبق الأحداث وأعلن فيها الحكم العربي مسمياً نفسه حاكماً لها، مما أغاظ كامل الأسعد الذي أرسل رجاله إلى صيدا ليحولوا بين رياض وبين هذا الحكم ولم يكد يبدأ الاحتكاك بين الفريقين حتى دهمهم الاحتلال الإنكليزي فانهارت آمال الجميع، ما مرت الإشارة إليه في ما تقدم من القول.

ومن هذا يتبين لنا أن الحكم العربي الجديد أقر لجبل لبنان بوضعه الخاص وبعدم تابعيته للولاية وارتباطه رأساً بالعاصمة على ما كان عليه في العهد العثماني قبل الحرب العالمية.

أما تفاصيل هذا الوضع ومقدار انطباقه على (بروتوكول) لبنان فذلك مما لم يكن الوقت سمح بتحديده، وهو متروك للأيام التالية. هذه الأيام التي تبين بعد قليل من الوقت أنها لن تأتي، وأن الأمور ستتطور سريعاً فيجعل ذلك كل ما يجري نوعاً من أحلام اليقظة.

من هنا كتب رستم حيدر: «بعض الاخوان لزوم التشكيلات» ومعنى ذلك أن هناك من رأى عدم الاكتفاء بإعلان الحكم العربي وإعلان تعيين شكري باشا الأيوبي والياً لولاية بيروت، بل يجب البدء حالاً بتنظيم دوائر الدولة وإقامة هيكلية الحكم وتعيين الموظفين في هذه الهيكلية. ثم يتبع هذا القول بهذه الجملة: (إلى الحكومة) وذلك يعني أنهم انتقلوا إلى مقر الحكومة (السرايا).

وهنا يعود إلى أحواله الخاصة فيقول: (رفعنا اللحية). لا شك أن

تلك اللحية كانت تضايقه، وإذا صح أنه كان لا بد منها في الجو البدوي الذي عاش فيه منذ التحاقه بفيصل حتى دخوله دمشق، فإنه لم يعد يصح له أن يتمسك بها مذ عاد إلى جوه الحضري. ويدلنا تخصيصه لها بالذكر مرتين على أن وجودها كان يشغله، وأن الانعتاق منها أراحه.

فيا لطرافة رستم رجل الدولة الحازم الصارم حين يخص لحيته بالذكر وهو يتحدث عن دور من أخطر أدوار الأمة العربية.

ثم يواصل رستم الكلام: في الحكومة، لبنان كان تقرر الذهاب إليه. في الحكومة اجتماع مع حبيب باشا، قبلاً خوفونا، قبل الرجل، حمية أظهرها لبنان من جهة الضرائب، هونا عليه الخطب، تقرر ذهابنا في الساعة الثالثة بعد الظهر. ذهبنا، جمع غفير، إعلان الحكومة، يمين الإخلاص خطب أمام العموم. الاجتماع العام، ثم رجعنا إلى بيروت. كتابة الصورة في الجرائد. بعد الأكل خرج الباشا إلى التجوال في بيروت على الخيل.

إلى بعبدا

كانت نتيجة المداولات في دار الحكومة في بيروت وجوب الذهاب إلى بعبدا لإعلان الحكم العربي وإعلان اسم الرجل الذي سيعهد إليه في إدارة الحكم في متصرفية جبل لبنان في العهد العربي الجديد.

فاستدعي حبيب باشا السعد إلى دار الحكومة لمفاوضته في تولي أمر الحكومة الجديدة، ويظهر أنه كانت لديهم بعض المخاوف في هذا الشأن، ويبدو ذلك في قول رستم: «قبلاً خوفونا». وإذا كان رستم لم يحدد تلك المخاوف، فإن في قوله بعد ذلك: (قبل الرجل) ما يدل على أن هذه المخاوف كانت توقع عدم قبول حبيب السعد

بهذه المهمة، ولكن تبين أن هذه المخاوف لا محل لها إذ بادر الرجل بالقبول.

ولا ندري ما يقصد رستم بقوله بعد ذلك:

حمية أظهرها لبنان من جهة الضرائب، ثم يتابع كلامه قائلاً: هونّا عليه الخطب.

فهل يقصد أن حبيب السعد ورهطه أظهروا استعداداً للتساوي في الضرائب مع مناطق الحكم العربي الأخرى التي لم يكن لبنان متساوياً معها، بل كانت الضرائب المفروضة عليه أقل من الضرائب المفروضة على بقية أجزاء الدولة العثمانية، وأن رستم حيدر هون على حبيب السعد ورهطه الخطب في هذا الأمر، ما لا يكون عبئاً على المكلف اللبناني.

كان الجميع يخططون للبعيد البعيد، ولكن الزمن كان يردد: «وتقدرون فتضحك الأقدار...».

لم يكونوا يدرون أن قراراتهم لن ينقضي عنها الليل ويطلع عليها الصباح حتى يمحوها سيف القوة المعد للظهور في اليوم التالي.

وبعد أن انتهت المشكلة مع حبيب السعد بقبوله إدارة الحكم العربي في جبل لبنان، والتفاهم المبدئي على أمور الضرائب، يقول رستم حيدر:

تقرر ذهابنا في الساعة الثالثة بعد الظهر.

وإذا كان لم يحدد مكان الذهاب، فنحن نعرف أنه:

بعبدا عاصمة جبل لبنان، فهي المكان الذي سيرفع فيه العلم العربي ويعلن تشكيل الحكومة العربية بإدارة حبيب السعد.

ثم يقول:

ذهبنا، جمع غفير. إعلان الحكومة. يمين الإخلاص. خطب أمام العموم. الاجتماع العام. ثم رجعنا إلى بيروت. كتابة الصورة في الجرائد. بعد الأكل خرج الباشا إلى التجوال في بيروت على الخيل.

من هذه الكلمات الموجزة ندرك أن جمعاً غفيراً تجمع في بعبدا ارتقاباً لهذا الحدث الخطير.

ولكن رستم حيدر لم يبين لنا شيئاً عن موقف هذا الجمع الغفير من الحدث، فهل كان مبعث هذا التجمع هو الفضول، أو كان الترحيب بما سيحدث؟!

إلا أن مجرد عدم إشارة رستم إلى رأي هؤلاء المجتمعين، وعدم الإشارة كذلك إلى مقابلتهم الوفد بالترحيب والهتاف والتصفيق، وعدم ذكر أي كلمة تشير إلى ابتهاج أو هتاف أو استحسان، ذلك يدل على أن الناس اجتمعوا مرتابين بما يجري، لذلك لم يقابلوا الوافدين لا بتأهيل ولا باستنكار في انتظار ما ستنجلي عنه الأيام من حقائق يتطلعون إليها.

ثم يشير رستم إلى إعلان الحكومة العربية الجديدة، وإلى أن الحاكم المعين حلف يمين الإخلاص لها.

وكما أن رستم لم يشر بشيء إلى ما يدل على حقيقة عواطف الجمع الغفير عند وصول الوفد، كذلك لم يشر بشيء إلى هذه الحقيقة عند إعلان الحكومة وعند حلف اليمين.

على أن عدم الإشارة إلى شيء من هذا هو في الواقع إشارة واضحة، فلو كان هناك ترحيب واغتباط لأشار إليهما.

ثم يقول رستم حيدر:

خطب أمام العموم. الاجتماع العام.

ولم يبيّن لنا من هو أو من هم الذين خطبوا، ولنا أن نقول: إن رستم كان هو الخطيب، وأنه أوضح وشرح ووعد.

ولكن ماذا كان صدى تلك الخطبة أو الخطب؟ ويكفي أن لا يرد في كلام رستم ما يدل على حقيقة هذا الصدى لنعلم أنه لم يكن صدى حماسة وابتهاج.

والشيء الغامض كل الغموض وهو قوله: الاجتماع العام.

فما دام الإعلان تمّ، وحلف يمين الاخلاص كذلك تمّ، والخطب تمّت، ما دام ذلك كله تمّ أمام (الجمع الغفير).

وهذا كله اجتماع عام، فما المقصود بالاجتماع العام، وأين تمّ هذا الاجتماع، وماذا جرى فيه؟ ذلك كله قد ظل مكتوماً في صدر رستم حيدر، ولم يظهر على قلمه.

وبعد الاجتماع العام عادوا إلى بيروت، ونشروا خبر ما جرى في الجرائد ولكن أي جرائد كانت تصدر في ذلك الحين في بيروت؟

وكيف كان يمكن أن تصدر جرائد في بيروت في تلك الفترة القصيرة المنقضية بين جلاء الأتراك وقدوم العرب؟

ويبدو أن شكري باشا الأيوبي كان منتشياً بتحقيق ما تحقق، فها هو اليوم: الحاكم العسكري العربي على ولاية بيروت، وها هو يقوم بتنصيب الحكام مبتدئاً بأكبر منطقة وأخطرها، تلك هي منطقة جبل لبنان.

لذلك عمد أولاً إلى تناول الطعام، ولا شك أنه تناوله بأعظم شهية، مبعثها هذا الظفر الذي حققه، ولم يلبث بعد الطعام أن قام بجولة في بيروت على ظهور الخيل.

يقول رستم حيدر:

بعد الأكل خرج الباشا إلى التجوال في بيروت على الخيل.

خرج ـ ولا شك ـ مزهواً بما تحقق، مستمتعاً بالتجوال في الدروب التي بات حكمه نافذاً فيها، وبين الناس الذين صاروا من رعاياه، غير متفطن لقول الشاعر الذي سيقول:

قد أردنا من الغنائم حظاً فوردنا الوغى فكنا الغنائم

في بيروت بهجة الاستقلال ونشوة الحرية، وارتفاع العلم العربي، ورؤية الحاكم المتمثل فيه كل ذلك.

تحقيق الحلم المنشود الذي طال انتظار تحقيقه، زوال أربعمائة سنة من الحكم غير العربي، وانبعاث أول يوم من السنين العربية التالية.

صور هذه الحقائق المتماوجة في سماء بيروت، متماوجة تماوجاً ملموساً باليد ومرئياً بالعين ومسموعاً بالأذن، بعد أن كانت خيالاً يلوح في الذهن وحلماً يتراءى في الفكر.

هذا كله نُسي، هذا كله لن يخمد جشع النفوس والتكالب على المناصب.

بعد أن أنهى رستم حيدر تسجيل ما سجل من أحداث يوم الثلثاء ١٩١٨/١/٨ عاد إلى التسجيل من جديد كاتباً:

ملاحظات: أهل بيروت يريدون الحاكم منهم لكل الظروف...

وإذا كان ما سجله رستم حيدر من قبل، لم يعد أن يكون رؤوس أقلام تحتاج إلى ذكر تفاصيل وشروح، فإن هذه الجملة إذا دخلت في هذا الوصف من حيث إيجازها، فإنها لا تدخل فيه من حيث دلالتها، فهي غنية عن كل شرح وتفصيل.

وتجيء فيها كلمة (لكل الظروف) واضحة كل الوضوح، فحتى

هذا الظرف الاستثنائي الذي اقتضى إرسال رجل عسكري لا ليكون والياً مدنياً فقط، بل ليكون حاكماً عسكرياً أيضاً، لأن الدنيا كلها هي الآن في حكم العسكريين، حتى هذا الظرف الاستثنائي، كان الاعتراض عليه صريحاً بيناً وذلك من قول رستم حيدر: لكل الظروف.

ونحن نظلم أهل بيروت إذا اعتبرنا أنهم هم المقصودون بهذا الكلام، فأهل بيروت، شعب بيروت، جماهير بيروت، أوضح رستم حيدر حقيقة شعورها في ما سطره من كلام قبل هذا الكلام حين يصف الوصول إلى بيروت:

(لقاء باهر، تصفيق على الأطراف، قبلاً في الطريق، دخولنا مهيج حتى ساحة البرج، الازدحام، ثم في الحكومة، الخلق...).

هكذا كان أهل بيروت وهم يرون الوفد العربي، حاملاً العلم العربي، منبئاً بالاستقلال العربي.

كانوا كما وصفهم رستم حيدر بكلماته القليلة المنبئة بالكثير ولم يجل في خاطرهم أي مطمع خاص، ولا فكروا إلاّ فيما وراء هذا اليوم من استقلال وحرية وأمجاد عربية.

لم يكن لهم وصول إلى رستم حيدر ولا إلى شكري الأيوبي ولا إلى أحد من رفاقهما، لينبئوهم بأنهم (يريدون الحاكم منهم لكل الظروف).

كان هناك من تسابق إلى دعوتهم والتفرد بهم فأبلغهم فيما أبلغهم: أن حاكم بيروت يجب أن يكون بيروتياً.

ولا شك أن هؤلاء يريدون أن يعوضوا ـ مثلاً ـ عن مقعد نيابي كان لهم في استنبول، وعن كرسي في مجلس الأعيان، وعن غير ذلك من المغانم.

إن رستم حيدر حين كتب جملة: أهل بيروت يريدون الحاكم منهم، أعقبها بنقط...

وأحسب أن هذه النقط التي تبدو في مظهرها صامتة، هي في واقعها معبرة أوضح تعبير، ولم يستطع رستم ـ وهو يدون ما يدون موجزاً ـ كما لم يجد أروع بلاغة منها تنطق بما صدم نفسه وشعوره وتطلعاته وابتهاجه.

ثم يتابع رستم حيدر كلامه:

أهل لبنان ارتاحوا للصلاحية المعطاة لهم. يحبون الأبهة.

وإذا كان لم يبد لنا من قبل في كلامه ما يدل على حقيقة موقف اللبنانيين من هذا الحكم الجديد، فكان هنا واضحاً كل الوضوح حين يقول إن اللبنانيين كانوا مرتاحين، وأن سبب ارتياحهم هو الصلاحيات المعطاة لهم، وإذا كان لم يبين لنا ما هي تلك الصلاحيات، فإننا نعلم أنها كانت مستمدة من وضع لبنان الاستثنائي الذي كان عليه قبل الحرب.

ومن الطبيعي أن هذه السياسة ليست سياسة رستم حيدر الشخصية وأن هذا القرار ليس قراره الانفرادي، بل إن رستم حيدر كان مأموراً من المصدر الأول في الحكم (فيصل) بأن يعلن ما أعلن.

وفيصل نفسه لم يتخذ قراره إلاّ بعد مذاكرة إخوانه وبينهم رستم. فالسياسة هي سياسة الحكم العربي الناشىء، والقرار هو قراره.

وإذا قلنا إن الصلاحيات المعطاة للبنان هي صلاحيات مستمدة من وضعه الاستثنائي، فيجب أن نعترف بأن هذه الصلاحيات خالية من السيئة الكبرى التي كانت للوضع القديم، وهي أن يكون رأس الحكم في لبنان أجنبياً.

وبرغم أن الحكم العربي الجديد لم يكن يميز بين العرب تمييزاً إقليمياً ولا طائفياً، بل كان يرى أن الحق في بلاد العرب لكل العرب، والدليل على ذلك أن الذين ولّاهم السلطة في عاصمته دمشق كانوا من أقطار عربية مختلفة وبينها لبنان الذي كان له بينهم النصيب الأوفى.

برغم ذلك لم يختر هذا الحكم للبنان حاكماً من غير لبنان، ومن غير الموارنة.

وأحسب أن هذا كان كافياً لأن يرحب لبنان بالحكم العربي، وأن يرى فيه الخير كل الخير له، وأن ينكر على الفرنسيين بعد ذلك حكمه حكماً مباشراً، وأن لا يكون للبنانيين في هذا الحكم إلاّ تنفيذ ما يأمر به الحكّام الفرنسيون، وأن يكون مع القائمقام ضابط فرنسي هو الحاكم الفعلي، وهكذا صعوداً إلى كل الوظائف الإدارية حتى أعلى درجة فيها.

وهذا هو الذي حمل بعد ذلك أعضاء مجلس الإدارة على أن يقفوا موقفهم البطولي فيقدموا على ما أقدموا عليه من تحدي الفرنسيين ومحاولة الوصول إلى دمشق والانتقال منها إلى أوروبا فنالهم ما نالهم ما سنفصله في الآتي من القول.

كان هؤلاء هم أبطال الاستقلال وكان على النقيض منهم من أوفدهم الفرنسيون ـ وإن ادعوا أنهم أوفدوا أنفسهم ـ إلى باريس ليعرقلوا المسعى الاستقلالي العربي، متظاهرين بالغيرة على لبنان، في حين أن هذا المسعى الاستقلالي أنصف بلدهم وحمى مطلبهم منذ أول خطوة خطاها إليهم.

ويتابع رستم حيدر (رؤوس الأقلام) قائلاً:

باشتنا متواضع كثيراً يقوم لكل وارد... ذلك الرجل. الوظائف.
حب الأهالي نحونا. كلما مر أحدنا التفات، سلام، تصفيق.

والمقصود بباشتنا هو شكري باشا الأيوبي وكلمة (باشتنا) هي التي كان متعارفاً عليها في بلاد الشام أيام الحكم التركي حينما كان الناس يريدون نسبة الباشا إليهم.

ولا أحسب أن رستم حيدر كان يقصد بهذه الجملة وبالنقاط التي ألحقها بها، مجرد الإخبار عن تواضع الباشا، بل كان يعني ما هو أبعد من هذا، وأنه ترك لصف النقاط أن يدل على ما كان يعنيه.

يلوح لي أن رستم كان يريد أن يقول هنا إن المهمة التي عهد فيها إلى شكري باشا كانت أكبر من مواهبه، وأنه منصرف إلى التواضع ومنشغل بالقيام للواردين عليه، مهما كان شأن هؤلاء الواردين، في حين أن الحال التي هم فيها تقتضي حزماً وعزماً، ونظراً إلى البعيد... وهذا ما كان باشتنا مشغولاً عنه بالقيام والقعود ولين الجانب.

جاء في وصف لورنس لشكري الأيوبي في «أعمدة الحكمة السبعة» بأنه لم يكن رجل دولة، ولكنه محبوب جداً، وهذا القول هو عين ما قاله عنه رستم حيدر دون أن يقوله.

كما جاء في وصفه في التقرير السري للاستخبارات البريطانية لسنة ١٩١٩: غير ذكي، لطيف المعشر ولكن عديم الفائدة.

إن تهذيب رستم حيدر، التهذيب الموروث والمكتسب، ودقة الظرف الذي هم فيه، ثم ما كان يتمتع به شكري باشا من وطنية وإخلاص، وما عاناه في سجن جمال باشا السفاح.. إن كل ذلك جعل رستم حيدر يعبر عن ضيقه؛ يعبر عنه بذلك التعبير الرمزي

اللطيف الذي لا يجرح شعور الرجل المعهود إليه أداء مهمة من أسمى المهمات، وهي في الوقت نفسه من أدق المهمات.

من بعض ما قيل في رستم حيدر وهو وزير في وزارة نوري السعيد في العراق: قول نوري السعيد لأحد أصدقائه محمود صبحي الدفتري:

«إن رستم حيدر وهو وزير برئاستي، يتصرف معي تصرف رئيس وزراء مع أحد وزرائه، بلباقته ومهارته وعلمه وشخصيته المؤثرة».

هذا الوصف الذي وصفه به نوري السعيد ينطبق عليه في كل دور من أدوار حياته منذ جاء إلى بيروت برئاسة شكري الأيوبي حتى صار في بغداد برئاسة نوري السعيد.

يفاجئنا رستم حيدر بعد ذلك بهذه الجملة المؤلفة من كلمتين، وهي قوله:

ذلك الرجل.

ولا شك أن وراء هاتين الكلمتين، كلاماً كثيراً لم يقله رستم، فمن هو ذلك الرجل؟

لا شك أنه ليس ممن يذكرون بخير، ولا ممن يوصفون بصفات المحامد، ولذلك اكتفى الكاتب في التعريف به بتينك الكلمتين.

وليت الظرف كان يسمح لرستم حيدر بأن يقول كل ما يريد قوله، إذن لعرفنا الرجل وعرفنا مراميه، وهي على كل حال ليست مرامي خير، ولنا أن نستنتج أنه من أولئك الانتهازيين الوصوليين الموجودين في كل مكان وزمان.

ثم يتابع الكلام بكلمة واحدة: الوظائف.

وفي هذه الكلمة الوحيدة التي أوردها أكبر دلالة على أن فريقاً من

الناس لا همّ لهم إلاّ اقتناص الوظائف، وجني ما فيها من مغانم، لا يلهيهم عن ذلك حتى بهجة الاستقلال.

ويمكننا أن نعطف كلمة (الوظائف) هذه على الجملة التي مرت، وهي أن أهل بيروت يريدون الحاكم منهم.

وتتوالى الرموز في مذكرات رستم حيدر، فنفهم منها الشيء الكثير، ونفهم اشتباك المصالح وتباين الأهواء واختلاف المرامي.

بل نفهم الهوة القائمة بين أماني الشعب يومذاك وبين من يرون أنهم رؤوس الشعب، هذه الهوة التي ستظل قائمة، وإذا كنا سمعناها وقرأناها في رموز رستم حيدر، فقد لمسناها ولا نزال نلمسها لا في غموض الرموز، بل في وضوح الحقائق.

يقول رستم حيدر:

حب الأهالي نحونا. كلما مرّ أحدنا التفات، سلام، تصفيق.

هذا هو الشعب، ها هو في هذا الجانب.

أما في الجانب الآخر فيقول عنه: كل منهم يريد التقدم، البعض غير ممنونين.

الصاعقة

كان كل من هناك يتصرفون تصرف من سيعيش في تصرفه أبداً، ولم يدر في خلد أحد منهم أن الأماني كالناس يمكن أن تموت غداً.

فرستم حيدر يمهد لقيام حكم استقلالي عربي قوي الدعائم، والشعب يفرح فرح من سيطول فرحه، والحائمون حول الغنائم يقتطعون منها في نفوسهم القطائع الطويلة المدى البعيدة المرمى.

و(باشتنا) المتجول على الخيل في الليل زهواً بالأمرة التي صار إليها، والقائم لكل وارد عليه استصلاحاً للرعية التي ستطول عشرته لها.

رستم حيدر الذي يسجل في يوميات الأربعاء ١٩١٨/١٠/٩ كلمات قليلة فيها الصورة الضخمة لما تعتمل به نفوس أولئك جميعاً، حين يقول:

ذهبنا إلى الحكومة (والمقصود بالحكومة هنا: السرايا)، كثرة الزائرين، الجداول لأجل الترتيب في الدوائر، جمع الأسماء، تنقيح، تعيين.

رستم كان قال في آخر يوميات الثلثاء ١٩١٨/١٠/٨ ما يلي:

بقي جميل بك (الألشي رئيس أركان حرب شكري الأيوبي) لأجل استقبال الجنرال الإنكليزي، لم يأتِ، ثم ذهب مساء فوعده للصبح.

الجنرال العربي رئيس أركان حرب الحاكم العسكري العربي، كان ينتظر أن يزوره الجنرال الإنكليزي ـ الذي وصل هو الآخر إلى بيروت ـ أن يزوره، ربما لتلقي التعليمات منه، أو على الأقل للتفاهم معه على مجرى الأمور، ولكن طال انتظار الجنرال العربي دون أن يزوره الجنرال الإنكليزي.

ربما تذكر الجنرال العربي شمائله العربية التي تقول: القادم يزار، فالجنرال الإنكليزي قدم بعده إلى بيروت، فلا بأس أن يتخلى عن الشمائل البروتوكولية القاضية بأن يبدأ القادم بزيارة ولي الأمر، ويعود إلى الشمائل العربية فيذهب مساء هو إلى زيارة القادم، ولكن القادم كانت له شمائله فرفض استقبال جميل الألشي مساء، وطلب إليه أن يعود صباحاً.

وسلم جميل الألشي بالأمر الواقع فذهب في العاشرة صباحاً، ولكن الجنرال الإنكليزي لم يستقبله.

وكل ما استطاع رستم حيدر أن يعلق على هذا الموقف، هو قوله: يظهر أن في الأمر دسيسة.

ولكن الأمر كان أكبر من دسيسة، إذ جاء في الساعة الثالثة بعد الظهر مندوب إنكليزي سياسي فقابل شكري الأيوبي وجميل الألشي معاً.

وقبل أن يعلم رستم حيدر بما دار بين المندوب الإنكليزي وبين الأيوبي والألشي وصلت إليه إشاعات يعبر عنها ـ على طريقته في كتابة رؤوس أقلام ـ بما يلي:

وكانت الإشاعات دارت: حاكم فرنسوي، ستأتي حملة فرنسية، دو بارتمان فرنسوي، مندوب، استلام الحكومة.

ثم يقول:

كانت نتيجة الاجتماع، تنزيل العلم، تسليم الحكومة.

هذه كانت طلبات المندوب الإنكليزي: إنزال العلم العربي، وتسليم الحكومة. تسليمها لمن؟

لم تكن القوى الفرنسية وصلت، ولا الحاكم الفرنسي تسلم الحكم، إذن فالتسليم للجنرال الإنكليزي أولاً، ثم للحاكم الفرنسي القادم على الطريق... المهم تسليم الحكم والانسحاب، والأمر بعد ذلك لمن له الأمر، وليس العرب هنا ممن لهم الأمر...

قوبلت طلبات الإنكليز في أول الأمر بالرفض الجازم، وقابل الإنكليز هذا الرفض الجازم بالإصرار الجازم.

أما الجزم العربي فليس له قوة تحميه فإذا سكت تكلمت هي، وأما الجزم الإنكليزي فتتكلم عنه فوهات المدافع.

وتجلت الحقيقة لشكري الأيوبي، فكأنه لان، ولكن جميل الألشي

ثبته. وأمام هذا الإصرار ذهب المندوب الإنكليزي، ثم رجع ثانية وثالثة، على حد تعبير رستم حيدر الذي قال إن هذا المندوب كان يهدد باسم الجنرال اللنبي الذي هو القائد العام للقوى المتحالفة بما فيها القوى العربية وقائدها الأمير فيصل.

وظل الفريق العربي صلباً معلناً أنه لا يتلقى الأوامر إلاّ من الأمير فيصل.

ورستم حيدر الزعيم العربي الباسل المحنك، أدرك أن البسالة والحنكة لا تستطيعان الوقوف في وجه القوة الغاشمة.

لذلك رأيناه يختم يومياته ختاماً قلقاً يقول فيه:

> إن المندوب الإنكليزي رد على عقبه إذا لم يأتِ من سموه (فيصل). لا فائدة. وذلك وهو لين الجانب. في تلك الليلة لم يظهر، وكانوا قالوا إن القائد سيأتي إلى دار الحكومة في اليوم الثاني في العاشرة.

ثم يصمت رستم حيدر.

ومعنى كلامه الأخير أن الجنرال الإنكليزي حين رأى الاصرار العربي قرر المجيء بنفسه إلى دار الحكومة التي أبى الفريق العربي التنازل عنها.

قرر المجيء اليوم، بعد أن رفض هذا المجيء بالأمس، لأن مجيئه بالأمس كان يحمل معنى المساواة بين الجنرالين العربي والإنكليزي، وأن الجنرال العربي ند للجنرال الإنكليزي.

أما مجيئه اليوم فمجيء الآمر المهدد، الذي إذا أمر فيجب أن يطاع.

يصمت رستم حيدر لأن المحنة كانت أروع من أن يستطيع قلمه تحمل وصفها. إنه وهو الذي حمل في صدره وعلى لسانه جذوة الأمل العربي طوال السير من دمشق إلى بيروت، فأذكى بهذه

الجذوة الأمل في النفوس التي أيأستها أربع مائة سنة من الانخذال.

إن الجذوة التي انطفأت تركته في ظلام دامس لا يستطيع معه الكلام. وإذا كان الركب العربي سلك في مجيئه من دمشق إلى بيروت تلك الطريق الطويلة الشاقة، فلأنها الطريق التي تقوم فيها الدساكر والقرى والأرياف والمدن المتعاقب بعضها وراء بعض في تكاثف سكاني متلهف على سماع الأنباء التي يحملها هذا الركب.

ولا شك أن الركب لم يعد إلى دمشق على الطريق عينها.

وقلم رستم حيدر الملسان في الحديث عن رحلة الذهاب كان عياً في الحديث عن رحلة الإياب، فلم ينطق بكلمة.

وفي الثامن من تشرين الأول/أكتوبر كانت العساكر الفرنسية تصل بيروت، وكان الجنرال الإنكليزي (اللنبي) القائد العام للقوى المتحالفة الإنكليزية والعربية والفرنسية، والذي كانت الأرض المحتلة كلها تحت إدارته، كان الجنرال (اللنبي) في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر يصدر قراراً بتعيين الكولونيل الفرنسي (دباياب Depiape) حاكماً عسكرياً على المنطقة الغربية المحتلة، بالنيابة عن الحلفاء.

ويشير بأن هذه التصرفات عسكرية موقتة حتى يبت في مصير البلاد.

التقدم العربي إلى الشمال

والجيش العربي الذي كان يتسابق مع الجيش الإنكليزي لاحتلال المدن العربية قبله، واصل هذا التسابق في شمال سوريا، ففي ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر دخل الشريف ناصر حمص وفي ١٦ منه دخل حماه. وقبل ذلك في يوم ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر سنة

١٩١٨ كانت تدخل مدينة حلب قوة عربية مؤلفة من أقل من مائة رجل ما بين فارس وهجّان بقيادة الشريف مطر الذي كان بقوته هذه مقدمة لقوة الشريف ناصر الزاحف وراءها إلى حلب.

وفي هذا الوقت كان الوالي التركي مصطفى عبد الخالق والقائد العسكري مصطفى كمال باشا يتواريان في بعض زوايا محطة بغداد انتظاراً لوصول قطار يقلهما مع غيرهما من الموظفين. وفي الليل كانا يركبان القطار مع بقايا الجنود الألمان والأتراك.

أما الشريف مطر فقد حطّ رحاله في دار الحكومة وجلس جلسة بدوية على بساط بسط له على أرض البهو الذي يؤدي إليه الدرج الكبير، ونزل جنوده في صحن دار الحكومة وحفروا في الأرض نقراً أشعلوا فيها النار لطبخ القهوة يسقون بها الواردين على الشريف للسلام عليه[١٣].

وكان لا يزال في حلب قليل من الجنود الأتراك فتجمع منهم نحو خمسين جندياً وتوجهوا إلى دار الحكومة للفتك بالقوة العربية النازلة فيها، ولكن القوة تصدت لهم فولوا منهزمين.

ويقارن مؤرخ حلب الشيخ كامل الغزي في كتابه (نهر الذهب في تاريخ حلب) فيقول:

«ومن الصدف الغريبة أن استيلاء الدولة العثمانية على حلب شبيه باستيلاء الدولة العربية عليها من جهة أن كلتا الدولتين أخذتها صفواً عفواً دون حرب ولا ضرب. كما أن الناس في جميع هذه البلاد اغتبطوا بهذه الدولة وفرحوا بتخلصهم من بغي قادة الجنود العثمانية وظلمهم، كذلك اغتبطوا بقدوم السلطان سليم لتخلصهم من ظلم قادة جنود الغوري سلطان الدولة الجركسية».

ويقول الغزي:

«إن الناس في صباح اليوم المذكور هرعوا للسلام على الشريف مطر، وكان الروع ذهب من القلوب وظهرت المارة في الشوارع وتلاحقت عساكر الشريف بيعضها وانضم إليهم العدد الكبير من عشائر البادية المخيمة في صحارى ولاية حلب وكانوا يدخلون إليها زمرة بعد زمرة ولا يرون فيها أدنى مقاومة ولا حدث بدخولهم أقل خوف، وكان النهب من الدعّار قد وقف وسكتت الأمور وانتشر لواء الأمان ورفعت الرايات والأعلام العربية على أبواب الأماكن الأميرية، ولم يقتل من بقايا الجنود التركية وغيرهم سوى بضعة أشخاص اشتبه بهم الأعراب فقتلوهم».

سجل العرب وصولهم إلى حلب قبل وصول الإنكليز، فقد وصل الإنكليز إلى حلب بعد وصول العرب إليها بيوم.

وإذا كان العرب قد وصلوا على الخيل والجمال، فإن الإنكليز كذلك وصلوا مشاة وفرساناً وهجّانة، هكذا يصف الغزي وصولهم، ولكنه يضيف إلى ذلك: بأن معهم السيارات والعجلات المشحونة بالمهمات الحربية. ثم يقول: وهم إنكليزيون ومصريون وهنود، والمصريون مسلمون، والهنود مسلمون وبراهمة وسيخ، وكان عددهم جميعاً لا يزيد على ألف جندي.

لم يكن الشريف مطر ـ كما قلنا ـ سوى مقدمة للشريف ناصر فاتح دمشق، فبعد يومين من وصول الشريف مطر، وصل الشريف ناصر. فنزل أولاً ضيفاً على أحد الوجوه ثم انتقل إلى منزل خاص أعد له في محلة العزيزية.

ويصف الشيخ كامل الغزي صاحب كتاب (نهر الذهب في تاريخ حلب) وصول الشريف ناصر إلى حلب في كتابه بالآتي:

وقد تحدث أولاً عن بدء الاحتلال العربي لحلب يوم الجمعة ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ قائلاً[١٤].

في ذلك الوقت سار الوالي مصطفى عبد الخالق والقائد العسكري مصطفى كمال باشا إلى جهة محطة بغداد واختبآ في بعض جهاتها، وعلى أثر مسيرهما إلى المحطة وقت الغروب أقبل على حلب من جهة قارلق عرب الشريف حسين ملك العرب وهم دون مائة عربي ما بين فارس وهجّان يرأسهم الشريف مطر نائب الشريف ناصر وكيل حضرة الأمير الملكي الشريف فيصل نجل الشريف حسين. وفي ذلك الوقت تحقق الناس أن الشريف قد استولى على حلب.

إلى أن يقول:

ولما وصل الشريف مطر وعربه إلى حلب نزل في دار الحكومة فجلس على بساط فتح له على أرض البهو الذي يؤدي إليه الدرج الكبير ونزل عربه في صحن دار الحكومة وحفروا في الأرض نقراً أشعلوا فيها النار لطبخ قهوة البن يسقون منها الواردين على الشريف للسلام وعرض الاحترام.

ثم يصف ما جرى بعد ذلك إلى أن يصل إلى أحداث يوم الأحد فيتحدث عنها ثم عن أحداث يومي الاثنين والثلاثاء إلى أن يؤدي به الكلام إلى وصول الشريف ناصر فيقول:

الأمير ناصر من الأشراف الحسينية القاطنين في العوالي المجاورة للمدينة المنورة وحين قيام الشريف حسين على الأتراك كان الشريف ناصر وأسرته في جانب الشريف حسين فوكله حضرة الأمير الشريف فيصل في التأمر مكانه على حلب فوصل إليها يوم الأحد ثاني وعشرين من محرم الجاري ونزل ضيفاً كريماً في منزل أحد وجهاء حلب في محلة الجميلية وبعد أيام انتقل إلى دار خصوصية هيئت له في محلة العزيزية.

ثم يقول:

وبعد وصول الأمير ناصر بيومين أصدر أمره قبل كل شيء بأن يؤلف

مجلس شورى ينتخب الدرك والشرطة أولاً ثم ينتخب موظفين لدوائر الحكومة فتألف هذا المجلس من اثني عشر عضواً من وجهاء حلب في أيام الدولة التركية وقد انتخبوا واحداً منهم رئيساً عليهم وهو حضرة كامل باشا القدسي ثم شرعوا بانتخاب الموظفين فأحسنوا بتعيين بعضهم وأساءوا في آخرين شبّوا ونشأوا على ظلم الناس...

ثم يقول وهو يتحدث عن أحداث يوم الجمعة ٢٧ المحرم:

حضر الأمير ناصر إلى الجامع الكبير بموكب حافل وصلى فيه صلاة الجمعة ودعا الخطيب لملك العرب الشريف حسين بالنصر والظفر. وبعد الفراغ من الصلاة أمر حضرة الشريف ناصر لخدمة الجامع بأربعين ذهباً إنكليزياً.

ويختفي بعد ذلك اسم الشريف ناصر من صفحات الكتاب وتتوالى فيها أسماء من تولوا الأمر في حلب من ولاة وحكام عسكريين. كما يبرز اسم الأمير فيصل في زيارته لحلب مرتين، إلى أن نصل إلى يوم الأربعاء ٢٥ شوال فإذا باسم الشريف ناصر يبرز فجأة فيقول الغزي عن هذا اليوم: وصل الشريف ناصر إلى حلب قادماً عليها من دمشق فاستقبل بحفاوة ونزل في دار الإمارة وبعد أيام عاد إلى دمشق.

وبعد يومين من وصول الشريف ناصر إلى حلب في المرة الأولى بدأ بتشكيل حكومة حلب، فارتأى إنشاء مجلس شورى من وجهاء حلب يعهد إليه بالتعيينات الحكومية التي تبدأ أول ما تبدأ بتعيين قوى الأمن الداخلي من درك وشرطة. فأنشىء المجلس من اثني عشر عضواً انتخبوا رئيساً لهم كامل باشا القدسي.

وبدأت التعيينات، وتبدل الدول لم يبدل الذهنية، فلم يجر اختيار الموظفين على أساس اختيار الأصلح، فلا بد من الوساطات

والتدخلات والأغراض الشخصية، فيقول الغزي: «فأحسنوا بتعيين بعضهم وأساءوا في آخرين». ومن طريف ما يذكر الغزي: بدأ الناس يتذمرون من الموظفين ومن قولهم: رح وتعال غداً وبعد غد، نظير ما كانوا يفعلون مع أصحاب الدولة الزائلة إذ كانوا يقولون لهم بالتركية بدل هذه الكلمات: «كت كل يارن أوير كون».

فقال أحد المراجعين: «بدّلنا القلبق بالعقال وكيت وكال بروح وتعال». والقلبق هو لباس الرأس المعمول من فرو الغنم وهو الذي كان يعتمره الأتراك.

وفي أول جمعة أتت والشريف ناصر في حلب، خرج بموكب حافل إلى الجامع الكبير فأدى الصلاة فيه، ودعا الخطيب لملك العرب الملك حسين بالنصر والظفر.

فكانت أول جمعة بعد قرون وقرون وقرون يدعى فيها على المنبر لملك عربي...

وبعد ذاك الكبت الطويل انطلقت النفوس بالأماني العربية، فاستولت مجموعة من شبان حلب على نادي جمعية الاتحاد والترقي بما فيه من أثاث وكتب، وسموه نادي العرب وأصدروا جريدة يومية سموها: العرب.

وبعد أيام وصل إلى حلب شكري باشا الأيوبي حاكم بيروت العسكري السابق، حاكماً عسكرياً لحلب. ثم وصل الأمير فيصل، وكانت حلب قد أرسلت وفداً لاستقباله في حماه، ثم أعدت له استقبالاً حافلاً على مقربة من حلب، فنزل في دار أعدت له في محلة العزيزية وأقبل الناس للسلام عليه.

وبعد يومين مضى في موكب مهيب إلى نادي العرب الذي كان

غاصاً بالناس، فأعدت له فيه غرفة خاصة كان يتقبل فيها البيعة نيابة عن أبيه ملك العرب.

حتى هذا الوقت كان الأمل لا يزال قائماً بإقامة الدولة العربية الواحدة، ولم تكن هناك فكرة ملك سوري مستقل، وبالرغم من أن شيوعيي روسيا كانوا قد كشفوا معاهدة سايكس ـ بيكو قبل إنتهاء الحرب، فإن نشوة النصر كانت تصرف النظر عن التفكير بما أعد للعرب من تمزيق لبلادهم واستعمارها.

فالأمير فيصل هنا يتلقى البيعة لملك العرب، لأنه لم يكن قد واجه بعد الحقائق المرة في مؤتمر فرساي، ولم تكن آماله قد تزعزعت فصار لا يطلب إلاّ استقلال سوريا، فلا يناله..

وبعد انتهاء المبايعة انتقل إلى صدر النادي فأخذ الشعراء والخطباء يتتابعون على المنبر، فلما انتهوا بدأ ـ وهو جالس ـ بارتجال خطاب، فوقف الحاضرون إجلالاً وتعظيماً، فطلب إليهم الجلوس لأن كلامه سيطول. وتهيأ فريق من الكتّاب لتدوين ما يتكلم به، فحفظوا لنا بذلك صفحة من صفحات التاريخ العربي كان يجب حفظها.

وقد نشر الشيخ كامل الغزي في كتابه الخطاب كاملاً، ومن يقرأه يرَ فيه إعلان تخطيط لمسار الدولة العربية العتيدة، كان فيه فيصل موفقاً في التخطيط والعرض.

ومن أهم ما فيه هو اليقين بقيام دولة العرب الكبرى. فهو يقول فيما يقول في الخطاب:

«العرب أمم وشعوب مختلفة باختلاف الأقاليم، فالحلبي ليس كالحجازي والشامي ليس كاليماني، ولذا قرر والدي أن يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها».

ولا أحسب أنه كان بين مستمعي الخطاب من خطر له في تلك الساعة أن يردد قول الشاعر:

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى

وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

لأنه لم يكن هناك من لا يعتقد أنها منى حقاً!

ووصلت إلى حلب من دمشق وحمص وحماه وفود لتحية الأمير، وتوكيد الروابط بين أهل البلاد، فأقامت بلدية حلب لهذه الوفود مأدبة حاشدة خطب فيها الخطباء وأنشد الشعراء.

وبينما الأمير في هذا الجو المتألق بالآمال الكبار، وبينما هو في قمة الاطمئنان إذ تلقى برقية من والده يطلب إليه الاسراع في السفر إلى باريس ليمثل العرب في مؤتمر المنتصرين في الحرب...

ولم يكن يدور في خلد الأمير وهو يقرأ البرقية أنها في حقيقتها فاصلة بين ماض مشع بالحبور والأمل ومستقبل قاتم بالغم واليأس!

ولم يكن يخطر له أنها تقتلعه من بين جمهور يندفع به إلى الذروات الطامحة في الوصول إلى المجد العربي المتجدد، لترمي به في أيدي جمهور يتكالب عليه ليرمي به وبأمته في قيعان الهوان!

لا شك أن فيصلاً ـ وقد قرأ البرقية ـ قد استشعر منتهى الغبطة، فها هو وقد قاد العرب إلى النصر في ميادين القتال، سيقودهم إلى التحول من أسوأ حال إلى أحسن حال، من حال التفرقة والإذلال إلى حال الوحدة والاستقلال!

هناك على المنبر الأممي سيعلي صوت العرب بين الأمم، ومن المجلس الدولي سيعود بقرار فتح باب المسيرة العربية الاستقلالية الكبرى!

وتقدرون فتضحك الأقدار!

ومن حلب تقدمت قوة عربية إلى إنطاكية فاحتلتها.

الجنرال اللنبي في حلب

الجنرال اللنبي كان هو القائد العام للجيوش الإنكليزية والعربية والفرنسية، وكانت هذه الجيوش التي دخلت بيروت ودمشق وحلب وما إليها بإمرته، وهو صاحب السلطة الإدارية المطلقة في جميع الأراضي المحتلة وقد جاء حلب زائراً متفقداً مستطلعاً، فكان في استقباله في محطة القطار الشريف ناصر قائد جيش الشمال، وشكري باشا الأيوبي الحاكم العسري وبعض الرجال العسكريين.

وفي اليوم الثاني مضى إلى دار الحكومة ماشياً بين صفين من العساكر الهنود ممتدين من الدار التي نزل بها في محلة العزيزية إلى دار الحكومة، في طريق مفروش كله بالرمل. وعند قوس النصر المنصوب له في العزيزية توقف قليلاً فتقدم منه رئيس البلدية وقدم له مفتاح المدينة ورغيفاً من الخبز وشيئاً من الملح، فلمس المفتاح واقتطع قطعة من الرغيف أكلها مع قليل من الملح، ورفع يده بالتحية متوجهاً إلى دار الحكومة، ولما وصلها أدت له التحية ثلة من الجنود العربية وعزفت الموسيقى. وجلس في المكان المعد له، فدخل عليه العلماء ورجال الدين والأعيان والوجهاء والموظفون يحيونه. ثم خرج إلى رأس درج السراي وخطب هناك خطاب مجاملة مع إشارات سياسية.

ثم نزل مشيعاً من الشريف ناصر وشكري باشا وجال على الأماكن الأثرية والأسواق الشعبية. وفي المساء استقل القطار عائداً من حيث أتى(١٥).

كما زار حلب الحاكم العسكري العام رضا باشا الركابي للإشراف

على سير الأمور وتنظيم الدوائر. ثم قدمها رضا الصلح المعين والياً عليها مع بقاء شكري الأيوبي حاكماً عسكرياً.

شاهد للأحداث

رؤوف البحراني من الشبان العراقيين الذين جنّدوا عند إعلان الحرب العالمية في الجيش العثماني ضباطاً. بعد انتهاء الحرب وقيام الحكم الوطني في العراق صار وزيراً للمالية.

وقد دوّن خلال وجوده ضابطاً مذكرات عن سير القتال الذي ساهم فيه، فقد أُلحق أول الأمر بالجيش المسؤول عن حماية العراق من الهجمات المتوقعة عليه من القوات الروسية من الشرق، والقوات الإنكليزية من الجنوب.

وكان هذا الجيش بقيادة القائد الألماني: الفيلد مرشال «فون دركولتز، قوليج باشا[١٦]، وقد أضيف إلى اسمه الألماني لقب باشا إشعاراً بأنه قائد جيش عثماني، واشتهر في العراق باسم قوليج باشا وقد رأينا أن نأخذ بعض ما دوّنه باعتباره شاهداً للأحداث التي انتهت بانهيار الجيش العثماني ودخول الجيش العربي دمشق، شاهداً لها في الجيش العثماني، ما يوضح جوانب من تلك الأحداث.

يقول رؤوف البحراني بأنه أُلحق بالقطعات المقيمة على حدود إيران من جهة خانقين وقصر شيرين وانتمى إلى الفرقة المرابطة داخل إيران في سفح جبال كرند على طريق بغداد ـ كرمنشاه للوقوف بوجه الجيش الروسي المتوغل في إيران إذا حاول الزحف عن هذا الطريق إلى العراق.

وقد وقفت القوى الروسية والقوى العثمانية متقابلتين عند هذا الخط

في جبهة هادئة حتى ١٧ نيسان/ أبريل سنة ١٩١٦ حيث بدأت الاشتباكات فتراجعت القوات العثمانية منهوكة إلى قصر شيرين، واستمر التراجع إلى خانقين وفي ١ أيار/ مايو ١٩١٦ كان الروس يحاصرون خانقين، ثم جاء مدد من بغداد وفك حصار خانقين، ثم توغل العثمانيون في إيران وفي ٢٣ حزيران/ يونيو كانوا على مشارف كرمنشاه ثم أصبحت بتصرفهم. ثم تقدموا في ٢٢ تموز/ يوليو إلى همذان وفي ١٠ آب/ أغسطس كانوا يحتلونها، واستقر الروس المنهزمون في قزوين.

وفي الحين الذي كان العثمانيون يتقدمون في إيران مواجهين الروس المنهزمين أمامهم، كانوا غافلين عن جبهة دجلة التي يواجههم فيها الإنكليز، ولم يتنبه خليل باشا لذلك إلاّ بعد فوات الأوان وانهدام هذه الجبهة فأبرق في ٢٣ شباط/ فبراير طالباً سحب بعض القوى من إيران إلى العراق ثم في ٢٦ منه أبرق آمراً بالانسحاب نهائياً من إيران بأقصى السرعة، واصفاً البرقية بأنها مهمة مستعجلة للغاية وأن تأخيرها دقيقة واحدة يقضي بإعدام المتسبب. وكان نص البرقية الموجهة إلى علي إحسان باشا قائد جبهة إيران: «اقطعوا التماس مع الروس فوراً وتحركوا بجميع قواتكم بالسرعة التامة إلى خانقين. أمحوا جميع المواد غير الضرورية ولا تضيعوا وقتاً في نقلها».

فأجابه علي إحسان: «طريق أسد آباد مقطوع بالثلوج. سأبذل جهدي في فتحه والمسير نحو بغداد» ولكن الوقت كان قد فات.

بدأت القوات العثمانية بالانسحاب من إيران مساء ٢٦ شباط/ فبراير ١٩١٧ بعد إقامة ستة أشهر فيها، على أمل الاشتراك في الدفاع عن بغداد.

وكان الروس يلاحقون العثمانيين فيشتبك القتال بينهما أحياناً

وبوصول العثمانيين إلى خانقين في ١٣ آذار/ مارس علموا بسقوط بغداد في أيدي الإنكليز. فتوجهوا إلى شمال العراق مصطدمين بالإنكليز في معارك دامية، وما زالوا في سيرهم حتى وصلوا مدينة السليمانية محاولين حمايتها من تقدم الروس إليها فوصلوها في ٢٦ أيار/ مايو ١٩١٧ ثم تركوها إلى الجبهة التي تبعد عنها مسيرة أربعة أيام.

ولما لم يكن من غرضنا في هذا الكتاب تسجيل أخبار الحرب في تلك النواحي، وإنما السير مع رؤوف البحراني حتى دمشق لارتباط ذلك فيما نحن فيه من تسجيل تاريخ بلاد الشام في تلك الفترة..

لذلك فإننا نترك أخبار الجيش العثماني عند جبهته وراء السليمانية ونتبع رؤوف البحراني الذي يقول إنه نقل إلى مكان آخر فوصل الموصل في ١٦ حزيران/ يونيو سنة ١٩١٨ ثم غادر في ١٨ حزيران/ يونيو إلى حلب ثم غادر حلب في ٣٠ منه إلى منطقة أزمير وفي الطريق إليها بلغهم في ٤ تموز/ يوليو خبر وفاة السلطان محمد رشاد، وفي ١٢ تموز/ يوليو وصل إلى مدينة (منمن) حيث مقر الفرقة المنقول إليها وفي ٢٤ آب/ أغسطس عرف أن الفرقة التي ينتمي إليها قد أُمرت بالسفر إلى جبهة القتال في فلسطين.

وهنا نصبح في صميم تاريخ بلاد الشام (١٩١٨ - ١٩٢٠) الذي هو موضوع كتابنا، يقصه علينا ضابط عربي شهد أحداثه بنفسه فسجلها بقلمه، وهذا من أنفس المصادر في تاريخ تلك الحقبة.

في ٢٦ آب/أغسطس ١٩١٨ تحرك القطار بالجيش المنقول إلى جبهة فلسطين فوصل إلى حلب مساء الخامس من أيلول/ سبتمبر وبعد ظهر السادس منه اتجه إلى دمشق وتوقف في رياق فنزلت

القطعات العسكرية فيها لتوزع حسب حاجة الجبهات، وأقامت معسكراً ظلت فيه أياماً. وفي مساء ١١ أيلول/ سبتمبر تحركت في القطار نحو دمشق فلم تلبث فيها أكثر من ساعتين حيث تابعت السير إلى درعا حيث أمضت فيها ليلة، وفي ضحى ١٣ منه وصلت إلى عمان حيث عليها أن تعد جبهة لحماية الخط الحديدي من عمان إلى درعا فتوزعت على المحطات الصغرى المهددة من الجيش العربي والجيش الإنكليزي، وأقام من أقام في عمان حيث كانت تغاديهم الطائرات البريطانية بمقذوفاتها وتراوحهم.

وفي ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨ كانت مهمة البحراني ومفرزته حماية جسر (نصيب) الذي وجدوه مدمراً تدميراً كاملاً مما جعل خط تموينهم وإمدادهم مقطوعاً وأدى إلى انهيار معنويات الجيش لا سيما القادة الذين صاروا يشعرون أن بقاءهم في هذه البلاد على وشك الانتهاء.

ويقول: وبقينا عدة أيام مرابطين حول الجسور للحفاظ عليها مع توقعنا التام انهيار جبهتنا الحربية في فلسطين بين حين وآخر للانتصارات التي أحرزها الحلفاء في أوروبا وفي العراق... وفي ٢٠ أيلول/ سبتمبر بلغنا أن الجيش الرابع الذي ننتسب إليه قد انسحب من الجبهة وأن قوافل أثقاله ومعداته ومؤنه اتجهت في انسحابها إلى (المفرق) لتسفيرها إلى دمشق وأن قطعاتنا المرابطة في جبهة فلسطين غدت في انسحابها كالهاربة وفي أسوأ حالة وأن القائد التركي في (معان) نظيف بك ومعه قواته قد وقعوا أسرى في كمين عربي أعدّ لهم.

وتابعت الطائرات البريطانية شن حملاتها المتلاحقة على تجمعات جيشنا وأثقاله ومؤنه في المفرق فأمطرتها بوابل من قنابلها ومزقتها

شرّ ممزق، بحيث توارى العديد من أفراد الجيش للنجاة بأنفسهم. ومع ذلك لم يعطنا آمر فوجنا أمراً بالانسحاب إلى درعا إلاّ في اليوم التالي ٢١ أيلول/ سبتمبر بعد تأكده من انسحاب كافة القطعات وتلقيه أمراً من قائد الفيلق الثامن بالانسحاب، بحيث نبقى مؤخرة حامية للجيش ولمشاغلة تقدم العدو.

أما القطعات التي سبقتنا في الانسحاب إلى درعا باتجاه دمشق فقد عاشت في المناطق التي مرت بها وهي في أسوأ حالة هستيرية وبدرجة من التفكك وانهيار المعنوية والتبعثر في السير وعدم الانتظام في الانسحاب. بينما أمرنا قائد فيلقنا بالالتزام بمنتهى الحزم وضبط النفس. وحسب أمره تمّ انسحابنا إلى درعا بكل انتظام.

عند وصولنا إلى درعا مساء ٢١ أيلول/ سبتمبر وجدناها تموج بالأفواج المنسحبة وكلها في حالة تعب وانهيار ملحوظين والجنود قد هدهم الإعياء من فرط الإرهاق والسهر والسير المستمر. وحتى القادة كانوا في منتهى الاضطراب والانهيار، ولم يكن لديهم منهاج مبين لخط القتال القادم ليمكن الانسحاب إليه ولا أمل بتشكيل جبهة جديدة للقتال. وقد تردت بنا الأحوال وانفرط عقد الجيش التركي وأخذ الضباط العرب لا سيما أبناء المنطقة كل يفرّ إلى بلدته أو يختبىء في أحد المنازل أو يستبدل ألبسته العسكرية بألبسة بدوية مهلهلة وفي زي مزارع أو راعٍ ويسرع هائماً للنجاة بنفسه في تلك البقاع وبقيتُ الضابط العربيَ الوحيد في فوجي بعد أن كنا مجموعة مؤتلفة متعاضدة، واستحال الناس من أبناء القرى وأهالي المنطقة إلى ضباعٍ، كل يريد الانتقام من أي تركي يلقاه أو يراه، حتى لو كان عربياً في زي تركي لشدة غيظهم مما تحملوه من ظلمهم وقسوتهم، ويريدون الآن الثأر منا نحن صغار الضباط

والجنود، فكانت نيرانهم تطلق علينا اعتباطاً من كل حدب وصوب...

إلى أن يقول: والمسلحون من الأهالي على رؤوس الجبال ومرتفعات القرى والأرياف يترصدون فصائل الأتراك المنسحبة للانقضاض عليها وسلبها لكل ما يملكون، وكل منهم يمني نفسه بالحصول على مبتغاه من بندقية أو مسدس أو ألبسة بما فيها من نقود. وحتى الضباط والجنود العرب العاملون لدى الأتراك غدوا عرضة لمثل هذه الهجمات من أبناء جلدتهم...

إلى أن يقول:

وعند وصولنا إلى (أزرع) علمنا أن الفوضى والاضطرابات قد عمّت أطراف مدينة دمشق، وكان فوجنا يسير نحوها على غير هدى في تلك الليلة العكرة، وأمضينا الليل بين أودية (الكسوة) الوعرة وكل منا قد أنهكه التعب والأرق، وكل يبحث مع نفسه عن سبيل للفرار من هذا المأزق، حيث لا نعلم إلى أين نسير، وكيف سينتهي بنا المصير، فقد كانت من أسوأ ليالي العمر.

وفي ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩١٨ تحركنا من الكسوة صباحاً ونحن لا نزيد عن مائة وخمسين بين ضابط وجندي بقيادة أكبر الضباط رتبة عن طريق الغوطة. لاحظنا أهالي الأرياف في غاية الابتهاج والسرور، فطلبت من بعض إخواننا من أهالي حلب ممن بقي في معيتي الذهاب إليهم واستطلاع الأخبار عما هناك وعن سر فرحتهم هذه، وعن حالة من تقدم من جيشنا المنسحب، فاتضح أن خيالة الجيش العربي قد دخلت دمشق من جهة، وأن خيالة الجيش البريطاني قد دخلت بعدها من جهة ثانية، وأن الجيش العثماني قد انسحب من دمشق إلى بعلبك وكان وراءه معظم أسلحته الثقيلة

ولوازمه العسكرية، وأن حكومة عربية قد تشكلت في دمشق وأن العلم العربي ارتفع على دار الحكومة، ولذلك يفرحون.

وبعد أن يصف وضع من معه من الجنود والضباط وموقف الأهلين منهم وكيف أصبح هو وسيطهم عند الأهلين، المحاول دفع الأذى عنهم لأنه كان الضابط العربي الوحيد بينهم، يقول إنه طلب إليهم أن يتخلوا عن أسلحتهم بانتظار المصير الغامض فامتثلوا للطلب.

ثم بلغه أن نوري الشعلان شيخ قبيلة (الرَّوَلة) أصبح قريباً من موقعهم الذين هم فيه فذهب إليه وقصّ عليه قصة من معه وسأله الرفق بهم. فأرسل نوري معه من تسلم الأسلحة، وقال له أن يعود ليدخل دمشق معه راكباً حصانه.

وهكذا فقد مضى البحراني مع نوري فارساً في موكب نوري ووراءهما الأسرى ضباطاً وجنوداً يسيرون مشاة محفوفين برجال الشعلان. وبوصولهم إلى دمشق سلموا الأسرى إلى حيث كان يُجمع جميع الأسرى.

وهكذا شاءت تصاريف القدر أن تنقل البحراني في ساعات من ضابط في جيش مكسور إلى فارس يدخل دمشق فاتحاً.

يقول البحراني: كان اليوم الثالث من تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٨ آخر يوم لي مع الجيش التركي، فقد انفصلت عنهم نهائياً وعن مراجعة الأسرى في مقرهم لأن القائد العام البريطاني أمر بنقلهم في الحال إلى فلسطين ومنها إلى مصر أو إلى ثكنهم في سيناء.

ويتطرق البحراني إلى جانب من الحياة الاجتماعية في دمشق يومذاك قائلاً:

وبدأنا نتجول بحرية تامة في منتزهات دمشق ومغانيها ونتمتع

بمرابعها الجميلة ما وسعنا المجال، بحيث استوفينا منها خلال اسبوع من إقامتنا فيها أوفر نصيب ممكن ترتاح إليه النفس، بالإضافة إلى الدعوات العامرة التي تتابعت علينا والموائد اللذيذة الفاخرة التي دعينا إليها من أشراف دمشق وسراتها، وغيرها من موارد التكريم ومباعث الترفيه خلال لياليها الحلوة مما أعادت إلينا ما فقدناه من صحتنا خلال سنوات الحرب وما تجرعناه من تعب ومشاق وحرمان وإرهاق. فقد ذقنا في هذه البلدة الطيبة لذة الأكل المريء والنوم الهنيء والحياة الحرة الكريمة والارتياح البالغ لتحقيق أحلامنا القديمة وغاياتنا المنشودة التي تحققت في هذه الربوع.

لقد شاهدنا الصحف العربية الحرة طافحة بالمقالات الرائعة عن انبثاق الفجر الجديد وتحقيق أملنا السعيد بتشكيل الحكومة العربية المبشرة بقرب استعادة العرب لأمجادهم السابقة، وقرأنا على صفحاتها عناوين: (التاريخ يعيد نفسه) و(العرب يسترجعون دمشق) إلى غيرها من المقالات..

إلى أن يقول: قرأت صباح يوم ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩١٨ إعلاناً في الصحف من إدارة الميرة في الجيش العربي يطلب من جميع الضباط العرب المقيمين في دمشق ممن يرغبون الالتحاق بالجيش العربي أن يسجلوا أسماءهم وعناوينهم في القسم الذاتي من إدارة هذا الجيش.

وقد تألف ديوان (مجلس الشورى الحربي) وعهد برئاسته إلى ياسين الهاشمي. ويقول البحراني: بعد قراءتي للإعلان المنوّه عنه أسرعت وبعض الأخوة إلى تسجيل أسمائنا في القسم المذكور.

ونواصل أخذ ما سجله البحراني لنرى كيف تصرف الحكم العربي في أول انبعاث له بعد تلك القرون الطويلة. يقول:

وخلال يومي السبت والأحد ١٢ و١٣ تشرين الأول/ أكتوبر تمّ تسجيل معظم الضباط العرب في الدائرة المذكورة للجيش العربي، وتمّ فعلاً تشكيل اللواء الثاني بدمشق.

وفي ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨ باشرت عملي فيما أنيط إليّ. وفي ٣ كانون الأول/ ديسمبر تلقيت أمراً بنقلي مع ضباط الفوجين الثاني والثالث من لوائنا إلى عمان وفي اليوم التالي ٤ كانون الأول/ ديسمبر بارحت الشام متوجهاً إلى قضاء عمان في قطار عسكري يحمل ضباط هذين الفوجين المنقولين إليها.

وصلنا درعا صباح يوم ٧ كانون الأول/ديسمبر بعد أن أمضينا ثلاثة أيام ونحن في هذا القطار المتثاقل في سيره بسبب تعطب خطوط السكك إلى عمان واشتغالهم بتعمير الجسور المنسوفة خلال الحرب فاضطررنا إلى البقاء اسبوعاً كاملاً فيها طويناه بمنتهى الجزع إلى ما نحتاج إليه من الضروريات المفقودة هنا، إلى جانب شدة البرد وحدة الرياح العاتية من كل جانب دون أن نستعد لها بما يلزم.

وصلنا عمان في ١٥ كانون الأول/ديسمبر...

إلى آخر ما تحدث به... ولم يلبث طويلاً في عمان، بل استجاز في السفر إلى العراق لرؤية أهله، فسافر وظل في العراق.

تقسيم البلاد

انتهى الأمر في بلاد الشام إلى تقسيمها بين فرنسا وإنكلترا، فاستولت إنكلترا على فلسطين، واستولت فرنسا على الساحل من صور إلى ما وراء الإسكندرونة.

وبقي الداخل وهو: دمشق وحلب وحمص وحماه وبعلبك والكرك

والصلت وعمان وحوران وما إليها، مستقلاً بإدارة الأمير فيصل، عملاً بمعاهدة سايكس ـ بيكو التي عقدت في ٩ أيار/ مايو سنة ١٩١٦.

الهوامش

(١) الشريف ناصر بن علي هو من شرفاء المدينة الحسينيين الذين تقاسموا حكم الحجاز مع بني عمومتهم الحسنيين فاستقل الحسينيون بحكم المدينة واستقل الحسنيون بحكم مكة. ولعوامل ليس هنا مجال ذكرها لم يدم حكم الحسينيين ـ وإن دامت سيادتهم المعنوية في الشعب ـ ودام حكم الحسنيين.

والشريف ناصر (١٨٩٠ ـ ١٩٣٤) زار دمشق مع فيصل سنة ١٩١٦ أيام الحكم العثماني وتعرف سراً على رجال الحركة العربية التي بدأت تتفاعل في بلاد الشام.

ولما أعلن الشريف حسين الثورة في مكة كان الشريف ناصر في أول من استجابوا لها، ثم التحق بفيصل فكان نائبه في قيادة الجيش الزاحف إلى الشمال وخاض جميع معاركه، ودخل دمشق قبل فيصل وطارد بقايا الجيش العثماني حتى حلب. ثم أقام بدمشق حتى احتلال الفرنسيين لها، وبعد الاحتلال غادرها إلى مكة ثم إلى بغداد فأقام بها حتى وفاته سنة ١٩٣٤ عن ٤٤ سنة من العمر بعد وفاة فيصل بسنة.

وقد قال عنه لورانس في كتابه «الثورة والصحراء» الصفحة ٣٩٣ حول الزحف العربي نحو الأزرق وعمان ودرعا ودمشق:

«أما ناصر الذي ظهرت مواهبه أيام المدينة فكان دائماً في المقدمة من الجيش العربي واختير عدة مرات لقيادة الحملات وتنظيم الحركات، وكان جديراً أن يكون أول الداخلين إلى دمشق ليضيف إكليلاً من أكاليل الغار العديدة التي ظفرها لنفسه في المدينة والوجه والعقبة وغيرها.»

(٢) كان القائد الفعلي للجيش التركي هو (ليمان فون ساندرس (١٨٥٥ ـ ١٩٢٩) وهو قائد ألماني انتدب للخدمة في الجيش العثماني وكان خلال الحرب قائداً للجيش الأول في (جناق قلعة)، وفي أواخر الحرب أصبح قائداً لقوات الصاعقة خلفاً للجنرال الألماني (فالكنهاين) وهي القوات التي كانت تدافع في جبهة فلسطين. وكان في هذه القيادة مصطفى كمال (أتاتورك) الذي تولى القيادة العامة بعد انسحاب ليمان فون ساندرس منهزماً.

(٣) ص ١٨٤ الطبعة الأولى.

(٤) ص ١٩٠.

(٥) وكان هذا التسابق لأن كل واحد من الفريقين قادم من جهة غير القادم منها الفريق الآخر. فالإنكليز بعد سقوط حيفا وصلوا إلى (سمخ) ومنها يريدون التوجه إلى درعا. والعرب بعد سقوط (معان) توجهوا إليها.

وكان الأمير فيصل يزحف على ساحل البحر الأحمر متقدماً إلى الشمال حتى احتل الوجه في ٢٤ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٧ واتخذها قاعدة للأعمال العسكرية في الشمال. وفي تموز/ يوليو ١٩١٧ فتحت قوات الأمير فيصل العقبة بقيادة الشريف ناصر. ثم اتجهت إلى معان فدخلتها ومضت حتى درعا.

في حين كان الإنكليز يهاجمون غزة وبئر السبع، ثم اخترقوا جبهة الجيش التركي الممتدة من شمالي يافا إلى أريحا على البحر الميت ثم أخذوا يتقدمون في فلسطين. وقد دخلوا دمشق عن طريق جسر بنات يعقوب ـ القنيطرة.

يقول رستم حيدر عن يوم الخميس ١٩١٨/١٠/٣: سرنا من (المسمية) ولما وصلنا (دير علي) صادفنا نفس الدروز فسألتهم فبشروني بدخول الجيش العربي (دمشق) قبل الإنكليز وتفاخروا بدخول الدروز قبل الكل فذهبت إلى سيدنا (الأمير فيصل) وبشرته أمام حلمي بك وغيره فرأى من السياسة أن يقول لي: لا فرق بيننا وإنما المهم ان ندخل دمشق. حصافة حفظتها له.

(٦) سلطان الأطرش (١٨٩١ ـ ١٩٨٢) ولد في بلدة القرية بجبل الدروز وهي تبعد عن السويداء ١٨ كلم، وقد أعدم الأتراك والده ذوقان أثناء حملة سامي باشا الفاروقي سنة ١٩١٠. قام بثورته الأولى على الفرنسيين سنة ١٩٢٢ من أجل الثائر العاملي أدهم خنجر، بعد أن انتهك الفرنسيون حرمة داره وألقوا القبض على ضيفه المستجير به فيها. صدر العفو عنه سنة ١٩٢٣، فقام بثورته الثانية على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ وقد عمت هذه الثورة معظم أرجاء سوريا.

(٧) جيل الفداء (ص ٢٥٢).

(٨) يقول رستم حيدر عن يوم الخميس ١٩١٨/١٠/٣: ثم سرنا حتى الكسوة ومنها إلى القدم فوقف التره ن (القطار) فأمرني سيدنا أن أسير لأخبر الشريف ناصر بمجيئه وكان ذلك... إلى أن يقول: فأخبرته بلزوم ذهابه.. إلى أن يقول: وبعدها ركبنا طراداً... ولما وصلنا كان لم يصل إليه أحد، وبعد قليل تواردت الخيل والهجن والعربات... ثم يقول: ثم ركب على فرسه وأركب الثانية الشريف ناصر وسارت الخيل وراءهما.

(٩) أثر وفاة رضا الركابي سنة ١٩٤٢ رثاه نجيب الريّس بمقال قال فيه: اليوم يموت الركابي فتموت معه ذكريات ضخمة من ملك ووطن وتاريخ وحكم... تموت معه ذكرى الحاكم العسكري الجبار وذكرى الرئيس الدستوري الفذ... لقد بلغ الركابي أرفع درجة عسكرية في الجيش فوصل إلى رتبة فريق، وكان له بيت في دمشق يعد

أفخم بيت في العاصمة منذ خمسين سنة، وكانت له مزرعة في دوما أيضاً، ولكنه حينما اشتغل في السياسة وبلغ أعلى درجات الحكم والسلطان وسيطر على أموال الدولة ومقدراتها في سوريا وشرق الأردن، عاد إلى دمشق، فباع بيته ومزرعته وعاش بثمنهما، حتى إذا مات شيعت جنازته من بيت متواضع من بيوت الايجار.

هذا هو الرجل الذي أسس دولة وأعلن استقلالاً وتوج ملكاً وحكم بلاداً وترأس حكومات وبلغ رتبة فريق في الجيش، يموت بلا بيت ولا مزرعة ولا مال! ولكن الركابي هو الذي اختار مصيره بنفسه وكتب تاريخه بيده.

أجل لقد خير الركابي بين الثروة والشرف فاختار ما يختاره الأبطال في كل عصر وفي كل بلد. وها هو يذهب إلى قبره بكل ما في نفسه من كبرياء النزاهة وعظمة السمعة. (انتهى)

على أن تقرير الاستخبارات البريطانية لسنة ١٩١٩ عن الشخصيات الرئيسية في دمشق يتحامل عليه ويقول عنه ما يلي: عمره خمسون سنة جنرال وموظف سابق في العهد التركي. أمر بتسلم القيادة في منطقة طبريا للدفاع عنها، ولكنه هرب والتحق بالبريطانيين. مولع بجمع المال، لا ذمة له، وأستاذ قديم في أساليب الدسائس التركية، من أنصار الاستقلال التام ومعاد للفرنسيين. غير محبوب. (انتهى)

ويقول محمد كرد علي في الجزء الثالث من كتابه «خطط الشام» الصفحة ١٥٤: وكان البريطانيون عهدوا إلى اللواء علي رضا باشا الركابي من قواد الجيش التركي ومن أبناء دمشق بأن يكون حاكماً عسكرياً للمدن الداخلية دمشق وحلب وما إليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائه في خدمتهم. ويقال بأنه أرسل إليهم مصوّر (خريطة) الحصون حوالى دمشق وكان وكّل إليه الترك عملها. وأرسله القائد التركي قبيل سقوط دمشق ببضعة أيام ليجمع شمل المنهزمين من الجيش التركي في القنيطرة وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال، فادعى أن العربان سلبوه ماله وثيابه، وانضم إلى الجيش الإنكليزي. وهكذا ذهب من دمشق قائداً تركياً وعاد إليها بعد أيام حاكماً عربياً بريطانياً.

(١٠) عارف الشهابي (١٨٨٩ - ١٩١٦) من الأسرة الشهابية أمراء حاصبيا ومن رجال «العربية الفتاة». كان كاتباً خطيباً ولد في حاصبيا ودرس في دمشق واستنبول وشارك في تأسيس المنتدى الأدبي فيها وحصل على شهادتي الحقوق والملكية وكتب كثيراً من المقالات في جريدة «المفيد» البيروتية التي كان يصدرها عبد الغني العريسي، ثم تولى تحريرها وصار شريكاً فيها. وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى نقل الجريدة إلى دمشق. ولما أحس بنوايا جمال باشا تجاه الأحرار هرب إلى البادية. ثم توجه بالقطار مع رفاقه إلى الحجاز فقبض عليهم في تبوك وحوكموا في عاليه وحكم عليهم بالإعدام شنقاً.

(١١) الظاهر أن هذا الخان هو الخان الذي كان معروفاً باسم خان عقبة المصيلح.

(١٢) لا بد أنه جسر الأولي عند صيدا.

(١٣) تاريخ حلب، العربي، ج٣، ص ٦٤٢.

(١٤) ص ٦٤٥، ج٣.

(١٥) كان يصحب الجنرال اللنبي في زيارته لحلب: مارك سايكس الذي اقترن اسمه باسم (بيكو) لاشتراكهما في المعاهدة الشهيرة معاهدة (سايكس ـ بيكو)، وإذا كان سايكس هذا قد اشتهر سياسياً، فهو في واقعه مستشرق درس اللغات والعلوم الشرقية في جامعة كمبردج وقام برحلات واسعة في أنحاء الدولة العثمانية وألّف بضعة كتب عنها. وكان قبل الحرب العالمية الأولى قنصلاً في السفارة البريطانية في استانبول لفترة قصيرة. انتخب عضواً في مجلس العموم عن حزب المحافظين ثم عمل في وزارة الخارجية في مناصب مختلفة وعينه اللورد ملنر مستشاراً للشؤون الشرقية في مكتب رئيس الوزارء.

وعن كونه أحد طرفي معاهدة سايكس ـ بيكو يقول المؤرخ توينبي ـ الذي زامله في الوفد البريطاني إلى مؤتمر الصلح ـ يقول إن مارك سايكس شوهت سمعته ظلماً إذ حملت الاتفاقية السرية اسمه مع أنه لم ينضم إلى المحادثات الخاصة بها إلاّ قرب نهايتها ليحل محل السر هارولد نيكلسن الذي ترأس المفاوضات حتى تلك اللحظة انظر:

(Arnold J. Toynbee, the western question in Greece and Turkey, London, 1922, p. 48).

وقد توفي سايكس في بداية مؤتمر الصلح على أثر إصابته بالانفلونزا وهو في الأربعين من عمره. وهناك ملاحظة مماثلة في مذكرات لويد جورج وفي مصادر أخرى تبدي أن مارك سايكس لم يكن راضياً كل الرضى عن المعاهدة وأنه كان يعمل على تعديلها.

ويقول رستم حيدر في مذكراته عند الحديث عن لقاء له معه في باريس: «قد رجع ظاهراً عن سياسته القديمة التي قسم بها سوريا والبلاد العربية كالغنائم، وهو يقول إن المعاهدة (معاهدة سايكس ـ بيكو) تمت سنة ١٩١٦ في الوقت الذي كانت الحركة العربية لم تخرج إلى حيز الوجود».

ثم يتحدث عنه عند ذكر خبر وفاته في ١٩١٩/٢/١٧ قائلاً:

مات مارك سايكس في هذا النهار على أثر الانفلونزا أو الكريب وهو في الأربعين من عمره. جميل الطلعة حسن الوجه قوي البنية. تربى في باريس في مدارس الجزويت (هو كاثوليكي) فنشأ متعصباً. كان يجتهد في سياسته لأجل محافظة المسيحيين في الشرق ويود أن يكونوا تحت سيطرة فرنسية بدلاً من أن يكونوا تحت سيطرة إسلامية

أو إنكليزية بروتستانتية. وكان يقول إن سكان الجبال في سوريا هم عنصر مستقل وإن أشبه بقية العناصر السورية. ولربما كان يعتقد أنهم من بقايا الصليبيين لأن ألوانهم وبنيتهم تختلف عن بقية السوريين قليلاً. وقد فاته أن الإقليم يؤثر على البنية واللون...

ثم يقول رستم حيدر: ... على أننا لا نرى له عذراً في مشاركته (بيكو) الأبله في هذا الأمر العظيم ومجيئه إلى سوريا لأجل تنفيذ سياسته الحمقاء.

(١٦) من كبار قادة الجيش الألماني الأمبراطوري. وقد عمل في قيادة القطعات العسكرية العثمانية نحو ١٣ عاماً. وعند تقدم الجيش البريطاني في العراق خلال الحرب العالمية الأولى نحو سلمان باك لاحتلال بغداد جعلته القيادة العثمانية العامة، قائداً عاماً للجيش العثماني السادس المحارب في العراق وتسلم القيادة في ٦ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٥ ومعه قائد الفرقة ٥١ العميد خليل بك الذي أصبح بعد ذلك والياً لبغداد ورقّي إلى رتبة لواء وعرف بـ (خليل باشا). واصطحب قوليج باشا معه أيضاً قائد الفرقة ٤٥ الفريق عزت باشا الكركوكلي العراقي الذي أصبح وزيراً في أول وزارة شكلها الإنكليز في العراق بعد احتلالهم بغداد.

وبمجرد تسلم قوليج باشا القيادة ودرسه الوضع العسكري للعثمانيين، وضع خطة بارعة دحر بها القوات البريطانية من سلمان باك إلى الكوت وضرب عليها الحصار، وطوّقها بصورة محكمة إلى أن استسلمت. وكان عددها ١٢٣٠٩ بين ضابط وجندي بقيادة الجنرال (طاوزند).

وكان يصحب المرشال قوليج باشا مترجمه الخاص المستشرق الألماني (هلموت ريتبر) الذي حقق العديد من مؤلفات قدامى العلماء المسلمين ثم أعلن إسلامه وأصبح أستاذاً للعقائد الإسلامية في جامعة استانبول.

وقد توفي قوليج باشا يوم ٦ نيسان/أبريل سنة ١٩١٦ بعد أربعة أشهر من استلامه القيادة العامة في العراق عن ٧٣ عاماً وخلفه في قيادة الجيش السادس مساعده خليل باشا.

الفصل الثاني

معاهدة سايكس ـ بيكو

ونضع أمام القارىء هنا بحثاً كتبه إبراهيم عبد الكريم عن هذه المعاهدة وتطوراتها وآثارها:

جرى اعتماد «الحدود الدولية» في الاتفاقيات السياسية التي توصلت إليها إسرائيل مع كل من مصر (١٩٧٩) ولبنان (١٩٨٣ وألغيت ١٩٨٤) والأردن (١٩٩٤)، بيد أن «الحالة السورية» تشكل استثناء للتكرار الذي تحاول إسرائيل أن تجعل منه قاعدة، بقبولها الانسحاب من الجولان إلى «الحدود الدولية» حيث تتمسك سوريا بمطلب انسحاب إسرائيل الكامل من الجولان إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

لدى خبراء تخطيط الحدود، ثمة تقسيمات ومفاهيم للحدود وهويتها ووظيفتها استناداً إلى اعتبارات متعددة (طبيعية ـ عرقية ـ اقتصادية ـ استراتيجية ـ تاريخية ـ دينية ـ براغماتية... الخ). وفي المشكلة المطروحة بين سوريا وإسرائيل، ثمة حضور لمعظم هذه الاعتبارات، إلى جانب المعطيات السياسية في الماضي والحاضر.

ما هي الفوارق بين «الحدود الدولية» وحدود الرابع من حزيران/

يونيو ١٩٦٧؟! وقبل ذلك، ماذا عن الحدود بين فلسطين وسوريا، تاريخياً، وحسب التصورات الصهيونية؟! وكيف تبدو طبيعة وأبعاد مشكلة الحدود (مشكلة الانسحاب) القائمة حالياً بين سوريا وإسرائيل؟!

ففي العهد العثماني، وكمثال، إبان إمارة فخر الدين المعني الثاني (١٥٨٥ ـ ١٦٣٥م) ، كانت منطقة الجليل الفلسطينية وبحيرتا طبريا والحولة وبانياس تقع جميعها ضمن هذه الإمارة التي امتدت جنوباً شاملة حيفا وبيسان. أما في عهد ظاهر العمر الزيداني (ت ١٧٧٥م) فحافظت الإمارة على حدودها الجنوبية والجنوبية الشرقية، لكن حدودها الشمالية امتدت من شمال الحولة وصولاً إلى منطقة صور على البحر المتوسط.

وفي التقسيمات الإدارية العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى، كانت منطقة الجولان تقع ضمن ولاية دمشق. وقد سارت حدود الولاية هناك مع الضفة الغربية لنهر الأردن، وشملت داخلها منابع هذا النهر وبحيرة الحولة، وبعد ذلك تدخل الحدود بحيرة طبريا لتسير في وسطها ثم تخرج منها وتسير مع الضفة الغربية لنهر الأردن تاركة إياه ضمن ولاية سوريا. بينما كانت منطقة الجليل ضمن ولاية بيروت. ومرة أخرى ظلت صفة «الإدارية» تنطبق على الحدود بين هاتين الولايتين.

على جانبي الحدود الإدارية بين سوريا وفلسطين، استمرت حالة التجانس في مختلف المجالات. وكانت غالبية التفاعلات الاجتماعية تتم في إطار موحد من التاريخ والجغرافيا. ولم تظهر مسألة الحدود السياسية إلاّ مع بدء الاستعمارين الفرنسي والبريطاني لسوريا وفلسطين في التاريخ الحديث. فكيف حدث هذا؟!

حدود سايكس ـ بيكو

خلال الحرب العالمية الأولى، عملت بريطانيا وفرنسا على اقتسام أقطار المشرق العربي التي اعتبرت «تركة الرجل المريض». وتضمنت اتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩١٦) أسس هذا الاقتسام الذي أملته عوامل متنوعة (جغرافية ـ اقتصادية ـ عسكرية ـ سياسية... الخ) وترك تطبيقه إلى مرحلة ما بعد هزيمة تركيا في الحرب.

اعتبرت بريطانيا أن مصلحتها تقتضي أن تكون فلسطين والجولان ضمن المناطق الخاضعة لسيطرتها. لكن المفاوضات أسفرت عن تقاسم المنطقة مع فرنسا، بحيث مرت خطوط سايكس ـ بيكو بين الجولان والجليل على النحو التالي:

١ ـ منطقة الجولان بكاملها، على امتداد نهر بانياس والأردن وكامل بحيرتي الحولة وطبريا ضمن رقعة الدولة العربية (المنطقة أ) التي ستخضع للحماية الفرنسية.

٢ ـ منطقة الجليل الأعلى، من ناقورة عكا باتجاه الشاطىء الشمالي الغربي لبحيرة طبريا ضمن المنطقة الفرنسية (الزرقاء) التي تشمل أيضاً لبنان.

٣ ـ جيب عند منطقة عكا وخليج حيفا ومحيطه تحت السيطرة البريطانية.

٤ ـ الجليل الأسفل ومنطقة بيسان والضفة الغربية حتى الخط الواصل من غزة إلى منتصف الشاطىء الغربي للبحر الميت، تقريباً، شكلت المنطقة الدولية (السمراء) التي تتم إدارتها بإشراف بريطاني ـ فرنسي ـ روسي مشترك.

كانت خارطة سايكس ـ بيكو بمقياس رسم صغير، ورسمت

خطوط الاقتسام بطريقة تقريبية، الأمر الذي جعل مساحات واسعة نسبياً على الأرض دون حسم لمسألة تبعيتها. وكان ذلك نابعاً من أن اتفاقية سايكس ـ بيكو عُنيت بتحديد أسس ومبادىء للمستقبل. ويمكن القول إن أجزاء كبيرة من الحدود السورية ـ الفلسطينية آنذاك كانت ضمن تلك المساحات التي ظلت تبعيتها غير معروفة تماماً.

التنافس البريطاني ـ الفرنسي

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ووقوع معظم فلسطين تحت الاحتلال البريطاني، بدأ البريطانيون بإحداث تغييرات على إتفاقية سايكس ـ بيكو، فأصبحت حدود المنطقة المحتلة من الجليل تمتد من نقطة إلى الشمال من عكا حتى الساحل الجنوبي لبحيرة الحولة، بشكل يشذّ عن الاتفاقية. وفي خريف ١٩١٨ انتزع الجيش البريطاني منطقة الجولان من أيدي الأتراك، وشكّل فيها إدارة عسكرية مؤقتة تطابقت بعض حدودها مع حدود إتفاقية سايكس ـ بيكو. وبعد انسحاب القوات البريطانية من سوريا إلى فلسطين (بموجب اتفاقية لويد ـ كليمنصو ١٩١٩/٩/١٥) أصبح خط الحدود الشمالي لفلسطين يمتد من رأس الناقورة إلى شمال بحيرة طبريا التي تمّ إدخالها بكاملها ضمن فلسطين. وهكذا أعطت الاتفاقية منطقة الجولان للفرنسيين، واستمر التنفيذ العملي لنقل الأراضي إلى الجيش الفرنسي، وانتهى هذا التنفيذ في نهاية العام ذاته.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩١٩ بدأت محادثات رسمية بين بريطانيا وفرنسا حول مستقبل المنطقة. وطرح المندوب الفرنسي فيليب برتلو (المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية) اقتراحاً وسطاً

لخط حدود بين مطلب بريطانيا (الليطاني ـ حرمون ـ سكة حديد الحجاز) وبين اتفاقية سايكس ـ بيكو. وكان الخط المقترح يشطر الجولان طولانياً من الشمال إلى الجنوب بشكل مستقيم من قمة حرمون حتى نهر اليرموك على بعد ٦ ـ ١٠ كلم من نهر الأردن وبحيرة طبريا. وقد رأى المندوب البريطاني هاردينغ أوف بنشورات خط برتلو خطاً معتدلاً، وبدا وكأن هذا الخط سينال الموافقة. لكن البريطانيين ما لبثوا أن رفضوا الخط المقترح لأنهم يريدون كل الجولان وكل شمالي فلسطين. وفي حزيران/ يونيو ١٩٢٠، بعد تغيير الحكومة في فرنسا، تراجع الفرنسيون بدورهم عن العرض الذي قدموه، واقترحوا خطاً إلى الغرب من سابقه، وهو خط مستقيم من بانياس إلى الشاطىء الشمالي الشرقي لبحيرة طبريا. وأصروا على هذا الخط الجديد الذي أبقى فقط ٥ كلم من الجولان ضمن حدود فلسطين، لكنه ضم إلى المنطقة الفرنسية جزءاً من بحيرة طبريا.

وبعد معاهدة سان ريمو (١٩٢٠/٤/٢٤) التي نصت إحدى موادها على تخطيط الحدود بين منطقتي السيطرة البريطانية والفرنسية، ابتدأت المفاوضات بين الحكومتين (في أوائل تموز/ يوليو ١٩٢٠، أي قبل معركة ميسلون في ١٩٢٠/٧/٢٤ ودخول الفرنسيين دمشق). واتفق الطرفان على أن لا تتعدى الحدود الشرقية لفلسطين نهر الأردن. وتمّ التوصل في الأسبوع الأخير من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٠ إلى وضع حدود مؤقتة ريثما توضع الاتفاقية النهائية. وقد ابتدأ خط الحدود الجديد من الناقورة غرباً متجهاً باستقامة شرقاً حتى نقطة على مقربة من بحيرة الحولة التي تدخل ضمن فلسطين، ثم يتجه شمالاً حتى نهر الحاصباني، ثم شرقاً حتى بانياس وبركة رام، ثم ينزل جنوباً بخط مستقيم ليقسم

بحيرة طبريا حتى سمخ، وبذلك يكون سهل البطيحة لسوريا. وأما مصب نهر الأردن في بحيرة طبريا ومخرجه منها ومدينة سمخ فهي لفلسطين.

معاهدة باريس (١٩٢٠)

بعد أن تمكنت بريطانيا من القضاء على ثورة العراق في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٠، فتحت باب المفاوضات مجدداً مع فرنسا لتعيين خط الحدود بين منطقتي انتدابهما وفق مقررات سان ريمو. فعينت الحكومة البريطانية اللورد هاردينغ أوف بنشورات، وعينت الحكومة الفرنسية المسيو ليغس ليحلا جميع الأمور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا على فلسطين والعراق ولفرنسا على سوريا ولبنان. واجتمع المندوبان في باريس عدة مرات، ثم وقّعا نيابة عن حكومتيهما معاهدة الحدود في ١٩٢٠/١٢/٢٣.

أبقت هذه المعاهدة جزءاً كبيراً من أراضي الجولان (بدون القنيطرة) في يد بريطانيا، وكان إلحاق هذه الأراضي بفلسطين الأول من نوعه ضمن مساعي تطبيق التوجهات البريطانية. وقد اعتمد خط الإلحاق هذا على معرفة كبيرة بطبيعة المنطقة وطبوغرافيتها، فكان مسار الحدود طبيعياً وليس هندسياً. وحسب المادة الأولى من الاتفاقية، يبدأ الحد السياسي الفاصل بين المناطق البريطانية والفرنسية على الحدود الفلسطينية ـ السورية من بلدة سمخ الواقعة على بحيرة طبريا، بحيث يكون الحد السياسي واقعاً إلى جنوب خط سكة الحديد المتجهة صوب البحيرة وموازياً له. وسوف يعين الحد الثابت عند سمخ بطريقة تسمح للطرفين المتعاقدين بأن يقيما مرفأ ومحطة سكة حديد تسهل الوصول الحر إلى بحيرة طبريا. ومن سمخ يمر الحد في وسط بحيرة طبريا متجهاً إلى مصب وادي

المسعدية، ومن هناك يتبع الحد مجرى هذا النهر نحو مجراه الأعلى، وبعد ذلك في وادي جرابا (وادي حوا) حتى منبعه. ومن هذه النقطة سيصل الحد إلى منطقة تعرف باسم سكيك وتقع على الطريق المتجه من القنيطرة إلى بانياس (ويبقى هذا الطريق ضمن المنطقة الفرنسية). ثم يتجه الحد غرباً حتى المطلة التي ستبقى ضمن نطاق فلسطين. وسوف يُعين هذا الحد بالتفصيل بطريقة تضمن للمنطقة الواقعة تحت الانتداب الفرنسي سهولة الاتصال بين مراكزها الداخلية وإقليم صور وصيدا، استمراراً لحركة الطريق إلى الغرب وإلى الشرق من بانياس.

كما هو واضح، فضلاً عن ضم قسم كبير نسبياً من الجولان، نجحت بريطانيا في جعل نحو ثلثي بحيرة طبريا ضمن حدود فلسطين. وخلافاً لما جرى بشأن بحيرة طبريا، فقد أدخلت بحيرة الحولة بكاملها ضمن فلسطين على الرغم من وقوعها في منطقة حدودية طبيعية بين سوريا وفلسطين. كما أدخلت المعاهدة جزء نهر الأردن بين البحيرتين بكامله ضمن فلسطين. وحسب مناقشة وتحليل د. محمود الديب (المتخصص في الجغرافيا السياسية) فإن ثمة ثلاثة أوضاع محتملة للحد السياسي الموازي للنهر، هي:

- إما أن يسير الحد مع إحدى ضفتي النهر ليجعله كله ضمن دولة واحدة، وبهذا يلحق إجحاف بحق الدولة الأخرى التي تُستبعد من المشاركة بالنهر وحرمانها من الاستفادة بمياهه. وهذا ما جرى لدى جعل نهر الأردن ضمن فلسطين.

- وأما أن يتفق الحد السياسي مع الخط الأوسط للنهر، أي الخط الذي يصل كل النقاط التي تقع على مسافات متساوية من كلا الشاطئين.

- أو يتفق الحد السياسي مع وسط المجرى الملاحي للنهر، وهذا أفضل أنواع الحدود النهرية، لأنه يتيح الفرصة للدولتين الاستفادة من النهر في الملاحة وتوليد الكهرباء والصيد والري والشرب... ومعروف أن الخط الملاحي يشتمل على أعمق الأجزاء فيه، وفي كثير من الأحيان لا يتفق مع الخط الأوسط للنهر. ومما يذكر أن نهر الأردن بين بحيرتي طبريا والحولة صالح للملاحة، الأمر الذي يعني أن الحد السياسي بين سوريا وفلسطين كان يجب أن يسير في هذا القطاع مع وسط المجرى الملاحي، عملاً بتوصيات الاتفاقيات الدولية. ولكن لم يؤخذ بهذه التوصيات في حالة نهر الأردن وسار الحد مع ضفته الشرقية.

ويشار هنا إلى أن الحدود السياسية بين سوريا وفلسطين في معاهدة باريس بين بريطانيا وفرنسا (١٩٢٠) اختلفت عما كان عليه الحال في اتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩١٦)، حيث تمّ توسيع حدود فلسطين على حساب منطقة الجولان. ونقدر أن السبب الرئيسي في هذا الزحف البريطاني نحو الشرق، يكمن في الاستجابة البريطانية لمطلب الصهيونيين، الذين كانوا يشددون على جعل نهر الأردن ومصادره ضمن فلسطين التي كانت النية البريطانية ـ الصهيونية تتجه لتحويلها إلى دولة يهودية، منذ مرحلة وعد بلفور (١٩١٧).

لجنة نيو كمب ـ بوليه:

بموجب المادة الثانية من معاهدة باريس (١٩٢٠) بين بريطانيا وفرنسا بشأن الحدود بين سوريا وفلسطين، تألفت لجنة فنية مهمتها الرئيسية تعيين الحدود السياسية الواردة في المعاهدة على الطبيعة،

ووصف مسار أجزائها بالتفصيل ورسم الخرائط اللازمة. وأعطيت اللجنة صلاحيات كبيرة تخولها إجراء تعديلات حدودية حيث يلزم الأمر، وبطريقة تلبي مصالح الطرفين. وقد ترأس الجانب البريطاني في هذه اللجنة لفتنانت كولونيل س. نيوكمب وترأس الجانب الفرنسي ليوتنان كولونيل ن. بوليه.

درست لجنة نيو كمب ـ بوليه موضوع الحدود المرسومة في معاهدة ١٩٢٠، وقامت بجولات ميدانية، وأحاطت بتفاصيل كثيرة، وتوقفت عند كل جزء من أجزاء خط الحدود، وتحرت مسائل السكان والمياه والمواصلات والاحتياجات الأمنية وملكية الأراضي وغير ذلك. ووضعت اللجنة لنفسها عدة مبادىء أولية ناظمة لعملها، أبرزها: ربط الحدود قدر المستطاع بالمواقع الطبيعية التي تظهر على الأرض بوضوح، وعدم فصل القرى عن أراضيها، وعدم فصل القرى عن الطرق الهامة. وكان نيو كمب يركز على أن حقوق الطرق للفرنسيين (في سوريا ولبنان) وحقوق المياه للبريطانيين (في فلسطين).

لاحظت اللجنة أن خط الحدود المرسوم على الخارطة يخلق مشكلات متعددة، منها مثلاً وقوع قرى على هذا الخط، بحيث تصبح القرية في طرف بينما تكون أراضيها في الطرف الآخر، الأمر الذي يلحق الضرر بالسكان وممتلكاتهم وبالأنشطة الحيوية التي يمارسونها. وتطبيقاً لمبدأ عدم فصل أي قرية عن أراضيها قامت اللجنة بإجراء استطلاعات ميدانية ومداولات مع زعماء القرى القريبة من الحدود، وطلبت إليهم تعيين حدود أراضيهم، وخاصة في الحالات التي كانت فيها هذه الأراضي مبعثرة.

استغرق عمل لجنة نيو كمب ـ بوليه عام ١٩٢١ بكامله، وتقدم

الجانب البريطاني بالعديد من المطالب لإجراء تعديلات على الحدود، بشكل يفهم منه أنه يستجيب للمصالح الصهيونية. وصاغت اللجنة تقريراً مفصلاً تقدمت به إلى الحكومتين البريطانية والفرنسية (١٩٢٢/٢/٣) تضمن المسار الدقيق للحدود حسبما تراه اللجنة. بيد أن البريطانيين شرعوا مجدداً في عملية مساومة حول إمكانية إجراء تعديلات أخرى، ولم يصادقوا على هذا التقرير إلاّ بعد أكثر من سنة من تقديمه، وتحديداً في ١٩٢٣/٣/٧. ومضت سنة ثانية بعد ذلك حتى أصبح الخط الذي تمّ تحديده من قبل اللجنة بمثابة الحدود الشمالية والشمالية الشرقية لفلسطين.

«الحدود الدولية» ١٩٢٣

أطلق على الخط الحدودي الذي رسمته لجنة نيو كمب ـ بوليه ووقّع عام ١٩٢٣ اسم «الحدود الدولية لفلسطين مع لبنان وسوريا» وقد تمّ ترسيم هذه الحدود على الأرض ابتداء من رأس الناقورة حتى منطقة الحمة، بواسطة ٧١ نقطة حدودية في كل منها كومة حجرية ترتفع ١,٥م فوق سطح الأرض، وكان البعد بين كل اثنتين منها نحو ٢ كلم (إلاّ في بعض المناطق التي كانت هناك ضرورة لجعل المسافة أقل) وقد وضعت في أماكن بارزة بحيث يمكن للناظر من إحداها رؤية الكومتين السابقة واللاحقة.

أصبح خط الحدود بين فلسطين وسوريا على النحو التالي:

يسير الحد في خط موازٍ للطريق بين المطلة وبانياس وعلى بعد ١٠٠م إلى الجنوب، ماراً بالجسر الروماني القديم على نهر الحاصباني حتى يصل إلى تل القاضي الذي يبقى في فلسطين. ثم يتبع الحد الطريق بين المطلة وبانياس حتى يصل إلى نقطة الحدود رقم ٣٩ التي تقع إلى الجنوب من الطريق عند التقائه بقناة ري على

بعد ١٠٠م غرب قرية بانياس، وكل الطريق من كتف عديسة إلى بانياس يبقى داخل الأراضي السورية، ثم يسير الحد من قناة الري إلى النقطة ٤٠ الواقعة على المنحدرات الجنوبية لتل الله. ثم يسير بشكل مباشر نحو النقطة ٤١ الواقعة على الضفة اليسرى (الشرقية) لنهر بانياس على بعد ٩٠٠م جنوب غرب بانياس. ثم على طول الطرف الأعلى للضفة الشرقية للنهر نحو النقطة ٤٢ الواقعة على بعد ٧٠٠م شمال شرق العزيزيات على طول طريق الضفة الشرقية لنهر بانياس. ثم بشكل مباشر نحو النقطة ٤٣ الواقعة على رأس تل العزيزيات، ثم إلى النقطة ٤٤ الواقعة في مكان التقاء الطريق الواصلة بين بانياس وموحد مع مجرى الوادي المنحدر من عين فيت إلى ابن يعقوب. ثم يسير الحد في خطوط مستقيمة من نقطة إلى أخرى كالآتي: النقطة ٤٥ الواقعة على بعد ١٤٠٠م شرقي تل الساخنة على ظهر إحدى السلاسل الجبلية شمال مجرى وادي الزعتر ـ النقطة ٤٦ الواقعة غربي بيت بوديد المسمى البرجيات ـ النقطة ٤٧ عند تغير الانحدار على بعد ١٨٠٠م شرق عين الشيخ محمود شمال مجرى وادي حمر الولا ـ النقطة ٤٨ عند شجرة تدعى خربة دهيتين ـ النقطة ٤٩ على بعد قليل غرب مطحنة الصيادة ـ النقطة ٥٠ على بعد ٦٠٠م شرق الشجرة القريبة من مصب وادي الفاجر ـ النقطة ٥١ إلى الغرب مباشرة من طاحونة الجليبينة ـ النقطة ٥٢ إلى الغرب مباشرة من المنزل الواقع على بعد ١٢٠٠م شمال جسر بنات يعقوب ـ النقطة ٥٣ على بعد ٢٠م إلى الغرب من مركز الحدود السورية عند جسر بنات يعقوب ـ النقطة ٥٤ الواقعة على بعد ٣٨٠م شرق مطحنة مدمرة تقع على بعد ٩٠٠م من جسر بنات يعقوب ـ النقطة ٥٥ على بعد ٢٠م من علمين ـ النقطة ٥٦ إلى شرقي وادي الشيخ ـ النقطة ٥٧ على بعد

٤٠٠م إلى الشمال الشرقي من الرفيد ـ النقطة ٥٨ على بعد ٢٠م غرب الرفيد ـ النقطة ٥٩ على بعد ٢٣٠٠م جنوب الرفيد فوق مرتفع صغير يبعد ٤٠٠م شرق نهر الأردن ـ النقطة ٦٠ على بعد ٢٠م غرب قلعة القصاب، وحتى مصب نهر الأردن في بحيرة طبريا يسير خط الحدود بمحاذاة الجانب الشرقي لنهر الأردن وعلى بعد ٥٠٠م إلى الشرق منه حتى مصبه في بحيرة طبريا، ثم إلى العيون الكبريتية في مسفير حيث نقطة الحدود ٦١. ويسير الحد من هنا على بعد ١٠م من شط البحيرة في خط موازٍ لساحلها، ويتبع الحد أي تغير في مستوى الماء في البحيرة بسبب إنشاء السدود على نهر الأردن جنوب البحيرة ـ النقطة ٦٢ الواقعة على منحدرات جبل شرق النقطة ٦١ بنحو ١٢٠٠م ـ النقطة ٦٣ الواقعة على قمة جبل قرين جراده جنوب غرب بيرشكوم ـ النقطة ٦٤ الواقعة على رأس تل قلعة الحصن ـ النقطة ٦٥ الواقعة على رأس تل خالص ـ النقطة ٦٦ الواقعة على بعد ٢٠٠م تحت وغرب عين الرجال غرب كفرحارب، ثم يتبع الحد خطاً حددته المنحدرات البيضاء على الجرف الغربي من هضبة الجولان ـ النقطة ٦٧ الواقعة على بعد ٢٥٠م جنوب شرق عين شريرة ـ النقطة ٦٨ على بعد ٧٥٠م جنوب غرب عين شريرة ـ النقطة ٦٩ شرق خربة التوافيق ـ النقطة ٧٠ على كتف جبل على بعد ٥٠٠م شمال غرب النقطة ٩١,٧٥٠ كلم على خط سكة الحديد درعا حيفا ـ النقطة ٧١ على بعد ٥٠م شمال نقطة سكة الحديد المذكورة. وبعد ذلك يسير خط الحدود بموازاة سكة الحديد وعلى بعد ٥٠م إلى الشمال منها حتى يصل الطريق الواصلة بين سمخ والحمة. ثم يتبع الخط الطريق حتى تقطع الطريق المنحدرات الواقعة على بعد ١٠٠م شمال غرب مركز شرطة الحمة ثم يسير على طول أقصى الطرف الأعلى من

المنحدرات شمالي سكة الحديد حتى الجسر الواقع على بعد ٥٠٠م شرق محطة الحمة.

هذه هي بالتفصيل «الحدود الدولية» بين فلسطين وسوريا كما عينتها اتفاقية نيو كمب ـ بوليه الموقعة عام ١٩٢٣. وقبل التعليق على هذه الحدود، نشير إلى أن الاتفاقية حفظت بعض المصالح السورية في المنطقة الحدودية الفلسطينية، بحيث تصان أي حقوق يكتسبها السكان في الجانب السوري فيما يتعلق باستخدام مياه الأردن، كما حددت الاتفاقية أن سكة الحديد عند سمخ تخضع للاستخدام المشترك للدولتين وأن للحكومة السورية الحق في إنشاء رصيف جديد في محطة سمخ، وللسوريين وبضائعهم الحق في الوصول إلى المرسى والميناء على بحيرة طبريا. وسيكون لسكان سوريا ولبنان الحقوق نفسها في الملاحة والصيد في بحيرتي طبريا والحولة وكذلك نهر الأردن بين البحيرتين، بشكل متساوٍ مع سكان فلسطين... الخ.

توازن المصالح

لدى دراسة خط الحدود الجديد الذي رسمته اتفاقية نيو كمب ـ بوليه (١٩٢٣) يتبين أن بريطانيا أعادت جزءاً كبيراً من أراضي الجولان التي ضمت إلى فلسطين في معاهدة ١٩٢٠. وقد تأثرت هذه الإعادة ـ على ما يبدو ـ بحصول بريطانيا على منطقة الموصل وسلخها من شمال شرقي سوريا وضمها إلى منطقة العراق بعد أن اشتمت رائحة النفط في تلك المنطقة.

حول موقف فرنسا، ثمة احتمال بأن تكون التنازلات التي تمّ تقديمها إلى بريطانيا جاءت، من جهة أولى، على خلفية عدم الرغبة في تأزيم العلاقات معها، ومن جهة أخرى، رغبتها في تعويض هذه

التنازلات في المشرق بنجاحات في أماكن أخرى من العالم ولا سيما على الساحة الأوروبية.

ليس هذا فقط، وإنما يتعلق الأمر ـ باعتقادنا ـ بما جرى في تقاسم الأراضي والمصالح في المنطقة الحدودية شمالاً وشرقاً. فقد جرى نقل منطقة تبلغ مساحتها نحو ١٩٠كلم٢ بقراها وأراضيها وسكانها من لبنان إلى فلسطين، وقد شملت هذه المساحة التي يملكها سكانها وعائلات عربية أخرى قرى اصبع الجليل وتل القاضي الذي تمّ الإصرار على إدراجه ضمن حدود فلسطين. وبالمثل وضع خط الحدود الجديد في فلسطين منابع نهر الدان (أحد روافد نهر الأردن) وبحيرة الحولة ونحو ٢٠٠م من الأراضي إلى الشرق من سهل الحولة، ومجرى نهر الأردن بين بحيرتي الحولة وطبريا وشريطاً من الأراضي شرق المجرى. وبذلك شملت حدود فلسطين أقدام الجرف الصخري من منطقة الجولان بموازاة نهر الأردن. وتمّ أيضاً جعل بحيرة طبريا داخل حدود فلسطين. ولهذه الغاية مرت الحدود على بعد ١٠ أمتار عن خط المياه في الشمال الشرقي للبحيرة حتى منطقة قرية النقيب ومن هناك تتجه الحدود وبصورة عميقة شرقاً حتى ٢ كلم. كما ضمت بريطانيا إلى فلسطين قطاعاً شرقياً من وادي اليرموك في منطقة الحمة إلى الجنوب الشرقي من بحيرة طبريا.

لقد وجد توازن المصالح البريطانية والفرنسية تعبيراً عنه في مسائل متعددة. وبالإضافة إلى ما تقدم ثمة أمر يخص منطقة بانياس. فبعد أن وافقت فرنسا في البداية على التنازل عن منابع النهر حتى عشرات الأمتار شمالها، فقد عادت إلى جعل هذه المنابع في المنطقة السورية بعدما أدخلت في المنطقة الفلسطينية منابع نهر

الدان. وبذلك جعل الطريق من الجولان إلى الأراضي اللبنانية فالبحر المتوسط خارج أراضي فلسطين. وعلى الرغم من أن منطقة بانياس كانت بموجب الاتفاقية خاضعة للنقاش، لبحث مطالب بريطانيا بضمها إلى فلسطين، إلاّ أن ذلك لم يحدث طيلة فترة الانتداب البريطاني في فلسطين لأسباب نجهلها.

ما بعد الاتفاقية

استمرت المداولات البريطانية ـ الفرنسية بشأن الحدود ـ كما ذكرنا ـ إلى ما بعد التوقيع على الاتفاقية في ١٩٢٣/٣/٧. ففي تشرين الأول/ أكتوبر من العام ذاته، اتفق أن يجبي الفرنسيون كل الضرائب من سكان بانياس على أراضيهم الموجودة داخل تخوم الانتداب البريطاني، وسلموا دفعة واحدة بقيمة ٤٠٪ منها إلى البريطانيين. وفي نيسان/ أبريل ١٩٢٤ انتهت أخيراً عملية رسم الحدود على كل طولها، ودخلت الاتفاقية حيز التنفيذ الفعلي.

ومرة أخرى ترتب على ترسيم خط الحدود بين فلسطين وسوريا ظهور مشكلات جديدة، منها ـ مثلاً ـ أن هذا الخط كان يفصل السكان في بعض القرى عن أراضيهم ولم يستطع حل مسألة تشابك ملكيات الأرض، وذلك خلافاً للمبدأ الذي اعتمدته لجنة نيو كمب ـ بوليه حول عدم الفصل بين أي قرية وبين الأراضي التابعة لها.

من الأمثلة البارزة على ذلك، أن قبيلة الفضل (بزعامة الأمير محمود الفاعور والتي كانت تقيم في الجولان) كانت تملك أراضي واسعة في منطقة الحولة، وحتى ثلث الأراضي في بعض القرى هناك. وكانت في المنطقة قرى بكاملها تحت سيطرة القبيلة (مثل: خيام الوليد ـ مداحل ـ دوارة). والأراضي التي تقوم عليها الآن

مستوطنات هجشوريم وشعاريشون وشمير كانت من الأملاك الخاصة لزعيم القبيلة الفاعور وعمه. وهناك أراضٍ أخرى في منطقة الحولة كانت تعود ملكيتها للشهابيين وفايز الدبج من حاصبيا والشيخ فرحان بن شعلان من عين قنية وسكان من بانياس وعائلة بدين من لبنان... الخ.

وكأمثلة أخرى، في المنحى ذاته، مرّ خط حدود اتفاقية ١٩٢٣ ضمن ٢٢ قرية حدودية، ظهرت في منشور إداري لحكومة الانتداب حول قضاء صفد (١٩٢٤ و١٩٣٣) وكانت القرى المشطورة بخط الحدود، هي: المزيرعة ـ بانياس ـ برقيات لوطيان ـ جرابة ـ دريجات ـ الدربشية ـ عين التينة ـ عين فيت ـ عين ميمون ـ قَدَس ـ الرفيد ـ جليبينة ـ خربة البادية ـ المنارة ـ خربة السمان ـ ميس الجبل ـ مغرشبعا ـ صلحة ـ سعسع ـ شوكة ـ تل العزيزيات ـ يارون.

في ظل هذا الوضع، ظهرت الحاجة إلى معالجة المسائل الجديدة الناجمة عن تخطيط الحدود. لذا تمّ تشكيل لجنة لدراستها ترأسها من الجانب البريطاني الكولونيل سميز ومن الجانب الفرنسي المسيو فيرشير. ودأبت اللجنة طيلة عام ١٩٢٥ على أداء مهمتها، وتوصلت إلى اتفاقية دعيت باسم «اتفاقية حسن الجوار» بين فلسطين وكل من سوريا ولبنان، وقعها في القدس المندوب السامي البريطاني في فلسطين (بلومر) والمندوب السامي الفرنسي في سوريا (دي جوفنيل) في ١٩٢٦/٢/٢. وقد نظمت الاتفاقية مسائل العلاقات القائمة بين المناطق والسكان، مثل مسألة الاستخدام المدني والعسكري للطرق وحركة الأشخاص وعبور الحدود والجنسية والضرائب والمحاكمات وسبل حل الخلافات وغير ذلك.

نالت اتفاقية ١٩٢٣ موافقة عصبة الأمم (سلف الأمم المتحدة) عام ١٩٣٤ التي اعترفت بالحدود المرسومة فيها على أنها حدود معترف بها بين الانتداب البريطاني والانتداب الفرنسي. ومن الناحية العملية لم تكن هذه الحدود تفصل بالكامل بين الجانبين، ولم تتمكن السلطات من تطبيق رقابة كافية على هذه الحدود.

استمر العمل باتفاقية ١٩٢٣ خلال عهد الانتداب الفرنسي على سوريا (حتى العام ١٩٤٦). وبعد نحو سبعة أشهر من الاستقلال، توجهت وزارة الخارجية السورية إلى المفوضية البريطانية بدمشق (في ١٩٤٦/١١/١٢) للتباحث معها حول مسألتين كان الهدف منهما تحريك الحدود إلى جهة الغرب، الأولى هي تخلي السلطة الانتدابية الفرنسية عن أراضٍ سورية نيابة عن سوريا، والثانية تتمثل بضم أراضٍ سورية أخرى إلى فلسطين (والمقصود حسب رئيس الحكومة السورية آنذاك أراض كانت على مقربة من بحيرة الحولة وبحيرة طبريا). بيد أن جواب المفوضية كان (في ١٩٤٧/٧/٢٩) أن الحدود بين سوريا وفلسطين تمّ إقرارها من قبل عصبة الأمم عام ١٩٣٤، ولذلك لا مجال لبحث هذا الموضوع.

وبالنسبة للجانب البريطاني، استمر العمل بالاتفاقية ذاتها حتى نهاية انتدابه على فلسطين وقيام إسرائيل (عام ١٩٤٨). لكن هذه النهاية لم تشكل للصهيونية وإسرائيل حداً لانتهاء العمل بالاتفاقية. وهنا تنتقل مسألة الحدود مع سوريا إلى طور آخر.

الفصل الثالث

القيادة العسكرية

إذا كان التقسيم الإداري قد قسم بلاد الشام تقسيماً منطبقاً على معاهدة سايكس ـ بيكو، فإن القيادة العسكرية العامة كانت بأيدي الإنكليز، ودعيت البلاد: بلاد العدو المحتلة. وظل الأمر كذلك حتى استقر في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩١٩ بين الإنكليز والفرنسيين على أن يجري جلاء الإنكليز بشرط أن لا تدخل فرنسا المدن الأربع: دمشق وحلب وحمص وحماه وما يتبعها.

فانسحب الجيش البريطاني إلى شرق الأردن وفلسطين. وشرق الأردن مؤلف من عجلون والصلت وعمان وما إليها، وهي المنطقة التي سيستثنيها الفرنسيون من احتلالهم عند احتلالهم الداخل، والتي ستتألف منها منطقة خاصة يودع أمرها إلى الأمير عبد الله بن الحسين، ثم يقتطع من الحجاز: معان والعقبة وتضمان إليها.

فبعد انهيار الحكم الاستقلالي العربي في دمشق في ٢٤ تموز/ يوليو سنة ١٩٢٠ ـ كما سيأتي ـ زار المندوب الإنكليزي السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل في آب/ أغسطس ١٩٢٠ شرق

الأردن وألقى في مدينة الصلت خطاباً قال فيه:

إن الحكومة الفرنسية كررت تأكيداتها بأنها لا تريد أن تتدخل بأي شكل كان في شؤون هذه المقاطعة. وبما أن الحكومة الفرنسية قد عززت نفوذها في دمشق فقد أصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن إدارة دمشق. تسألونني عن نوع المساعدة التي تريد إنكلترا أن تقدمها لكم فأجيبكم أنها لا تريد أن تضمكم إلى الإدارة الموجودة الآن في فلسطين، بل تنشئ لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم، وسترسل إليكم عدداً قليلاً من الضباط ورجال القضاء محنّكين عارفين باللغة العربية وأحوال الشعب العربي فيسكنون البلاد الكبرى في هذه المقاطعة، وأنتم تعرفون أكثرهم شخصياً وسيساعدونكم في تنظيم الدفاع تجاه أي هجوم خارجي وفي تنظيم الشرطة لصيانة الأمن في الداخل وترقية التجارة وتأييد العدالة وإنفاق ما تدفعونه من الضرائب بأمانة تامة على مصالحكم واحتياجاتكم ويستشيرونكم في الغاية التي تدفع لأجلها الأموال وإصلاح الطرق وترميمها وإنشاء المدارس وتقديم المعونات الصحية.

إلى أن قال:

وستكون التعليمات العمومية التي ترسلها الحكومة البريطانية إلى موظفيها مبنية على قاعدة مساعدة الأهالي ليحكموا أنفسهم بأنفسهم، فمراعاة هذه المبادىء المؤسسة على العدل والشرف اللذين تمتاز بهما الإدارة البريطانية في جميع أنحاء العالم هي الأسس الصالحة لكل حكومة صالحة.

والواقع أن استثناء شرق الأردن من الاحتلال الفرنسي مع أنه كان تابعاً لحكومة دمشق، إنما كان تطبيقاً عملياً لمعاهدة سايكس ـ بيكو.

وهنا نص الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية

والحكومة البريطانية لأجل تثبيت اتفاقية سايكس بيكو بواسطة السير إدوار غراي وم. كامبون في أيار/ مايو ١٩١٦

الرسالة الأولى:

من مسيو أ. كامبون إلى السر إ. غراي ٩ أيار/ مايو ١٩١٦.

١ ـ تميل فرنسا وبريطانيا العظمى إلى الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الألف والباء كما هو مبين في المصوّر بإمارة زعيم عربي وتقدمان لها الحماية. ويكون لفرنسا في منطقة الألف ولبريطانيا العظمى في منطقة الباء الحق الأول في عقد القروض وفي التزام المشاريع المحلية. وتقدم فرنسا في منطقة الألف وبريطانيا العظمى في منطقة الباء المستشارين الفنيين والإداريين حينما ترى الدولة العربية أو الحلف العربي ضرورة لذلك.

٢ ـ تفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء أن تعملا فيهما على ما ترغبان فيه أي أن تديراهما مباشرة أو غير مباشرة بالاشتراك مع العرب وتأسيس دولة عربية أو حلف من الدول العربية.

٣ ـ تدار المنطقة السمراء بإدارة دولية ويترك أمر البت في تعيين شكلها إلى أن تتم المفاوضة مع روسيا وسائر الحلفاء . ومندوبي شريف مكة.

٤ ـ تعطى بريطانيا العظمى: (أولاً) مرفأي حيفا وعكا. (ثانياً) كمية معينة من ماء نهري دجلة والفرات تؤخذ من منطقة

الألف وتعطى لمنطقة الباء. وعلى حكومة جلالة الملك مقابل ذلك أن لا تفاوض في وقت من الأوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل أن توافق فرنسا على ذلك.

٥ ـ تكون الإسكندرونة مرفأ حراً للتجارة البريطانية ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات أو اختلاف في الرسوم الجمركية، ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الإسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنها بالبحر أو بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء. لا فرق في أن تكون هذه البضائع واردة من المنطقة الحمراء أو صادرة إليها أو خاصة بمنطقة الألف أو الباء.

تكون حيفا مرفأ حراً للتجارة الفرنسوية وتجارة مستعمراتها وتجارة البلاد المشمولة بحمايتها، ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات أو اختلاف في الرسوم الجمركية، ويكون شحن البضائع منها وإليها مباحاً بالسكة الحديدية التي تمر بالمنطقة السمراء. لا فرق في أن تكون هذه البضائع واردة أو صادرة من المنطقة الزرقاء أو من منطقة الألف أو الباء.

٦ ـ لا تمد سكة حديد بغداد بمنطقة الألف جنوباً إلى ما وراء الموصل ولا بمنطقة الباء شمالاً إلى ما وراء سامراء قبل أن يتم إنشاء السكة الحديدية بين حلب وبغداد عن طريق وادي الفرات وقبل أن يوافق الفريقان على ذلك التمديد.

٧ ـ يحق لبريطانيا العظمى وحدها أن تنشئ وتدير وتمتلك خطاً حديدياً يبتدىء من حيفا وينتهي بمنطقة الباء، ولها الحق أيضاً أن تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط الحديدي متى شاءت، ومن المعلوم عند الحكومتين أن هذا الخط هو

لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فإذا تعذر مده فنياً في المنطقة السمراء واقتضى الأمر مروره بغيرها تسمح فرنسا بذلك.

٨ ـ تبقى تعرفة المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقاً لمدة عشرين سنة في المنطقة الحمراء والزرقاء والألف والباء ولا يصير فيها تغيير أو تبديل إلاّ بمعرفة الفريقين وموافقتهما.

لا توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة أعلاه، وتحصل الرسوم بحسب الأصول في المرفأ الذي ترد إليه البضائع وتسلم بعد ذلك إلى الإدارة الداخلية التي تخصها تلك البضائع.

٩ ـ من البديهي أن فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الأوقات بشأن التنازل عن ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء، ولا تتخلى عن هذه الحقوق إلاّ إلى الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة قبل أن توافق حكومة جلالة الملك على ذلك. وعلى حكومة جلالته أن تعمل بموجب هذه الشروط بالمنطقة الحمراء.

١٠ ـ يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية الحاميتان للدولة العربية على عدم السماح لدولة ثالثة أن تمتلك شيئاً في أراضي شبه جزيرة العرب وأن تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة إلى شرق ساحل البحر الأحمر، وهذا لا يمنع أن تعدّل الحكومة البريطانية جبهة عدن بمقتضى الأصول الفنية والأحوال الخاصة بعد أن ثبتت ضرورة ذلك على أثر العداء التركي.

١١ ـ تجري المفاوضة مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية أو الدول العربية المتحدة كما في السابق باسم الدولتين.

١٢ ـ معلوم أن مراقبة توريد الأسلحة إلى البلاد العربية منوط بالدولتين.

الرسالة الثانية:

من مسيو أ. كامبون إلى السر إ. غراي في ١٥ أيار/ مايو سنة ١٩١٦.

قبل أن تجاوب فخامتكم على رسالتنا في تاريخ ٩ أيار/ مايو سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية أبديتم رغبتكم في إضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي ستصبح إفرنسية وفي المناطق التي ستسود فيها الإدارة الفرنسية، فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك أن توافق أيضاً على الشروط نفسها في المناطق الداخلة في دائرتها.

ولي الشرف أن أعلم فخامتكم أن الحكومة الفرنسية مستعدة أن تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي كانت تتمتع بها قبل الحرب في المناطق التي ستعطى لها (أي لفرنسا) أو المناطق التي ستشمل بعنايتها، أما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والفنية فستبقى كما في الماضي، ومن المعلوم أن هذه الامتيازات لا تعني الامتيازات الاجنبية والامتيازات القضائية.

الرسالة الثالثة:

من السر إ. غراي إلى المسيو أ. كامبون في ١٦ أيار/ مايو سنة ١٩١٦، يوافق على نص المعاهدة كما جاءت في كتاب المسيو أ. كامبون في تاريخ ٩ أيار/ مايو سنة ١٩١٦.

الفصل الرابع

فيصل في أوروبا

عندما أعلن انتهاء الحرب بعقد الهدنة العامة بين ألمانيا والحلفاء وتنادى القوم إلى التهيؤ لعقد مؤتمر الصلح في باريس، كان لا بد من التفكير بالعرب الذين خاضوا الحرب مع الحلفاء، وانتهت الحرب وقد صار لهم ملك، إذا كان الحلفاء رفضوا الاعتراف به باسم (ملك العرب)، فإنهم على كل حال اعترفوا به ملكاً على الحجاز يرئس دولة مهما كان شأنها فهي دولة منتصرة مع المنتصرين.

وكان الجنرال اللنبي هو المسؤول عما كان لا يزال اسمه في ذلك الوقت (الأراضي المحتلة)، فأرسلت وزارة الخارجية البريطانية تستفسر منه ومن (وورينغيت) في القاهرة عن رأيهما في توجيه الدعوة إلى الملك حسين ملك الحجاز للمشاركة في مؤتمر الصلح على أن يمثله ابنه الأمير فيصل، فحبذ الرجلان هذه الفكرة، وتلقى الملك حسين الدعوة فكان أن أبرق إلى فيصل يطلب إليه التوجه إلى باريس مندوباً عن العرب في مؤتمر الصلح.

وقد تلقى البرقية وهو في حلب فعاد إلى دمشق فبيروت راكباً

البحر على ظهر الطرّاد (غلوستر) في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٨ على رأس وفد فيه رستم حيدر ونوري السعيد والدكتور أحمد قدري وفائز الغصين.

ووصل إلى مرسيليا في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر فكان في استقباله عن الحكومة البريطانية (لورنس) وعن الحكومة الفرنسية المسيو (برتران). وقد عامله الفرنسيون كما لو أنه جنرال ورجل بارز ولكن ليس له صفة دبلوماسية.

وفي الطريق إلى باريس وبوصولهم إلى مدينة (ليون) أبلغه الكولونيل بريمون ـ المندوب الفرنسي الثاني ـ أنه ليست لدى فرنسا أية معلومات عن المهمة الرسمية التي نيطت به في فرساي «ولذلك فليس من المرغوب فيه أن تواصل سفرك إلى باريس». وأخبره أن الذين نصحوه بالمجيء إلى هنا أساءوا النصح له، إذ كان عليه قبل مجيئه مقابلة جورج بيكو[١].

لقد كان الفرنسيون يطمعون بسوريا، ويعلمون أن العرب يسعون إلى استقلالهم، وأن مهمة فيصل في فرساي هي تمثيل العرب في هذا السعي، وشتان بين ما يطمح إليه كل فريق[٢].

حين يسعى العرب إلى استقلالهم فإنما يستهدفون أول ما يستهدفون في ذلك: سوريا التي دخل جيشهم قسماً كبيراً منها محرراً. أما فرنسا فهي بالمرصاد لهذا الاستقلال العربي السوري، وستكون فرساي ميدان التصارع بين الفريقين، لذلك حاول الفرنسيون عدم الاعتراف أصلاً بفيصل مندوباً في مؤتمر فرساي ومتكلماً باسم العرب لا سيما السوريين منهم، ففاجأه الكولونيل الفرنسي بريمون بما فاجأه به. فصدم فيصل بهذا المنطق...

ثم عمد الفرنسيون من أجل إبعاده عن فرساي إلى تنظيم رحلات

له إلى ميادين الحرب وإلى بعض المدن الفرنسية. وطال الأمر، وفيصل ضجر من ذلك، واستمر الأمر عشرة أيام اضطر بعدها الفرنسيون إلى توجيه الدعوة له لزيارة باريس بعد ضغط شديد من الإنكليز. فسافر إليها واستقبله فيها رئيس الجمهورية المسيو بوانكاريه، وكان ذلك مجرد أمر (بروتوكولي) ليس إلاّ.

وفي يوم ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٨ سافر فيصل وحاشيته إلى إنكلترا فوصل لندن في اليوم التالي. وفي ٢٨ كانون الأول/ديسمبر التقى الأمير فيصل، وزير خارجية إنكلترا اللورد كارزن، وأراد أن يعرف منه موقف الإنكليز من القضية العربية التي سيطرح أمرها على مؤتمر الصلح، فطلب إليه كارزن أن يدوّن المطالب العربية ليدرسها مع لويد جورج رئيس الوزراء، ثم يرسل إليه كارزن كتابة ما يتقرر بينهم.

فقال الأمير لو أردتم مساعدتنا لنجحنا في مطالبنا، ونحن لم نقاوم الفرنسيين في احتلالهم ما احتلوه من سوريا إلاّ اعتماداً على الجنرال اللنبي. وإذا تُركنا وحدنا فسندافع عن كياننا.

فسأل كارزن ألا يمكن أن تتركوا جزءاً من سوريا لفرنسا؟

فقال فيصل: إن فرنسا تطمع بسوريا كلها لا بجزء منها.

وبعد أيام عاد الأمير إلى فرنسا، وكان أول لقاء له مع رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو في ١١ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٩ فوعده كليمنصو خيراً.

وفي ١٣ منه قدم الأمير مذكرتين بنص واحد إلى كل من وزير خارجية إنكلترا ووزير خارجية فرنسا، هذا نصها العربي:

الأمير فيصل يقدم احترامه إلى الموسيو بوشون ويحب أن يذكره بأنه في باريس مفوض من قبل والده الملك حسين بموجب البرقية المرسلة

من جلالته إلى الحكومة الفرنسية، ومندوب عن الجنود والقبائل العربية المنضمة إلى جيشه والمعترف بها أنها محاربة من طرف الحكومتين الفرنسوية والبريطانية في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩١٨.

هؤلاء الجنود والقبائل جاءوا من البلاد الواقعة بين عرض إسكندرونة واليمن. والأمير فيصل يريد أن يمثل هؤلاء في مؤتمر الصلح بذاته مع ترجمان ينتخبه عند الاحتياج، ويمثلهم أيضاً في كل مباحثة تنتج عن المؤتمر فيما يتعلق ببلادهم ومصالحهم.

ويسره أن يعمل بموجب هذه التمنيات جهد الاستطاعة أثناء تنظيم أعمال المؤتمر وتنسيقه.

وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تقرر عدد من يمثلون العرب في مؤتمر الصلح. وفي اليوم السابع عشر من الشهر تبلغ فيصل بأنه سيكون للعرب مندوبان، فضم إليه رستم حيدر ليكون المندوب الثاني. وتألف الوفد على هذا الشكل:

١ ـ المندوبون المفوضون: الأمير فيصل ورستم حيدر.

٢ ـ المندوبون والمستشارون الفنيون: نوري السعيد والدكتور أحمد قدري وفارس الخوري وأمين إرسلان[٣] وتحسين قدري.

٣ ـ السكرتارية العامة للوفد: عوني عبد الهادي (السكرتير العام) وأمين الكسباني (السكرتير).

وفي ١٨ من الشهر افتتح المؤتمر في الساعة الثالثة ودامت مراسم الافتتاح حتى الساعة الخامسة.

وبينما الأمير مشغول بما هو مشغول به إذ جاءه وفد إسلامي يرجوه بأن يتقبل رئاسة لجنة إسلامية تنوي إنشاء جامع في منطقة الأنفاليد بباريس، ويطلب منه تراباً من أرض الحجاز المقدسة ليحس المسلم

وهو يدخل المسجد أنه يدوس على تراب إسلامي.

فقال لهم الأمير ما أسهل هذا عليَّ.

وقالوا إنه مضى عليهم أربع سنوات وهم يعملون في هذا السبيل وأن المال موجود، وقد جمعوه كله من المسلمين لئلا يكون لأحد تدخل في شؤونه.

ويبدو أن فكرة هذا المسجد لم تتم، وربما كان ذلك لأن الحكومة الفرنسية لم ترض باستقلال المسجد فعملت بعد ذلك على إنشاء مسجد غيره بإشراف عميلها ابن غبريط.

فيصل ممثل العرب

في اليوم السادس من شهر شباط/فبراير سنة ١٩١٩ دعي الوفد العربي ليلقي كلمته في مؤتمر الصلح. ويصف رستم حيدر الذي كان العضو الثاني في الوفد ـ يصف في مذكراته ما جرى على الوجه التالي:

دخلنا البهو الكبير وهناك التقينا بلويد جورج ثم جاء كليمانصو وبيشون وويلسون... فدخلوا القاعة الخاصة بالمندوبين العشرة، ومكثنا قليلاً ثم استدعونا إلى الداخل. فدخلنا وجلس الأمير على كرسي في منتصف المحل ونحن على مقاعد وراءه. ثم في البهو (غو) السكرتير العام المساعد لشؤون آسيا في وزارة الخارجية الفرنسية وابن غبريط وبعض الأميركان.

وكان كليمانصو على يمين الداخل منفرداً في صدر القاعة وعلى رأسها ويلسون، ووزير الخارجية الأميركية (لانسينغ)، ولويد جورج، ووزير الخارجية الإنكليزية بلفور، ومندوبو اليابان، وعلى

ميسرة القاعة الطليان: اورلاندو وسالاندرا... وكان على ميمنة كليمانصو وزير الخارجية الفرنسية (بيشون).

فدخل الأمير وقدمه رئيس المؤتمر كليمانصو للجمع فسلم عليهم مصافحة، ثم جلس وتحفز للقول فاستمهله كليمانصو حتى تمّ الاجتماع وعمّ السكون، فقال: الكلام للأمير فيصل.

فانتصب الأمير وقال: إني سعيد بوجودي في المجتمع الذي يضم إليه أكابر رجال الأمم المعظمة وإني أعتقد أن هذه المحكمة العليا ستنصف الأمة العربية أثناء دفاعها عن حقوقها الطبيعية...

ثم أخذ في الدفاع وبدأ يقرأ عليهم بالعربية بعد أن اعتذر لهم عن عدم التكلم بلغة يفهمونها. فكان كلما قرأ قسماً، قام لورنس وترجمه للإنكليزية، وكانت الترجمة جاهزة في يده. وكان على يمين كليمانصو ضابط في مقتبل العمر ذو لحية شقراء يترجمها من الإنكليزية إلى الفرنسية بدقة وسهولة عظيمتين.

وبعد أن أتمّ النصف استأذنهم الأمير بقراءتها مرة واحدة، فوافقوا على ذلك، فاستمر على قراءته حتى تمت.

وكانوا ينظرون بتعجب ويرمقونه بنظر الاستغراب لأنهم لم يسمعوا دفاعاً أو قراءة كتاب طويل باللغة العربية. ولست أدري كيف كانت الأحرف العربية الحلقية تؤثر على آذانهم من حيث الموسيقى، وإنما أقول: إن الاستغراب كان بادياً على وجوههم.

وكانت قراءة الأمير متناسقة تتراوح بين انخفاض وارتفاع حتى انتهت. وإني على يقين أنهم لم يفهموا كلمة واحدة عدا كلمتين مرتا في عرض القراءة وهما: كونفدراسيون، وفدراسيون.

ثم تلا لورنس الترجمة، ولما انتهى أخذ الضابط الورقة وقرأها بالفرنسية بعين السهولة.

وكان الجميع يعجب من النقاط الأساسية الموجودة دفاعاً عن حقوق العرب واستقلالهم. وكان ويلسون يصادق برأسه، ولويد جورج يبتسم، واورلاندو يهز رأسه علامة الاستحسان.

وهكذا كان الجمع موافقاً على تلك المطالب الحقة إلاّ كليمانصو (رئيس الوزارة الفرنسية) و(بيشون) وزير الخارجية الفرنسية، فإنهما كانا عابسين يسمعان المرافعة بجدية خارقة. وأما بيشون فكان يسمعها ووجهه يتقطب كلما ازداد سماعاً.

وبعد الانتهاء سأل كليمانصو إذا كان هناك من يحب أن يوجه للأمير سؤالاً. فسكت الجميع. ثم وجّه لويد جورج (رئيس الوزارة البريطانية) هذا السؤال: ما هي أعمال العرب وحركاتهم في العراق؟

فأجاب الأمير:

نحن لا نعلم ما للعرب في العراق لأنه ليس لهم رئيس وأعمالهم لم تصلنا بالتفصيل. ولكن الجيش العربي الذي كان بقيادتي كان مؤلفاً معظمه من العراقيين وأكثر ضباطه من العراقيين، وهم إنما حاربوا في هذا الجيش وقاتلوا مع الحلفاء ضد الأتراك لأجل بلادهم واستقلال العرب.

فصادق لويد جورج على ذلك.

ثم سأل ويلسون عن الوصاية وتعددها.

فأجابه الأمير: إني أخشى أن أبيّن رأيي في هذه المسألة لأن مسؤوليتها عظيمة وهي تتعلق برأي الأهالي الذين لهم الحق أن يعينوا مستقبلهم.

فقال ويلسون: ولكن أسألك رأيك.

فقال الأمير: إني لا أرضى بتجزئة البلاد وأطلب الاستقلال.

ثم كرر كليمانصو على المندوبين إذا كان أحد منهم يريد أن يسأل.

فانبرى لويد جورج ثانية وقال:

ما هي الأعمال التي قام بها العرب في هذه الحرب؟

فقام الأمير وأوضح لهم كيف حصل القيام في مكة بالرغم من قلة الزاد والوسائل، وكيف تمّ التغلب بمعونة الله. وكيف طردوا الأتراك من الحجاز. وأشار إلى أن الإنكليز عاونوا بالمدافع والرشاشات والبنادق والذخائر.

ثم حركات الجيش العربي في معان.

ولما وصل الأمير إلى ذكر معان، تساءلوا عن موقعها، فأخذ الأمير الخريطة بيده، وكان أحد المعاونين الإنكليز قد وضع خريطة أمام لويد جورج فذهب الأمير إليه وأراه المكان.

ومن طرائف رستم حيدر تعليقه على ذلك بقوله: عربي يعلم الجغرافيا لرئيس الوزارة الإنكليزية.

ثم رجع الأمير إلى مكانه وتكلم عن وقائع الجيش العربي في حوران ودخوله دمشق وحلب.

واختتم كلامه قائلاً: وكان يرفع صوته تارة وقد ثارت عواطفه حتى استمال الأنظار نحوه:

إن أمتي لها مدنية عظيمة، ولما كانت متمدنة كانت الأمم التي تمثلونها في حالة البربرية والهمجية، فأطلب إليكم أن لا تبخسوا هذه الأمة التي خدمت التمدن حقها.

فكان لهذه الكلمات وقع حسن في نفوس المندوبين الذين بدأت إشارات تدل على الاعتراف بحقيقة هذا القول الجارح، حتى إن

جريدة (ديلي ميل) الإنكليزية كتبت في اليوم الثاني: إن الأمير لم يخش أن يذكر المندوبين أن أمته لما كانت متمدنة كانت أممهم بعد متوحشة.

وعلى أثر سؤال كليمانصو، قال بيشون للأمير: ألم تعمل فرنسا شيئاً في الشرق؟

فأجابه الأمير: نعم أرسلت لنا أربعة مدافع عيار ٦٠ ومدفعين قديمين عيار ٨٠ ومع ذلك فإننا نشكر فرنسا ما دمنا أحياء لأنها أعانتنا وهي أعظم من أن تمدح.

وقد انتقدت الصحف الفرنسية التي صدرت في اليوم التالي بيشون على هذا السؤال الذي نبّه الأذهان إلى تفاهة المساعدة الفرنسية ووجهت إليه اللوم على إضعافه حجة فرنسا بدلاً من تدعيمها.

كان كليمانصو يبحر بنظره من وقت لآخر في لورنس. وكان (أورلاندو) رئيس وزراء إيطاليا وأحد الأربعة الكبار، يستحسن الدفاع وكأنه موافق لسياسة أمته.

ويقول رستم حيدر: صباحاً بلغنا أن الرئيس ويلسون استحسن المدافعة (انتهى).

لما كان من المعلوم أن جهد الوفد العربي سينصب على سوريا، فقد أعدّ الفرنسيون وفداً مضاداً له برئاسة شكري غانم، جعلوا أعضاءه خليطاً من عدة طوائف، هم: جميل مردم (مسلم) وجميل مكرزل (ماروني) وأنيس شحادة (أرثوذكسي) والدكتور جورج سمنه (كاثوليكي) والدكتور توفيق فارحي (يهودي).

وشكري غانم هذا لبناني، غادر لبنان إلى الجزائر وهو في السابعة من عمره وعاش في الجزائر حتى بلغ سن الشباب وتزوج هناك فرنسية، ثم انتقل إلى باريس حيث قضى حياته كلها فيها حاملاً

الجنسية الفرنسية. وقد تولى أثناء الحرب تحرير جريدة المستقبل التي أصدرتها الحكومة الفرنسية في باريس باللغة العربية، وألف جمعية دعاها اللجنة المركزية (السورية).

وكان شكري غانم يهاجم فيصلاً بأنه حجازي، وأن الحجاز لا يمكن أن يحكم سوريا التي هي أكثر تقدماً منه. فرد عليه فيصل بأنه غادر سوريا منذ أكثر من ثلاثين سنة ولذلك لا يحق له أن يتكلم باسم السوريين.

وكان الفرنسيون قد مهدوا لشكري غانم ووفده للحضور أمام مؤتمر الصلح والكلام فيه مناهضة للوفد العربي، بالرغم من أنه ليس لشكري هذا أية صفة تخوله حق الكلام في المؤتمر.

ولما عرف الوفد العربي بذلك أرسل الاحتجاج التالي:

يا صاحب السعادة

إن الأمير فيصل مندوب الحجاز في مؤتمر الصلح بصفته قائداً للجيش السوري العربي الذي يحتل القسم الأعظم من سوريا فعلياً في الوقت الحاضر، وبصفته رئيساً أعلى للجمعيات والإدارات الوطنية في سوريا يحتج لدى «مجلس العشرة» على قرار الاستماع إلى السيد شكري غانم كممثل لجمعيات معينة في أوروبا:

أ ـ إن السيد شكري غانم وأغلبية الأعضاء العاملين في اللجنة السورية المركزية[٤] لا يحق لهم التكلم باسم السوريين لأنهم يحملون جنسيات غير سورية.

ب ـ إن الجمعيات التي يزعم شكري غانم تمثيلها أمامكم ليست إلاّ بضع جمعيات لبنانية وهمية لا تمثل إلاّ عدداً تافهاً من الناس. إن الجمعيات التي تمثل بصورة فعلية الرأي العام

للسوريين في الخارج، وخاصة اللبنانيين، مثل الموجودة في مصر ونيويورك ومانشستر وبونس آيرس ولندن والمكسيك... وغيرها تطالب بالاستقلال التام للبلاد.

يرجى من سعادتكم بكل إخلاص إعارة هذه القضية ما تستحقه من اهتمام وإبداء المساعدة لتأييد قضية الحق والعدالة.

ولكن هذا الاحتجاج لم يجد شيئاً وتقرر الاستماع إلى شكري غانم، على أن الجلسة التي تكلم فيها شكري غانم سبقه إلى الكلام فيها الدكتور هاوارد بليس الذي كان رئيساً للكلية السورية البروتستانية التي حملت بعد ذلك اسم الجامعة الأميركية وهو مولود في بيروت وناشىء فيها ومحب لسوريا وأهلها، وقد أنصف العرب وأيد مطالبهم، وقال إن السوريين يريدون الوحدة والاستقلال.

ولما خرج سأله داود عمون رئيس الوفد اللبناني: هل تكلمت عن لبنان؟ فقال: نعم، لأنني تكلمت عن سوريا، ولبنان هو قطعة من سوريا.

فقال داود عمون: نحن هنا ممثلو الجبل، وهذا حق من حقوقنا ونحن نمثل الأهالي.

فأجابه بليس: نعم أنتم تقولون هذا، وأنا أقول إن لي الحق إذا سئلت أن أبين رأيي وقد بيّنته.

ثم دخل شكري غانم فبدأ كلامه متحدثاً عن تاريخ سوريا وعن أحوالها مريداً أن يثبت أن سوريا كيان مستقل، وقال إنه يتكلم باسم ست مئة ألف في المهجر، وأنه يمثل مثل هذا العدد في سوريا... ثم طالب بالوصاية الفرنسية على سوريا.

أما عن أثر هذا الكلام فقد قال (شوتويل) الذي حضر تلك الجلسة في كتاب له عن مؤتمر باريس(٥) ما يلي:

إن تقرير شكري غانم استغرقت قراءته وترجمته ساعتين ونصف، وقد مرر (وسترمان) ورقة إلى ويلسن ذكر فيها أن شكري غانم كان غائباً عن سوريا مدة ٣٥ سنة قضى معظمها في فرنسا، وهذا ما أفقد ويلسن الاهتمام بسماع بقية الكلمة، وما لبث أن قام عن كرسيه وتمشى إلى الجانب الآخر من القاعة وأخذ يجول ببصره من النافذة ويداه في جيوب سترته، مما أدى إلى إحراج الفرنسيين وازعاجهم. وانحنى كليمانصو ليهمس في أذن وزير خارجيته (بيشون) شيئاً، ولما كنت جالساً وراءهما مباشرة فقد سمعت كليمانصو يقول بخشونة: لماذا جئت بهذا الرجل إلى هنا؟ ورأيت بيشون يمد يده في شكل احتجاج يائس ويقول: لم أكن أعلم أنه سيعالج الموضوع بهذه الطريقة. وكان الأمر كله فضيحة مكشوفة.

الانتداب

في تلك الفترة برزت لأول مرة كلمة (الانتداب) التي أريد لها أن تحل محل كلمات: الاستعمار، والحماية، والوصاية. وكانت هذه الكلمة ذات مفهوم غامض، ولم يكن معروفاً حقيقة ما يراد منها. وفي ١٤ شباط/ فبراير ١٩١٩ تلقى الوفد العربي دعوة لحضور اجتماع خصص للمذاكرة بمواد جمعية الأمم، وبدأت الجلسة بتلاوة المواد، وتكلم كثيرون. وكان من المتكلمين المندوب العربي الثاني رستم حيدر الذي قال:

في هذا النص كلمة شديدة الغموض هي كلمة (الانتداب) فماذا يقصد بها؟ ليس معلوماً بالضبط، مع أن على تفسيرها يتوقف مصير الأمم التي كانت حتى اليوم مضطهدة تحت نير الظالمين.

إننا نحتفظ بكل حريتنا في المناقشة إزاء هذا النص إلى أن تأتي ساعة درسه مادة مادة. أما الآن فأصرح بأن الأمم التي أتكلم باسمها مستعدة لأن تنتخب بحرية الدول التي تريد الاسترشاد بها. وهذه الأمم معترف لها مبدئياً بأن تحكم نفسها بنفسها في المستقبل وبحق تقرير مصيرها. حسناً جداً، ولكن اسمحوا لي بأن ألاحظ بأنه أُعدَّ لاتفاق سري لتقسيم هذه الأمم دون الاكتراث باستشارتها.

في لبنان

في الثامن من تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨ نزلت القوات الفرنسية في بيروت وعممت انتشارها على طول الساحل الممتد من صور حتى كيليكيا. وأطلق على هذه المنطقة اسم: المنطقة الغربية، كما أطلق على المنطقة المحتلة من الجيش العربي اسم: المنطقة الشرقية.

وصارت بيروت عاصمة المنطقة الغربية، ودمشق عاصمة المنطقة الشرقية. وكانت الإدارة في كلا المنطقتين تحت اشراف الجنرال اللنبي العسكرية باعتباره القائد العام لجيوش الحلفاء. وعيّن حاكماً لجبل لبنان الكومندان الفرنسي (سيشه) ومنح صلاحيات المتصرف، وبقي حبيب السعد رئيسا لمجلس الإدارة فقط وأُعفي من رئاسة الحكومة التي كان عينه فيها الحاكم العسكري العربي: شكري الأيوبي.

وعيّن حاكماً إدارياً للمنطقة الغربية (الساحلية) كلها الكولونيل الفرنسي نياجر، ومرجع الجميع: المفوض السامي جورج بيكو يعاونه معاونان أحدهما مدني هو روبر كولندر، وآخر عسكري هو الكابتن (دام).

وهكذا نرى أن اللبنانيين قد خسروا بزوال الحكم العربي وحلول الحكم الفرنسي محله ـ خسروا خسراناً أي خسران، فبينما جعل

الحكم العربي حاكمهم منهم، إذا بالحكم الفرنسي يجعل حاكم لبنان فرنسياً.

هذا فضلاً عن أصحاب السلطات الأعلى من حاكم جبل لبنان التي صارت كلها فرنسية، في حين أن مرجع جبل لبنان لو تم الحكم العربي هو دمشق التي كان يحكمها فيمن يحكمها ويشارك في سلطاتها العليا، جمهرة من اللبنانيين المسيحيين.

ولأجل تثبيت الحكم الفرسي في المنطقة الغربية لا سيما منها لبنان، ألّف الفرنسيون وفداً برئاسة فؤاد عمون ومن أعضائه إميل إده ليذهب إلى باريس ويطالب بذلك أمام مؤتمر الصلح.

ومن المضحكات أن يقول الوفد إنه ذاهب للمطالبة باستقلال لبنان، في حين أنه ذاهب للمطالبة بالانتداب الفرنسي على لبنان، وكلمة الانتداب هي التمويه الذي موّه به المستعمرون كلمة: الاستعمار(٦).

فيصل يعود

في الواحد والعشرين من نيسان/أبريل ١٩١٩ غادر الأمير فيصل باريس عائداً إلى دمشق تاركاً أمر متابعة القضية العربية السورية إلى رستم حيدر وفق هذا المخطط الذي دوّنه الأمير:

١ ـ الاعتراف بإسقاط حكم المعاهدات القديمة.

٢ ـ الاعتراف باستقلال سوريا التام.

٣ ـ سحب القوات العسكرية الاحتلالية في الوقت الذي يعينه السوريون.

٤ ـ احترام استقلال لبنان.

٥ ـ الاستقلال بضمانة الدول.

٦ ـ الخيار للحكومة السورية في إبقاء قسم من جند الاحتلال أو عدمه.

٧ ـ مقابل هذا، بعد ضم المواد الثانوية عليه أثناء المذاكرات فالحكومة السورية ترجح أخذ المعونة من فرنسا (انتهى) والذي يهمنا نحن من هذا هو أن نقول: إن وفد داود عمون ثم وفد البطريرك الماروني لم يكن لهما أي داع، فالحكم العربي السوري لم يكن في نيته التعرض للبنان وضمه إلى سوريا، وقد رأينا كيف أن الحاكم العسكري شكري الأيوبي حين ذهب إلى بيروت لإعلان الحكم العربي فيها، اعتبر لبنان ذا وضع خاص فاختار له حاكماً من أهله مستقلاً فيه عن غيره.

وها نحن نرى هنا أن الأمير فيصل رائد الاستقلال العربي السوري ينص في مذكرته التي تركها لمن يمثله ويمثل سوريا في باريس على احترام استقلال لبنان.

لذلك قلنا إن ذهاب الوفدين اللبنانيين إلى باريس كان أمراً لا داعي له، هذا إذا كان المقصود من ذهابهما الاحتفاظ باستقلال لبنان عن سوريا.

ولكن الحقيقة أن الفرنسيين الحاكمين في بيروت هم الذين أرسلوا هذين الوفدين لا لتثبيت استقلال لبنان عن سوريا، بل لتثبيت الاستعمار الفرنسي للبنان، في مقابل جهود الوفد العربي السوري في محاربة هذا الاستعمار في سوريا ولبنان معاً.

وبشارة الخوري نفسه في مذكراته التي سماها (حقائق لبنانية) يعترف بأن الفرنسيين هم الذين أرسلوا الوفد. فقد قال في الصفحة ٩٤ من الجزء الأول:

«وكان أول عمل سياسي حركته تلك السلطة (الفرنسية) في مجلس إدارة الجبل تشكيل وفد يشخص إلى باريس للمطالبة باستقلال لبنان...»، إلى آخر ما قال:

ثم يقول في الصفحة ٩٦:

«وبال الفرنسيين ظل مشغولاً قلقاً. لم يكونوا أمينين على نتائج مساعيهم المحلية فرجوا أن يذهب البطريرك إلياس الحويك إلى باريس على رأس وفد من الأحبار والكهنة للمطالبة باستقلال لبنان برعاية الدولة الفرنسية، أيضاً وأيضاً، فنزل البطريرك على رغبتهم وأبحر من جونية في أواخر صيف ١٩١٩ على مدرعة حربية...».

ثم يقول عن عودة البطريرك في الصفحة ٩٩:

«فخففنا إلى الميناء ودخلت الباخرة ونزل منها غبطة الحويك وحاشيته بقارب رسمي، والمدافع تطلق والعساكر الفرنسيون يؤدون التحية، وواكب الخيالة السباهيون سيارة البطريرك...».

ولم يكتف الفرنسيون بهذين الوفدين بل عادوا فأرسلوا وفداً ثالثاً برئاسة المطران عبد الله الخوري، فيه: إميل إده والأمير توفيق إرسلان والشيخ يوسف الجميل فسافروا في أوائل آذار/ مارس سنة ١٩٢٠.

وإذا كانت هذه الوفود قد نجحت فإنها نجحت في شيء واحد هو أن أصبح حاكم لبنان فرنسياً، كما يقول بشارة الخوري نفسه:

«أفادت (فرنسا) موظفيها ومستشاريها وشركاتها وصاحبة الامتياز منها افادات مادية لا يستهان بها، وأفرطت في تعيين الفرنسيين في شتى الدوائر، ووضعت يدها على الجمارك وهو أعظم الموارد وحجبته عن الخزانة الوطنية فغلّت يدها عن العمران وتحسين حالة البلاد».

ثم يقول:

«أما التقصير الفادح الذي ارتكبته فهو استئثارها بالسلطة والإدارة».

هذا هو الاستقلال الذي طالبت به الوفود اللبنانية!

أما ما يعتبرونه نجاحاً، وهو تكبير لبنان بأن ضُم إليه ما ضم، فالحقيقة فيه هي أن هذه الفكرة كانت موضع ترحيب وتشجيع الاستقلاليين السوريين. بل إن مندوب العرب في مؤتمر الصلح رستم حيدر يسجل في مذكراته، وهو يتحدث عن وصول البطريرك الماروني إلى باريس قائلاً عن يوم السبت ١٩١٩/٦/٢١.

يظهر أن بطريرك الموارنة سيحضر إلى باريس لأجل المطالبة بلبنان الكبير مع معاونة فرنسا... ثم يقول:

«أرى أنه من الواجب توسيع لبنان بقدر الامكان والاتفاق إذا أمكن ضمن هذه الشروط مع البطريرك في طلب الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط. لبنان المتوسط لا الكبير مفيد إذا كان مستقلاً تمام الاستقلال وإضمام بيروت وصيدا وصور مع جبل عامل له يقوي حزب الإسلام والدروز وبقية العناصر المسيحية غير الموارنة ويربط الجبل بصفته العربية لأنه على هذه الحالة يخشى من أن يعتنق الفرنسوية ويلوذ بها حفظاً لكيانه فنضيع بذلك قسماً من البلاد يكون دوماً خطراً عليها في المستقبل. أما إذا استقل لبنان وفازت فيه السياسة العربية فيكون ملجأ للأحرار ومركزاً تنشر منه الأفكار الحرة والاستقلالية. وأما لبنان فيستفيد استفادة عظمى لأن كل البلاد العربية تصبح مستعمرة له إذا قام بما قام به من النشاط حتى الآن».

هذا كلام قاله استقلالي عربي مسؤول يمثل العرب في مؤتمر الصلح. قاله سنة ١٩١٩. والذي يقبل بلبنان متوسط يقبل ـ بعد الأخذ والرد ـ بلبنان كبير.

التهديد بالبولشفيك(٧)

كان صراع فيصل في مؤتمر الصلح صراعاً مريراً، وقد وجد نفسه

هناك فرداً ضعيفاً بين مجموعة أقوياء متكالبين على اقتسام تركة من كانوا يسمونه (الرجل المريض)، وقد مات ـ بنظرهم ـ هذا المريض، ويريد الآن كل واحد أن يستأثر بما يستطيع الاستئثار به مما خلفه هذا الميت، وكان أهم ما خلفه: البلاد العربية.

ومن سوء حظ سوريا أنها كانت البلد الوحيد الذي يمكن إرضاء الفرنسيين به بعد أن كان الإنكليز قد سيطروا على العراق وفلسطين.

فهل من المعقول أن تخرج فرنسا ـ كما يقول المثل المصري ـ من المولد بدون حمص، بعد أن تحملت العبء الأكبر من الحرب. وبذلك واجه فيصل أمراً واقعاً رهيباً، وتلفت حوله فرأى أن الإنكليز لا يمكن أن يغضبوا الفرنسيين من أجل السوريين، وقد كان يعلم أنه لا يستطيع التهديد بالقوة، إذ لا قوة لديه تقاتل القوة الفرنسية، فعمد إلى الحجة، وما تصنع الحجة أمام القوة؟!

وإننا لنورد هنا أمثلة مما كان يقارع به بلسانه وحجته، فمن ذلك لقاؤه المسيو (غو) السكرتير المساعد لشؤون آسيا في وزارة الخارجية الفرنسية، فقد زاره (غو) في ١٩١٩/١/١٨ فدار بينهما الحوار التالي، وكان المترجم بينهما قدور بن غبريط من رجالات الجزائر:

فيصل: إن المنافع الفرنسوية في سوريا معلومة نحن نضمنها ولكن يجب عليكم أن تضمنوا لنا استقلالنا ووحدتنا.

غو: إن فرنسا لا تريد أن تستملك سوريا ولا أن تكون حامية لها بل تريد تنظيمها.

فيصل: ما قصدكم من التنظيم وإلى متى يدوم هذا؟ كانت إنكلترا تقول القول نفسه في مصر وها هي أصبحت...

غو: تعيين المدة لا يمكن ولكن نحن نرغب أن لا تكون سوريا في يد غيرنا، هذه مصر أمامنا.

فيصل: إذا شئتم أن لا تكون سوريا في يد غيركم امنحوها حريتها واطلبوا ذلك من الإنكليز أيضاً. إذا لم يكن لكم مطامع أظهروا نواياكم. نحن ثلاث قوى في سوريا(٨) يجب أن نتخلى عن مطامعنا، وها أنا في الرأس مع أنني عربي أسحب جيشي فاسحبوا جيوشكم وعندئذٍ تنسحب إنكلترا ولنطلب تخلية بقية الأمكنة تبعاً للمبدأ العام.

غو: لكن نخشى على الأقلية وأن تضيع حقوق المسيحيين.

فيصل: لماذا قبلت الدول مبدئياً بإلحاق الرومانيين إلى رومانيا، ألا يوجد هناك أقلية من عنصر آخر؟ أما نحن فلا يوجد بيننا هذا لأننا كلنا عرب.

غو: إن الدول أخطأت بسياستها هذه وعندي أنه يجب عليها أن تتجنبها، ولكن لا أضمن الرأي العام وربما أجبرها نظراً للمذابح التي ارتكبها الأتراك في تلك الأراضي وعندكم أقلية لا تريد ما تطلبون وهي طالبة فرنسا.

فيصل: إن الأمة السورية والعرب ليسوا بأقل استعداداً من غيرهم من الأمم لإدارة أنفسهم. اليونان والرومان عندما استقلوا لم يكونوا أرقى منا بل بالعكس. وأما الأقلية فإذا أردتم لبنان فنحن لا حق لنا أن نتكلم عن هذا القطر لأنه تحت ضمانة الدول وله استقلال معلوم، فإذا أراد أن يحتفظ باستقلاله فله وأظن أن المسألة تعود للدول التي كفلت استقلاله. وأما بقية السوريين فلماذا نريد أن

نفصل في أمرهم دون أن نشاورهم، أليس لهم الحق في تعيين مقدراتهم وقد حاربوا وتحملوا من أثقال هذه الحرب ما هو معلوم لدى الجميع، فلنسأل رأيهم وهم ينتخبون فرنسا بالنظر لمحبتهم لها.

غو: ما دام أنهم ينتخبون فرنسا فلنكن نحن من الآن هناك وما الفرق بين أن تكون...

فيصل: الفرق أنكم تذهبون إلى سوريا بطلب منها لا بغير إرادتها وهذا يكون أوفق لكم ولها، وبهذه الصورة تكون البلاد مستقلة في انتخابها إذ يجب أن تعلن أن ليس لها مطامع فيها مبدئياً ثم نبحث عن مسألة التنظيم.

غو: هل تظنون أن الانتخاب يكون حراً ومن غير شائبة وهناك ٤٠ ألف إنكليزي ودراهم...

فيصل: هذه غلطتكم، أنا أقول لكم إنني أنسحب هيا انسحبوا أنتم ولنطالب الإنكليز بالإنسحاب لربما اتفقت الكلمة، والإنكليز يعلنون أن ليس لهم مطامع فأعلنوا أنتم ثم نباشر بالعمل. أنتم تخافون من الإنكليز والإنكليز يخافون منكم ولا أحد يجرؤ أن يسحب يده من هذه المائدة النفيسة. فأنا بصفتي شريككم أتعهد بالانسحاب، هيا اتفقوا أنتم والإنكليز وانسحبوا. تبقى المآكل على حالها.

غو: أخاف أن تعفن إذا لم يأكلها أحد منا.

فيصل: إن لها من يأكلها وهم أهلوها أحق الناس بها.

وقام بينه وبين بيشون وزير الخارجية الفرنسية حوار جاء فيه:

بيشون: أنتم تعلمون أن فرنسا لها منافع عظيمة في سوريا وقد كانت بياناتكم في المؤتمر مخالفة من وجوه عديدة لتلك المنافع.

فيصل: أنا لم أبدِ غير ما تطلبه منفعة البلاد. نعم، إن لفرنسا بعض المنافع، ولكن منافع أهل البلاد أعظم من كل المنافع وقد كنت ولا أزال ترجماناً لرغائب الشعب السوري.

ومما دار بينه وبين رئيس الوزراء كليمانصو:

كليمانصو: إن الإنكليز سينسحبون من دمشق وحلب وإني أود أن تقوم عساكرنا مقام العساكر الإنكليزية هناك.

فيصل: أنا لا أستطيع الموافقة على هذه الفكرة فسوريا لا تحتاج إلى عساكر أجنبية، وإذا احتاجت إلى جنود أجنبية فيما بعد فإنها لا تتأخر أن تطلب منكم يد المعونة.

ودار بينه وبين روبير دوكيه حوار ختمه فيصل بقوله:

أنا أعرف واجبي وكيف أدافع عن حقوق أمتي، أما أن نموت فلا بأس أن نموت أعزاء أو أننا نعتنق البولشفيك.

هذا القول الذي قاله فيصل سنة ١٩١٩ مهدداً به الفرنسيين كان أول اتجاه عربي نحو الشرق السوفياتي، إذا كان ظل يومذاك مجرد تلويح نظري، فقد ظل يعتمل في نفوس العرب من تلك الأيام حتى اليوم الذي كسر فيه العرب احتكار السلاح الغربي وعقدوا صفقتهم الأولى مع الشرق البولشفيكي، ثم التحموا معه مستنصرين به فنصرهم وظل حليفاً لهم على عدوهم اللدود اليهود، وحاميتهم أميركا.

لماذا فكر فيصل بالبولشفيك وهدد بهم، ثم لم ينفذ تهديده؟!

في ذلك الوقت كان مصطفى كمال قد ثار على معاهدة (سيفر) التي مزقت تركيا ووزعت مزقها على الطامعين فيها.

وفي الوقت الذي كان يعقد فيه مؤتمر الصلح في باريس كان

مصطفى كمال قد بلغ من القوة ما جعله يهدد ويتوعد ويحسب له ألف حساب.

وكان مصدر قوته هم من اصطلح على تسميتهم يومذاك بالبولشفيك. إذ كان هؤلاء البولشفيك الذين نجحت ثورتهم وقامت دولتهم يفتشون عمن ينتقمون به من الحلفاء المنتصرين، هؤلاء الحلفاء الذين ناصبوا الحكم البولشفيكي العداء وجيّشوا الجيوش لاجهاضه والقضاء عليه. فجاءته الفرصة بقيام مصطفى كمال وتمرده على قرار الحلفاء بتمزيق تركيا والاستيلاء على أشلائها فاتصل البولشفيك به وعرضوا عليه الرجال والسلاح والمال، فقال إن لديه من الرجال ما يكفيه ولكن يريد السلاح والمال فأمدوه بهما، واستجاش قومه الأتراك فهبوا إليه ملبين لإنقاذ شرفهم وبلادهم، ووصلت أصداء معاركه إلى باريس، وعُرف فيها ما عرف من إمداد البولشفيك لمصطفى كمال بما أمدوه به.

فمن هنا رأينا فيصلاً يلوح أمام روبير دوكه بالبولشفيك...

لقد كان من شروط الهدنة مع تركيا أن تسرّح تركيا قواتها المسلحة وأن لا تبقي إلاّ ما يقتضيه حفظ الأمن الداخلي، وقد عمد الأتراك إلى إخفاء سلاحهم في حُفَر حفروها في الحقول والسهول احتفاظاً به إلى يوم يحتاجونه فيه.

وقضت معاهدة «سيفر» بتقسيم تركيا، ولم يبق للعاصمة استنبول إلاّ القسم الداخلي من الأناضول الذي انهار فيه الأمن ودبت الفوضى وقامت الصراعات بين الناس، كما هوجمت القرى اليونانية وراء ميناء صمسون من الأتراك. فطلب الحلفاء من رئيس الوزارة التركية أن تعالج حكومته الأمر هناك. وبعد التشاور مع وزير الداخلية تقرر إرسال ضابط كبير ليشرف على الأمور ويصلح

الحال، ووقع الاختيار على مصطفى كمال وفوّضت إليه سلطات استثنائية مدنية وعسكرية واسعة واعتبر مفتشاً عاماً للجيش التاسع الذي كان يرابط هناك.

وفي اليوم السادس من أيار/مايو توجه إلى صمسون وكان هدفه تجميع ما يستطيع تجميعه من القوات التركية المنتشرة في الأراضي غير المحتلة وسط تركيا وشرقها لتكون بقيادته معتمداً على ما مُنحه من صلاحيات، وراح الأتراك ينبشون عما دفنوه من سلاح في الأرض، ويجمعون ما كدَّسوه منه ويتقلدونه.

وكان اليونانيون قد أنزلوا جنودهم في مدينة أزمير التي كانت من نصيبهم في أشلاء تركيا، وهنا صدر الأمر من استنبول إلى مصطفى كمال ليعود.

ولكن مصطفى كمال كان قد صار هو صاحب الأمر فتمرد على أمر استنبول وحضر مؤتمراً شعبياً في أرضروم، ثم دعا إلى مؤتمر وطني عام في سيواس.

ولأول مرة يسمع الحلفاء وهم منهمكون في مؤتمر لهم في لندن بتقرير مصير تركيا في ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٢٠، أن جيشاً تركياً مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي يتغلب على قوة فرنسية في جنوب الأناضول. لقد أذهلهم النبأ...

كانت حكومة استنبول قد دعت في نهاية عام ١٩١٩ إلى انتخابات نيابية عامة تشمل تركيا كلها، وقبل انعقاد المجلس النيابي توجه النواب إلى أنقرة التي كان اتخذها مصطفى كمال مقراً لثورته فوقّعوا الميثاق الوطني الذي كان وضعه مصطفى كمال والداعي إلى قيام دولة تركية مستقلة. ولما انعقد المجلس النيابي في استنبول في ٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٠ قرر المجلس في جلسة

سرية الموافقة على الميثاق الوطني، ثم أعلنوا هذه الموافقة في ١٨ شباط/ فبراير.

ورأى الإنكليز أن يشتدوا في الأمر فاحتلت القوات الحليفة استنبول وأعلنت الحكم العسكري واعتقلوا العشرات من المدنيين والعسكريين بينهم عدد كبير من النواب ونفوهم إلى مالطا. واستطاع حوالى مئة نائب الوصول إلى أنقرة حيث انضموا إلى مئة وتسعين عضواً آخرين وألفوا مجلساً نيابياً جديداً قرر إنشاء حكومة الجمعية الوطنية الكبيرة التي انتخبت مصطفى كمال رئيساً لها.

وكان أول قرار اتخذته حكومة مصطفى كمال إرسال بعثة إلى روسيا وصلت في أيار/ مايو سنة ١٩٢٠. وكان من نتائج وصول هذه البعثة أن تدفق المال والسلاح الشيوعيان إلى حكومة مصطفى كمال.

ولكن شتان بين موقع مصطفى كمال وبين موقع فيصل، فبلاد مصطفى كمال متصلة الحدود مع بلاد البولشفيك مجاورة لها الجوار اللصيق مما لا يحول بين تدفق السلاح من الثانية إلى الأولى، في حين أن بين سوريا وبين روسيا من البعد ما يحول دون أي اتصال بينهما، فضلاً عن أن ما بيد فيصل من البلاد السورية هو موقع بري لا منفذ له على البحر، فالبحر من صور حتى إسكندرون هو بيد الفرنسيين...

فمن هنا كان يعلم روبير دوكه ومن وراءه من الكبار أن تلويح فيصل بالبولشفيك هو تلويح يمضي في الهواء لا يخيفهم ولا يردعهم...

وكان فيصل يعلم ذلك، ولهذا لم يعد إلى هذا الموضوع، وكان ما ظهر على لسانه مجرد نفثة مصدور وزفرة مكروب!

على أن التطلع إلى (البولشفيك) لم يرد على لسان فيصل وحده. فهذا رستم حيدر المندوب العربي الثاني في مؤتمر الصلح يتطلع هو الآخر إليهم ويرى أنهم المنقذون.

إنه وهو يسرد الأحداث في مذكراته يشير إلى انتشار (البولشفيك) في ألمانيا قائلاً عن أحداث يوم ١٩١٩/٤/١٠:

إن (البولشفيك) تأسس في بافاريا منذ أربعة أو خمسة أيام، وقد تأسس هذه المرة بصورة قوية، فأصبح والحالة هذه في قلب أوروبا. وهذه الحركة تنتشر يوماً فيوماًوقريباً لا بد لألمانيا أن تعتنق هذا المبدأ عندما تقف على مطاليب الدول المتحالفة المجحفة والمخالفة لمبادىء الرئيس ويلسون. حبذا لو انتشرت هذه الفكرة في أوروبا لأن انتشارها سيكون من أكبر العوامل المؤيدة ليس فقط لحرية البلاد العربية بل لحرية واستقلال الشرق. إذا أصبحت ألمانيا بولشفيكية فهل يمكن لفرنسا بعد ذلك أن ترسل جنوداً لقتال العرب الذين يطلبون حريتهم واستقلالهم؟

وأكثر من ذلك فإن الملك حسين ملك الحجاز نفسه قد اندفع الاندفاع نفسه نحو (البولشفيك)، فبعد القضاء على الحكومة الاستقلالية العربية في دمشق وذهاب الملك فيصل إلى أوروبا، وبينما كان لا يزال ينتظر في إيطاليا، تلقى من والده الملك حسين رسالة بأن لا يرجع إلى الحجاز، ويصبح بولشفيكيا إذا اقتضى الأمر!

على أنه إذا كان من المتعذر على الحكومة العربية الاستقلالية في دمشق الاتصال بالبولشفيك فقد جرت محاولة للاتصال بالكماليين الذين كانوا يحاربون الفرنسيين في كيليكيا للتعاون معهم على الفرنسيين، ومع أنه لم يذكر أحد أنه كان هناك تفكير للاتصال

بالبولشفيك بتوسط الكماليين، فليس من المستبعد أن يكون هذا التفكير قد جال في ذهن من في دمشق.

وقد كانت حكومة دمشق الاستقلالية قد وقفت بصلابة في وجه الفرنسيين المحاولين إرسال إمداداتهم إلى مقاتليهم في كيليكيا بطريق القطار الواصل إلى حلب عبر الأراضي السورية، ورفضت السماح لهم بذلك لئلا تعين الفرنسيين على الأتراك المدافعين عن بلادهم.

وقد كان هذا الموقف قبل التفكير بالتعاون مع الكماليين.

على أن الفرنسيين الخارجين من الحرب منهوكي القوى والذين أخذوا يتنافسون مع الإنكليز، رأوا أن استمرار القتال مع الكماليين الذين أصبح لهم جيش قوي يحسب له كل حساب مما لا تتحمله نفوس الشعب الفرنسي الذي كان قد أعيى من سفك دمائه وبذل أمواله خلال الحرب الكبرى، فلم يكن من الممكن حمله على أن يرسل أبناءه من جديد إلى ساحات القتال ولا أن يبذل أمواله.

مضافاً إلى ذلك أن الصراع الأساسي هو بين الأتراك واليونان، اليونان الذين احتلوا إزمير وراحوا يمتدون فيما وراءها، وكان الإنكليز نصراء اليونان. فرأى الفرنسيون أن يكونوا نصراء الأتراك، فأعلنوا تخليهم عن كيليكيا وانسحابهم منها. والمعروف أنهم تركوا فيها للأتراك أسلحة مهمة.

وبذلك تفرغوا لقتال السوريين الضعفاء الذين لا مدد لهم، ولا حليف يؤازرهم، فعظمت المصيبة على السوريين الذين كان عدد جيشهم لا يزيد عن سبعة آلاف جندي موزعين في مختلف المناطق السورية، مع خمسة عشر ألف بندقية وعدد من المدافع. ثم تبين أن

عدد الرصاصات لكل بندقية لا يبلغ المئات، وعدد القنابل لكل مدفع لا يبلغ العشرات.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الأتراك والفرنسيين لم يعد الأتراك بحاجة للتحالف مع السوريين. ومع ذلك ظل هذا الهاجس يراود ذهن فيصل وأعوانه، فبعد خروجه من دمشق وانهيار الحكم العربي الاستقلالي فيها، وبينما هو في البحر بطريقه إلى إيطاليا قرر إرسال ساطع الحصري إلى استانبول للاتصال بالكماليين ـ كما يذكر ذلك ساطع الحصري في كتابه: يوم ميسلون ص ١٥٨ ـ ١٦٨ ـ واستطلاع إمكان الإفادة من التعاون معهم. ولدى وقوف الباخرة في نابولي نزل منها ساطع وأخذ أول باخرة مسافرة إلى استانبول فوصلها في أول أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠، أي بعد ما ينوف على شهر من موقعة ميسلون.

وكان للكماليين ممثلون في استانبول فاستطاع الوصول إليهم، محاولاً الوصول إلى أنقرة للتفاهم مع مصطفى كمال نفسه، وحتى ذلك الوقت لم يكن ما جرى من تصالح تركي فرنسي واضحاً تماماً، ثم تبين له أن ليس من المستطاع الوصول إلى أنقرة لانقطاع الاتصال بينها وبين استانبول، ووضحت له وهو في استانبول حقيقة العلاقات الجديدة بين الأتراك والفرنسيين، وكون الفريقين مجمعين على التناصر في مقاومة الإنكليز المناصرين لليونان.

ولما تبين هذا للحصري عاد إلى إيطاليا فوصل البندقية في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ومن البندقية سافر إلى ميلانو فإلى كومو التي كان فيصل وحاشيته مقيمين في إحدى ضواحيها.

وإذا كنا قد قلنا ما قلنا فيما تقدم، فإننا نتساءل هنا أصحيح أن باب

التواصل العملي بين البولشفيك وبين سوريا كا موصداً، وأن لا سبيل لمد البولشفيك للسوريين بما أمدوا به الأتراك؟

الذي أراه في الجواب الصحيح هو أن إمداد البولشفيك للأتراك كان سهلاً لاتصال حدود البلدين ببعضهما، وإمداد البولشفيك للسوريين ليس مستحيلاً بل صعباً، وأن هذه الصعوبة كان يمكن تذليلها، لو كان هناك تخطيط عربي بعيد النظر، تخطيط مقرون بالعزم الصامد والحزم الصارم. لم يكن هناك تخطيط عربي، بل كانت الأمور ترتجل ارتجالاً، وكانت الحماسة والعاطفة تتحكمان دون درس لما يجب أن تقترن به الحماسة والعاطفة من وسائل التنفيذ العملي للمستقبل.

فالنوايا الفرنسية كانت واضحة في الاستيلاء على سوريا، والإنكليز بدوا متخلين عن العرب إرضاء للفرنسيين، فاكتفي في هذا الموقف الخطير لتحدي الفرنسيين بإعلان قيام المملكة العربية السورية مستقلة استقلالاً تاماً، ولم يفكر أحد باحتمال الاصطدام بالفرنسيين اصطداماً عسكرياً، مع أن هذا الاصطدام لم يكن محتملاً، بل متيقناً، ولم يفكر أحد بإمكانات الجيش السوري في مقاتلة الجيش الفرنسي المنتصر قبل شهور على الجيش الألماني.

بلى لقد جرى التفكير في ذلك، ولكن قبل ساعات من ساعة الفصل، فإذا بياسين الهاشمي العسكري العربي الأول يومذاك يكشف على مستودعات السلاح، فإذا بالحقيقة المرة تبعث على اليأس المرير!

لقد أعلن ياسين أن ما لدى الجيش السوري من ذخائر السلاح لا يكفي للصمود أكثر من ساعتين!

إذ لكل بندقية ٢٧٠ رصاصة، ولكل مدفع ٨٠ قنبلة!

هذا الكشف كان يجب أن يكون سنة ١٩١٨، لا سنة ١٩٢٠، كان يجب أن يكون في الساعة التي طرد فيها الفرنسيون والإنكليز الحاكم العسكري العربي شكري الأيوبي من بيروت وأنزلوا العلم العربي من عليائه ذليلاً!

وعندما تتبين حقيقة الضعف في الجيش السوري يصار في الحال إلى التفتيش عن الحلفاء الذين يقوون هذا الضعف، وكان الحلفاء جاهزين، كانوا محصورين في البولشفيك.

كان كل ما فعله الحكم العربي في دمشق عندما لاحت ملامح الاصطدام أن استقدم بضعة مدافع من الحجاز من مخلفات الجيش العثماني ولم يكن العتاد متوفراً لها.

ونحن لا ندري كيف وصلت هذه المدافع إلى دمشق، الأرجح أنها وصلت على طريق العقبة.

ولا يهمنا أن نعرف كيف وصلت، فالمهم أنها وصلت...

وبالطريق نفسه الذي وصلت عليه مدافع الحجاز كان يمكن أن تصل امدادات السلاح البولشفيكي، لو كان هناك مخططون ذوو نظر بعيد!

الفرنسيون تخلوا عن كيليكيا للأتراك لأنهم عرفوا أن الاحتفاظ بها سيكلفهم خوض حرب لا يوافقهم شعبهم على خوضها بعد ما عاناه من الحرب التي خرج منها، ولا يوافقهم برلمانهم على إقرار ما يقتضي إقراره من أموال للاستمرار فيها، فأذعنوا للأمر الواقع وسلموا كيليكيا للأتراك وانسحبوا منها.

ولو عرفوا أن دخول سوريا سيكلفهم حرباً طويلة الأمد لسلموا في سوريا بمثل ما سلموا به في كيليكيا، ولكنهم كانوا يعرفون أنهم سيقاتلون جيشاً لا يملك لكل بندقية من بنادقه المحدودة العدد مئات

الرصاصات، ولا لكل مدفع من مدافعه عشرات القنابل، فاشتط (غورو) في مطالبه ودخل دمشق فاتحاً... ماذا كان يمكن أن يحدث لو وجد في العرب يومذاك مخططون بعيدو النظر نفاذو الفكر منظمو العقل واستطاعوا النفاذ إلى (البولشفيك) فاستمدوا السلاح وواجهوا به المخططات الاستعمارية؟

يصف رستم حيدر في مواضع مختلفة مما دوّنه وهو عضو في الوفد العربي، يصف الموقف مرة بهذا القول: هذه السياسة الأوروبية كذب ونفاق. فلتحي القوة.

ومرة يقول: دائماً عجلة ... دائماً المقررات تعطى في آخر ساعة فلا يترك للتفكير وقت مناسب. إن النوطات (المذكرات) التي تحرر عند الأمم المجربة يمضي مدة حتى ترسل وتعدل مراراً أما نحن فإننا نعيش يوماً فيوماً بل ساعة فساعة، وهكذا حالة الأمم المبتدئة والضعيفة ليس لها وقت تفكر فيه (انتهى).

والواقع أن هذا الوصف ينطبق على الموقف العربي كله.

ويبدو أن الاستعانة بالبولشفيك ظلت تراود فيصلاً وصحبه بعد رحيله عن دمشق وتوقفه في إيطاليا بانتظار دعوة الإنكليز له إلى لندن، فإن رستم حيدر يذكر في الصفحة ٧٤٠ من مذكراته عن أحداث يوم الخميس ١٩٢٠/١١/٤ ما يفهم منه أن إحسان الجابري أحد مرافقي فيصل قد ذهب إلى سويسرا للاتصال بالبولشفيك الذين كان لهم رجال منتشرون في كل مكان فوجد أحدهم في زوريخ وجرى الاتصال به. وفي ذلك الوقت كان الصراع العسكري محتدماً في بولونيا وكانت موازين الحرب في غير صالح البولشفيك.

وعلى حد تعبير رستم حيدر: «ثم تثبطت الهمم بتوالي انكسار البولشفيك أمام بولونيا».

ويبدو أن هاجس البولشفيك ظل ملازماً لفيصل حتى وهو في طريقه إلى لندن لمقابلة الملك جورج والتمهيد لملكية العراق، فرستم حيدر يذكر في الصفحة ٧٤٧ عن أحداث يوم الأحد ١٠/٢٨/ ١٩٢٠ ما يلي:

«ركبنا في الباخرة إلى إنكلترا ولما وصلنا إلى (دوفر) ركبنا وسرنا إلى لندن...

على الطريق حديث مع كورنواليس: إيمان سيدنا (فيصل) برجوع البولشفيك. حقوق العرب».

ومن المعلوم أن ما كان يدونه رستم لا يعدو كونه رؤوس أقلام كان ينوي أن يفصلها بعد ذلك، ولكن حالت الأيام دون هذا التفصيل.

فذكره هنا إيمان فيصل (برجوع البولشفيك)، مقروناً بذكره (حقوق العرب) ذو دلالة واضحة.

وفيما دوّنه عن أحداث يوم الأحد ١٩٢٠/١٢/٥ بعد مقابلة فيصل للملك جورج، وما رواه فيصل بعد ذلك بأن الملك جورج أكد له أنه ليس ثم ما يستوجب القلق وأنهم وراءه بقوة.

وقول رستم حيدر:

«إن الرأي العام حسن للغاية وكل من اجتمع مع جلالته (فيصل) يوافق على معونة العرب. سياسة بريطانيا تحورت ولكن لم يحن وقت تظاهرها. أكبر عامل البولشفية».

ثم يشير رستم حيدر إلى الانتصارات التي عادت فحققتها البولشفية وتزايد قوة الأتراك الكماليين، وسقوط فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية(٩) وما سماه تحوّر فرنسا.

ثم يقول:

«الاستناد على العرب خير من غيرهم، لا يمكن ذلك إلاّ بمعاونتهم. ولكن إنكلترا لا تريد ذلك إلاّ في الأماكن التي لها عليها سيطرة. وأما مسألة سوريا فيريدون أن يتركوها الآن».

ويقول:

«... وهكذا السياسة مصالح. رأى الفرنسيس الاتفاق مع الأتراك ليحكموا العرب، وأما الإنكليز الذين أفلست سياستهم بمعاضدتهم اليونان فإنهم يميلون إلى الروس والعرب على الأتراك».

ثم يقول في موضع آخر:

«والموقف مساعد لأن سياسة فرنسا ضد سياسة الإنكليز، الأولى ترمي لمسالمة الأتراك علناً وضرب العرب وإخراج حتى اليونان. والثانية ترمي لقمع الترك وتأييد العرب واليونان. وهذا ظاهر من خطب ليغ ولويد جورج».

ثم يقول في الصفحة ٧٦٥ إن (فيليب كار) أرسل يقول:

«إن الوزارة قررت السير على سياسة عربية، ولويد جورج (رئيس الوزراء) يرتئي أن تعمل إنكلترا في العراق وشرق الأردن ضمن عهودها مع العرب وتترك فرنسا الآن في سوريا لأن مراجعة فرنسا على رأيه لا تأتي بفائدة. وأما كرزن (وزير الخارجية) فإنه يرتئي أن تراجع فرنسا أيضاً بمسألة سوريا بكل صراحة لأن إنكلترا متعهدة بالمدن الداخلية للعرب ولعلها تقبل بتأليف حكومة تضم الطرفين: العراق وسوريا، وإذا لم تقبل فتكون إنكلترا حرة عندئذٍ في أعمالها».

هذه النصوص التي قلنا إنها (رؤوس أقلام)، مجرد رؤوس أقلام، تخفي وراءها النص على تحولات كبرى في السياسة الإنكليزية، فبعد أن كان الإنكليز يتهربون من فيصل تاركينه فريسة المطامع

الفرنسية، وبعد أن كان وزير خارجيتهم يقنعه بالذهاب إلى باريس حالاً، ثم يوعز إلى سفيرهم في باريس بأن يثنيه عن العودة إلى لندن إذا حاول ذلك. وبعد أن تركوا فيصل ينتظر طويلاً في إيطاليا إلى حد اليأس حتى قال لرستم حيدر: إن بقائي هنا مشين، ماذا أفعل؟ وأظن أن الإنكليز لا يودون أن يفعلوا شيئاً في الظروف الحاضرة.. وكان يريد الذهاب إلى لندن، ولكنه لا يمكنه ذلك إذا لم توافق إنكلترا، وإنكلترا حتى الآن لم تبدِ موافقتها. ثم يتبدل الأمر فجأة وإذا بالإنكليز يدعونه لمقابلة الملك وصار الملك يعده ويمنيه، وصاروا يتحدثون عن إنصاف العرب في العراق وشرق الأردن.

هذا التحول كان لأن الدنيا بدأت تتحول لغير صالحهم، فالبولشفيك عادوا ينتصرون واليونانيون عادوا ينهزمون والفرنسيون يتقربون من الأتراك، فكان لا بد لهم من تبديل مخططاتهم وهذا ما كان.

لقد انهار اقتصاد بريطانيا في العامين ١٩٢٠ و١٩٢١ فتدهورت الأسعار وهبطت الصادرات وتوقفت أعمال الشركات واجتاحت البلاد بطالة واسعة النطاق على نحو لم تشهده من قبل، وأخذ السياسيون يتساءلون هل تستطيع بريطانيا أن تتحمل أعباء مغامرات السياسة الخارجية في أمكنة مثل فلسطين وبلاد الرافدين.

لقد أعلن لويد جورج أنه يستحيل على بلاده أن تبقي إلى ما لا نهاية على جيشها المؤلف من ١,٠٨٤,٠٠٠ رجل والذي يحتل الأمبراطورية العثمانية. ومع حلول صيف ١٩١٩ انخفض عدد الجيش إلى ٣٢٠,٠٠٠ رجل.

ليلة ١٤ ـ ١٥ حزيران/يونيو هاجمت قوات مصطفى كمال فوجاً

من القوات البريطانية قرب استنبول مهددة بذلك القوات التي تحتل العاصمة العثمانية.

لقد أثار هذا الهجوم التركي الفزع لا سيما أنه وقع بعد شهر واحد على إرسال مصطفى كمال بعثته إلى روسيا وبعد الهزائم التي ألحقها الكماليون بالفرنسيين في كيليكيا. فأبرق القائد البريطاني طالباً النجدات. فأقر رئيس هيئة أركان قوات الأمبراطورية في لندن بأن القوات الوحيدة المتوافرة للنجدة هي القوات اليونانية، وأنه يقترح على مجلس الوزراء الطلب إلى فرقة يونانية أن تساعده في الدفاع عن استنبول. وكان فنيزيلوس مستعداً لتقديم الفرقة بشرط أن يسمح الحلفاء لليونان بأن تتقدم من إزمير، وهذا من شأنه أن يتيح للجيش اليوناني الاستيلاء على الجيب الهام الذي يعتزم فنيزيلوس ضمه إلى اليونان.

أما لويد جورج فكان أكثر من مستعد، وفي ٢٠ حزيران/ يونيو اتفق رئيس الوزراء الفرنسي مع لويد جورج على السماح بتقدم يوناني محدود من إزمير. وهكذا شنّ اليونانيون في الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو هجوماً على ثلاثة محاور فاستولوا في أوائل تموز/ يوليو على سائر آسيا الصغرى حتى هضبة الأناضول. وفي أثناء ذلك شقت القوات اليونانية على الجانب الآخر للدردنيل طريقها عبر شرق تراقيا. قال لويد جورج المنتشي بالظفر: لم يعد لتركيا من وجود. وفي ١٠ آب/ أغسطس ١٩٢٠ وقّع ممثلو السلطان التركي وممثلو حكومته التي لا حول لها على معاهدة «سيفر». وقد قلّصت هذه المعاهدة الدولة العثمانية إلى ما يقرب من عدم الوجود وأعادت إلى اليونان أراضي آسيا الصغرى الساحلية التي كان اليونانيون قد استوطنوها قبل نحو ثلاثة آلاف سنة.

ولكن من يحمي معاهدة «سيفر» فالقوات البريطانية قد سرّحت، فتقرر بين لويد جورج وفنيزيلوس أن يتقدم الجيش اليوناني إلى داخل الأناضول للقضاء على الكماليين.

وفي موعد الانتخابات النيابية اليونانية، هزم فنيزيلوس وعاد إلى السلطة الزعماء الموالون لألمانيا المعادون للحلفاء الذين كان فنيزيلوس والفرنسيون قد أطاحوا بهم ونفوهم خلال الحرب.

ويصف رستم حيدر وضع الإنكليز يومذاك في حديثه عن وزير خارجيتهم كرزن كما يلي:

١ ـ أخفقت سياسته: في العجم بطل اتفاقه وانسحبت جيوشه منها.

٢ ـ في روسيا كذب وبدّل وحوّل إلى أن سافر كراسين[١٠] وكأنه أراد أن يقيد أعمال البولشفيك في بلادهم ويمنعهم من البرباغندا، وهي حياتهم.

٣ ـ في أرمينيا وآذربيجان وحتى في جورجيا، استولى البولشفيك على الأوليين، والثالثة تحت التهديد. وكان يريد أن يجعل من هذه الدول الصغيرة سداً يصد به البولشفية فتداعى على بانيه وانسحبت جيوش بريطانيا من باطوم.

٤ ـ في بولونيا مع البولشفيكية.

٥ ـ مع الأتراك واليونان وكأنه الآن يريد رتق الفتق الذي أحدثه في إزمير وهنا وهناك.

٦ ـ في العراق أحدث ثورة هائلة.

٧ ـ في مصر لم يجد لها حلاً نظراً لتعصبه.

٨ ـ الهند في ثورة مستمرة.

٩ ـ الأحوال مع الأفغان غير مرضية.

١٠ ـ العرب في سوريا وفلسطين يتهمون الإنكليز بالتخلي عنهم وبيع أملاكهم للصهيونيين.

١١ ـ في اليمن قامت قيامة الإمام عليها.

١٢ ـ الحجاز لم يوفِ بعهود بريطانيا معه والعرب غاضبون.

١٣ ـ كل هذا لأجل فرنسا وفرنسا ناقمة...

ثم يعقب على ذلك قائلاً:

> وأما المسائل الأوروبية فزملاؤه (يقصد وزراء خارجية الدول الأخرى) لا يحسبون له حساباً فيها...

ثم يقول:

> يتكلم كارزن جيداً وينظر إلى نفسه كإله فمن الصعب أن يدور ومن المستحيل أن يفهم إلاّ بالقوة، والحمد لله أن القوة في العراق أفهمته الوضعية ولولاها ـ كما يقول لورنس ـ لذهبت أقوالنا ومساعينا نحن محبي العرب أدراج الرياح.

ثم يقول:

> ذكر لنا سيدنا (فيصل) إن ثورة العراق كان لها تأثير عظيم وأنه صرف في سبيلها ٤٠ ألف ليرة (ذهبية).

نقول تعليقاً على ما ذكره رستم عن صرف فيصل ٤٠ ألف ليرة في سبيل الثورة العراقية ـ نقول:

> إن الملك فيصل بعد مجيئه للعراق روى لأحد زعماء الثورة السيد علوان الياسري، كما روى من قبل للسيد محسن أبو طبيخ أنه دفع إلى بعض العسكريين العراقيين الموجودين يومذاك في دمشق والمتصلين به مبالغ كبيرة من المال لإرسالها إلى الثوار. وبعد مجيئه

إلى العراق أراد أن يتحقق عن مصير تلك الأموال فتأكد له أنها قسمت بين الأصحاب في دمشق ولم يصل منها شيء للثوار.

وما كتبه رستم حيدر: كتبه ـ كما لا يخفى ـ قبل مجيء فيصل إلى العراق.

على أن الاستعانة بالبولشفيك إذا كانت قد ظلت يومذاك مجرد فكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ، فقد جرت بعد خمس سنين من هذه الأحداث عند قيام الثورة السورية سنة ١٩٢٥ محاولة للاستعانة بالبولشفيك قطعت شوطاً عملياً ثم توقفت، وهي على ما يروي عجاج نويهض في مذكراته في الصفحة ٦٦ جرت على الشكل التالي:

يقول عجاج نويهض وهو يتحدث عن صلته برشيد طليع والتقائه به في القدس حيث كان يعمل عجاج:

الحادثة الأولى تتلخص في محاولة رشيد طليع الحصول على السلاح من البولشفيك. ولم يكن الاسم الشائع عن روسيا إلاّ الشيوعية أو البولشفيك، لا الاتحاد السوفياتي. ولا أدري كيف استطاع رشيد الاتصال بـ(الشيوعيين) في فلسطين، ولا أنا سألته على ما بيننا من صلة واشجة، وعلى الرغم من وجودنا معاً طوال إقامته بالقدس، ولم يكن يخفي عني شيئاً من الأسرار كبيرها وصغيرها، لكنني فعلاً لم أسأله.

قال لي ذات صباح: سيأتي رجل من تل أبيب يهودي يحسن العربية ليراني، وقد دللته على عنوان (البنسيون)، وهناك موعد بيني وبينه اليوم، فأنا باقٍ هنا اليوم للقائه. لم أسأله السبب في مجيء هذا الرجل، وإنما نبهت صاحبة البنسيون إلى أنه إذا جاء أحد يريد مقابلة رشيد بك، فلتدعه يدخل. وكان وقت رجوعي من عملي لا يكون قبل الثانية بعد الظهر. فلما أتيت، قال لي: إن إبراهيم أتى، وعقد اجتماعاً معه، وسيأتي مرات أخرى. وهنا لم أر نفسي إلاّ وقد دفعني

الفضول لأسأله: «ما قصد هذا اليهودي؟». فقال لي: هذا يهودي في الظاهر، وإنما هو شيوعي عميق في الروح الشيوعية، لا تهمه اليهودية، ويتظاهر بها كي لا تشك به الحكومة فتعتقله، وأتى إليَّ اليوم لأول مرة في البنسيون، ولكن سبق لي الاجتماع به في القدس مراراً. وإني ـ لا أخفي عليك ـ ابتغي من وراء مخابرة البولشفيك الحصول على مساعدة الثورة في السلاح، واصلاً إلى إحدى موانىء الحجاز، ونحن علينا نقله من هناك إلى جبل الدروز. وإبراهيم هذا صلاحياته محدودة في المفاوضة، ولكنه اتصل بمرجعه الأعلى في روما. وبعدئذٍ اتفقنا على أن يحضر من روما مفوض شيوعي له الصلاحية المطلقة في الاتفاق. وسيعود إبراهيم في الأسبوع المقبل.

جاء الأسبوع المقبل، وجاء إبراهيم وأخبر طليعاً أن المفوض قد حضر. فطلب طليع أن يأتي هذا المفوض إلى القدس فيجتمع إليه في البنسيون. فجاء وعقد الاجتماع في البنسيون بين رشيد والمفوض وإبراهيم، ودام عدة ساعات. قال لي رشيد فيما بعد:

إن المفوض وافق تمام الموافقة على المساعدة بتقديم السلاح على الطريقة التي عاملوا بها مصطفى كمال في حرب الأناضول، والسلاح يوصلونه إلى إحدى موانىء الحجاز. لكن المفوض الشيوعي وضع شرطاً لم يتزحزح عنه شعرة، وهو أن تطبق في الثورة مبادىء الشيوعية.

فقلت له ـ يقول رشيد:

إنكم لم تشترطوا على مصطفى كمال هذا الشرط، ونحن ليس في وسعنا، بل ليس في مصلحتنا القومية المناداة بالشيوعية في جبل الدروز، أو في أي مكان آخر في سوريا. ووقف الاتفاق بين رشيد طليع والبلاشفة عند هذا الحد. أما إبراهيم فلم يقطع أمله، وظل يتردد نحو شهر لكن بلا جدوى (انتهى).

عودة فيصل

عاد فيصل بعد غياب في باريس دام خمسة أشهر فوصل بيروت في ٣٠ نيسان/ أبريل سنة ١٩١٩، فاستقبل فيها استقبالاً باهراً ساهمت فيه وفود من جميع المناطق السورية واللبنانية فخطب في مستقبليه خطاباً قال فيه: الاستقلال يؤخذ ولا يعطى.

ثم أذاع بياناً في اجتماع صحفي أعلن فيه النية في إقامة المؤتمر السوري الذي سيتمثل فيه الشعب السوري، والإصرار على الاستقلال الكامل وحرض على وحدة الصف.

ثم مضى إلى دمشق حيث وافته إليها وفود من كل مكان، فدعا إلى اجتماع عام في دار الحكومة برر فيه قيام الثورة العربية وشرح ما قام به في باريس من توضيح القضية العربية والدفاع عن سوريا بحدودها الطبيعية، ثم استفتى الحاضرين فيما إذا كانوا مؤيدين لما قام به، وإذا كانوا يوافقون على أن يدير الحكومة بسياستها الداخلية والخارجية. فأجابوا جميعاً بالإيجاب.

وكان العزم منصباً على انتخاب مجلس نيابي، ولكن صرف النظر عن ذلك لأن الانتخاب لا يمكن أن يكون عاماً مع وجود الاحتلال الإنكليزي في فلسطين والفرنسي في الساحل. لذلك أرتئي أن تجري الانتخابات من قبل الناخبين الثانويين الذين انتخبوا نواب مجلس المبوعثان العثماني. فاجتمع نواب بيروت ومناطق جبل عامل وطرابلس واللاذقية وجميع مدن فلسطين مع نواب المنطقة السورية المستقلة.

وافتتح المجلس الذي سمي: المؤتمر السوري العام في السابع من حزيران/ يونيو سنة ١٩١٩ في دمشق، وقال الأمير فيصل في خطابه بافتتاح المؤتمر إن إحدى مهمات المؤتمر سن دستور للبلاد.

ثم تلقى الأمير فيصل برقية من رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج يدعوه فيها إلى أوروبا. فاستجاب الأمير للدعوة وتوجه مع مرافقيه في القطار إلى حيفا وأبحر منها على نسافة بريطانية قاصداً مرسيليا، وكان من المفروض أن يصل باريس في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩١٩ ولكن المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والإنكليزية لم تكن قد انتهت، وكانت فرنسا غير موافقة على اشتراك فيصل في هذه المفاوضات، فأُوعز للنسافة وهي في عرض البحر أن تتباطأ في السير، وعرّجت لهذا الغرض على مالطة بدعوى احتياجها لبعض الإصلاح وللوقود، فلم تصل مرسيليا إلاّ في ١٨ أيلول/سبتمبر بعد أن تمّ الاتفاق بين الفرنسيين والبريطانيين على الأمور المختلف عليها بينهم. وصدر بلاغ في ٧ أيلول/ سبتمبر يعلن الاتفاق بأن تحل القوات الفرنسية محل القوات الإنكليزية في سوريا وكيليكيا باستثناء المدن الأربع: دمشق وحمص وحماه وحلب التي تظل فيها القوات العربية، وتضم الأقضية الأربعة: البقاع (المعلقة) وبعلبك وحاصبيا وراشيا التابعة للمنطقة الشرقية منطقة القوات العربية ـ تضم إلى المنطقة الغربية منطقة الاحتلال الفرنسي.

ويذكر رستم حيدر في مذكراته عن يوم ١٩١٩/٩/١٦ أنهم ذهبوا صباحاً إلى محطة ليون لاستقبال الأمير فلم يجدوا أحداً، ويتساءل رستم عن سبب مجيء الأمير، ثم يستنتج استنتاجاً سليماً قائلاً: إني أعتقد أن القصد كان أن يحضر مذاكرة لويد جورج وكليمانصو.

ثم يبدي استغرابه من عدم وصول الأمير في الوقت المعين قائلاً: أظن هذا التأخير ناشئ عن أمر خصوصي ستكشفه لنا الأيام.

ولم يكن يعلم أن إصرار الفرنسيين على عدم مشاركة الأمير في

المفاوضات هو هذا الأمر، ولم يكن أمراً خصوصياً، بل أمراً مدبراً لا بليل بل بنهار.

ثم يذكر سفر لويد جورج، ويتساءل كيف هذا السفر قبل وصول الأمير؟

ثم يعود إلى استنتاج سليم قائلاً: أظن تأخر الأمير مبنياً على أمر خصوصي بعد أن تقرر ما تقرر، وكأن الحكومة الفرنسوية لا تريد حسب جرائدها أن تفاوضه بل طلبت أن تنحصر المذاكرات بينها وبين إنكلترا إذ لا علاقة لها بالأمير.

ويبدو أن سفر لويد جورج إلى لندن قد بلغ الأمير، فلم ير فائدة في التعريج على باريس، لذلك اتخذ طريقه في القطار إلى (بولوني)، والانتقال منها إلى لندن.

وفي لندن التقى الأمير فيصل كلاً من رئيس الوزراء لويد جورج ووزير الخارجية (كرزن) والجنرال اللنبي مجتمعين فأطلعوه على ما اتفقوا عليه مع الفرنسيين وأن الجنرال اللنبي سيوضح له خطة انسحاب الجيوش الإنكليزية وانتشار الجيوش الفرنسية.

فاحتج الأمير فيصل على ذلك وقال إن هذا تطبيق عملي لمعاهدة سايكس - بيكو المناقضة لما اتفق عليه والده باسم العرب ومكماهون باسم الإنكليز شرطاً لقيام الثورة العربية، وهو استقلال البلاد العربية من شمالي إسكندرون حتى المحيط الهندي ما عدا معاملة خاصة للبصرة وعدن.

وأبرز لهم صورة عن المعاهدة المتضمنة لذلك، فلما اطلع عليها لويد جورج أبدى حيرته وشكك في وجود مثل هذه المعاهدة في وزارة الخارجية، وبهذا النص بالذات، وقال إن مكماهون نفسه لا يتذكر أنه وقّع على معاهدة بهذه الصورة.

وهكذا بدأ الإنكليز يتنصلون من وعودهم. فأرسل الأمير فيصل برقية إلى والده ليزوده بالوثائق والنصوص، وبعد وصولها أرسل مذكرة مفصلة إلى لويد جورج ضمنها ما وصله من والده، محتجاً على اتفاق ١٥ أيلول/ سبتمبر بين إنكلترا وفرنسا، قائلاً إن اتفاق سايكس ـ بيكو يدخل ضمن المعاهدات السرية التي قرر الحلفاء إلغاءها، وإن العرب يرفضون الاعتراف بأي اتفاقية تعقد دون إطلاعهم.

ثم قابل الأمير الثلاثة: لويد جورج وكرزن واللنبي مجتمعين، فقال لويد جورج إن هذه اللائحة موقتة، وإن إنكلترا مضطرة لسحب جيوشها من القفقاس ومن سوريا خفضاً للنفقات.

وراح كرزن يمن على العرب بأن الإنكليز أرسلوا مليوناً من الجنود ولولا الحلفاء لبقي العرب محكومين من الأتراك، وأنه بينما كانت إنكلترا تحارب في الشرق كانت فرنسا تحارب في الغرب فليس من العدل أن لا يراعى جانبها وتحفظ منافعها.

فرد عليه الأمير فيصل قائلاً: إن فرنسا كانت تقاتل دفاعاً عن بلادها وصد الهجوم الألماني عليها، والعرب كانوا يقاتلون لاستقلال بلادهم، فكيف يسمح لفرنسا أن تحتل بلادهم، وهي التي دفعت الألمان عن بلادها، والعرب لا يطلبون إلاّ حقوقهم وقد كانوا حلفاء الحلفاء، والإنكليز يعرفون ما فعل العرب في الحرب وأثرهم في تحقيق النصر، وإذا كانوا قد خرجوا من حكم الأتراك فهل كان ذلك ليدخلوا في حكم أجنبي آخر؟!

وذكّر فيصل اللنبي بأنه هو الذي أجبر القوة العربية التي ذهبت إلى بيروت بقيادة شكري الأيوبي ـ أجبرها على الانسحاب من

بيروت، وأنه إذا كان لا بد من تغيير فيجب أن تعود القوة العربية إلى ما كانت قد احتلته في الساحل.

فانفرد الثلاثة عن فيصل والتقوا مجتمعين ليتذاكروا في جواب المذكرة، ثم عادوا قائلين إنهم سيردون على مذكرة الأمير بمذكرة خطية.

كان ذلك في ٢٣ أيلول/ سبتمبر وطال انتظار فيصل وصول جواب مذكرته، فأرسل في ٧ تشرين الأول/ اكتوبر مذكرة جديدة تأكيداً لمذكرته الأولى وتذكيراً بها.

وفي ١١ تشرين الأول/ اكتوبر جاء جواب المذكرة من كرزن، وفي هذا الجواب يقول إنه لا بد من انسحاب الجيش الإنكليزي ليحل الجيش الفرنسي محله، وينصح العرب بالتفاهم مع فرنسا لأن عواقب الحرب معها عواقب وخيمة. كما أرسل لويد جورج إلى فيصل جواباً على مذكرته متنصلاً من الاتفاقات السابقة مصراً على انسحاب الجيش الإنكليزي وتأليف لجنة من فيصل ومن مندوب إنكليزي وآخر إفرنسي برئاسة أميركي للنظر فيما يترتب على هذا الانسحاب.

ولكي يؤكد الفرنسيون تصميمهم العسكري الحاسم اختاروا مفوضاً سامياً عسكرياً شرساً هو الجنرال غورو ليحكم البلاد ويكون قائداً للجيش الفرنسي فيما بيد فرنسا في الشرق من مناطق.

وبعد مقابلة بين فيصل ولويد جورج وكرزن قبل فيصل بتأليف لجنة منه ومن المرشال اللنبي والجنرال غورو والجنرال الأميركي ويلسون لدراسة الوضع بعد الانسحاب الإنكليزي على أن يترك أمر الحل إلى مؤتمر الصلح.

ويرى رستم حيدر في مذكراته أن عدم القبول بذلك كان مؤداه إعلان الحرب على فرنسا.

ومما يذكر من أحداث تلك الفترة أنه جرى تداول بين بعض الأطراف على توحيد العراق وسوريا على أن تكون العاصمة دير الزور ويبقى لبنان خارج هذه الوحدة.

وراح الإنكليز يحاولون التملص من إحراجات فيصل لهم في لندن، فاستدعاه وزير الخارجية كرزن إلى وزارة الخارجية وأقنعه بقبول الدعوة الموجهة إليه للذهاب إلى باريس حالاً، دون أن يصحبه أي إنكليزي، ودون أي شيء يدل على إيحاء أو تأييد بريطاني، لمقابلة رئيس الوزارة الفرنسية كليمانصو.

وخوفاً من أن يعود فيصل إلى لندن بادر كرزن بالكتابة إلى السفير الإنكليزي في باريس طالباً منه أن يثني فيصل عن العودة إلى لندن إذا حاول ذلك.

وبهذا نفض الإنكليز أيديهم من الأمر العربي نهائياً، وتنكروا لعهودهم وغدروا بمن وثقوا بهم، وتركوا فيصل يواجه المطامع الفرنسية وحده(١١)!

والفرنسيون الذين كانوا يعرفون ذلك لوّحوا لفيصل بالقوة حين اختاروا عسكرياً متعصباً جباراً مثل غورو ليقابلوا به فيصل في سوريا...

وبهذا كان فيصل في أحرج موقف وأشأم موقع، ما يهدّ عزائم الرجال!

ففي الوطن أمة ترى أنها خارجة من الحرب منتصرة مع حلفائها المنتصرين بعد أن قاتلت ما وسعها القتال، لا ترى ثمرة لهذا النصر إلاّ استقلالها غير المنقوص، وهي أودعت إلى فيصل متابعة جني

هذه الثمرة، فهو مؤتمن على ذلك لا يستطيع التفريط بهذه الأمانة.

لا سيما وقد كان هو نفسه قائد تلك الأمة في نضالها العسكري ومعاركها الحربية، وهو اليوم قائدها في النضال السلمي.

وهو هنا يرى نفسه بين وحوش مفترسة، تخلى عنه من كان يوقن بتعضيده، وكشر عن أنيابه من يريد افتراس وطنه!

ولا يملك ما يدفع به عن هذا الوطن إذا جدّ الجد، إنه أعزل بلا سلاح يذكر في مواجهة من هزم سلاحهم أعتى سلاح: سلاح الألمان!

وصل إلى باريس في العشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٩ فكان في استقباله الجزائري المتفرنس ابن غبريط ومندوب باسم وزير الخارجية هو (برجرون) معاون (غو) السكرتير المساعد لشؤون آسيا في وزارة الخارجية، والملحق العسكري في السفارة الإنكليزية.

وفي ٢٢ من الشهر نفسه التقى كليمانصو، ودام اللقاء من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة والنصف.

وهذا أهم ما دار فيه:

بدأ الأمير معاتباً بأنه لم يسمح له بأن يقابل كليمانصو أثناء مروره من باريس إلى لندن. فرد كليمانصو بأنه لم يطلب أن يتوقف الأمير في باريس لعلمه بأنه كان يلبي دعوة لويد جورج إلى لندن.

فقال فيصل بأنه حين توجه من دمشق كان مصمماً على أن يمر بباريس، ورد كليمانصو بأن لويد جورج لم يستشره حين استدعى الأمير من سوريا ثم طلب إليه أن يذهب تواً إلى لندن من غير توقف في الطريق. واسترسل قائلاً: بأنه رفض طلب الإنكليز إرسال الجنرال غورو إلى لندن، لأن غورو عسكري وليس له أن يشارك في المفاوضات السياسية.

وهنا تساءل فيصل عما إذا كان هو بنظر كليمانصو عدواً أم صديقاً؟ فقال كليمانصو انه عندما فارقه في المرة الأولى عائداً إلى سوريا لم يكن في نفسه عنه إلاّ كل شيء حسن لا أحسن منه، ولكنه تعجب كل التعجب عندما بلغه أن الأمير فضّل الإنكليز وقدّم لهم الوصاية على سوريا[١٢].

فرد فيصل: إنني عندما فارقتك وعدتني بأنك ستعلن استقلال سوريا باسم فرنسا، وأكدت أنا بأنني سأسعى جهدي لتأييد منافع فرنسا وتوطيد علائق سوريا بها، وهذا الكولونيل (وأشار إلى الكولونيل تولا)[١٣] يشهد على ذلك. وبعد انتظار ثلاثة أشهر جاءني المسيو (بيكو) وقال إن الرئيس كليمانصو لا يمكنه أن يؤيد استقلال سوريا باسم فرنسا ولا أن يؤلف حكومات محلية وطنية في الساحل. وكنت قد صرفت جهدي في استمالة الأفكار نحو فرنسا وأستطيع القول إن الأفكار العامة كانت متجهة هذا الاتجاه لولا أن تبدل الأمر فأضعفت قواي وتمّ ما تم.

فقال كليمانصو: أنا لم أنتدب المسيو بيكو لهذه المهمة، ثم اتجه نحو المسيو برتلو[١٤] وخاطبه قائلاً: هل هذا صحيح؟ هل ذهب إليه بهذا الخصوص؟

فأنكر برتلو ذلك، ولكنه أقر بأن ذلك مستنتج من المعلومات العامة المرسلة إليه إذ ليس في إمكاننا أن نؤلف حكومات وطنية على خلاف رغبة الأهلين.

فأدرك الأمير فيصل أن برتلو يقصد بهذا القول لبنان، فرد على برتلو قائلاً: أنا لم أقصد في كلامي هذا لبنان لأن لبنان مستقل وسيبقى مستقلاً دائماً، وإنما قصدت البلاد الساحلية الخارجة عن حدود لبنان الحالية مثل بيروت وطرابلس واللاذقية.

فرد برتلو بأن بيروت ضمن لبنان.

فقال الأمير: إن بيروت ليست ضمن لبنان في حدوده الحالية، وأما في المستقبل فينظر في ذلك.

فطلب كليمانصو من الأمير أن يسترسل في تبيان أفكاره.

فمضى الأمير قائلاً: إن أعمال الموظفين في الساحل كانت سيئة جداً، فكيف يمكن لعامة المسلمين أن لا تستاء من تلك المظاهر التي كانت تجري على مشهد من الجميع(١٥).

فقال كليمانصو: ولكن ما هي مسؤولية الحكومة الفرنسية في هذه التظاهرات وهل يمكنها منعها؟

فرد الأمير كيف لا يمكن ذلك والإدارة فرنسية في الساحل؟!

فقال كليمانصو بأن لا علم له بحقيقة هذه الأمور.

فقال فيصل: لذلك لا أريد أن يحكم عليَّ غيابياً.

فرد كليمانصو: ومن هو الذي يحكم عليكم اني لم أقل بذلك أبداً.

فقال الأمير: إن الناس يتقولون بأني عدو لفرنسا.

فرد كليمانصو قائلاً: أريد أن أفهم من الأمير ما هي وضعيتنا المتقابلة.

فقال الأمير: أقسم بشرفي أن إحساساتي لم تتغير نحو شخصكم.

فرد كليمانصو: أريدها غير متغيرة نحو فرنسا أيضاً.

فقال الأمير: ونحو فرنسا أيضاً.

فطلب كليمانصو تقريراً مكتوباً يوضح المطالب، وبناء عليه يقرر ما يجب تقريره. إنه يساند رغائب العرب، ومع أن الإنكليز حلفاء فهو لا يريد أن ينشغل معهم بها، فعلى الأمير أن يتفاهم معهم بشأنها، ويتفاهم مع فرنسا بما يخصها.

فرد الأمير بأنه يعنى بالأمر العربي كله، وهو لا يدري ما هو مطلوب منه تجاه فرنسا، لذلك يطلب إيضاح ذلك.

فأشاد كليمانصو بالعرب وتاريخهم ومدنيتهم، وقال إنه بعيد عن كل ما يرمي إلى الفتح والاستعمار، وإنه يريد أن يكون مع الأمة

العربية التي يحترمها، وأنه أمضى سبعين سنة وهو يكتب وينتقد، فهل يستطيع أحد أن يأخذ عليه أنه أساء مرة إلى الإسلام؟ فقال الأمير إن هذه السياسة إذا طبقت لا يمكن أن تحدد منافعها في الشرق.

فرد كليمانصو بأن ذلك لا يتم إلاّ إذا كانت الثقة متبادلة. وعلينا أن لا نبدل سياستنا لأن (اللنبي) لعنه أفراد في الأزقة.

فقال فيصل إن ذلك جرى يوم ١٤ تموز/يوليو في عيد الحرية وفي مظاهرات عظيمة على مشهد من الجماهير. ثم إن أئمة المساجد منعوا من الدعاء لوالدي مع أن هذا من حقوق المسلمين التي ليس لأحد أن يتدخل فيها. فرد كليمانصو بأن هذه نتيجة الفوضى.

فقال فيصل: إن تبعة هذه الحوادث ليست عليَّ.

فرد كليمانصو بأنه يتعهد باحترام المسلمين في كل مكان.

فقال فيصل: إن برنامج الانسحاب الإنكليزي هو تطبيق لمعاهدة سايكس ـ بيكو وهو تجزئة للبلاد.

ثم قال فيصل وهو يهم بالخروج مودعاً كليمانصو: إذا لم يتم الاتفاق فلا يبقى سبب لبقائي في باريس ويكون عليَّ أن أغادرها حالاً. (انتهى)

بين فيصل وغورو

كنا قد ذكرنا فيما تقدم من القول إن الحكومة الفرنسية اختارت عسكرياً شرساً متعصباً ليكون مفوضاً سامياً لها فيما تحتله وتطمع باحتلاله وليكون في الوقت نفسه قائداً لجيوشها. ولما عزم غورو على السفر إلى بيروت جمعه المسيو برتلو في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، على مائدة غداء مع الأمير فيصل، فالتقى الرجلان

اللذان سيكونان عما قريب العدوين المتقابلين، الأول يمثل الأماني العربية في استقلال سوريا ووحدتها، والثاني المهدد لهذا الاستقلال ولهذه الوحدة، فدار بينهما حوار طويل بدا فيه الجنرال غورو على حقيقته، وأظهر في عبارات منمقة ما ينويه وما هو عازم عليه من استعمال السلاح وتحكيم القوة.

لقد بدأ الجنرال غورو حديثه بإظهار الود للأمير وللمسلمين والقول بأن فرنسا ليست مستعمرة وأنها تود أن تكون أختاً كبيرة لسوريا التي هي أختها الصغيرة.

فشكره فيصل على عواطفه نحوه ونحو المسلمين، ثم شرح له الحال وأن ما يجري هو مقدمة لتجزئة البلاد وتطبيق معاهدة سايكس ـ بيكو.

فقال غورو: إنه عسكري وأن عليه أن يقوم بوظيفته وأنه يجهل ما يجري، وقد أرسل برقية إلى الضباط الفرنسيين ذكّرهم فيها أن الجيش العربي هو حليفهم وحارب معهم، وطلب إلى الأمير أن يفعل ما فعل هو.

فرد فيصل ملوحاً بالمقاومة بعد تلويح غورو بعسكريته قائلا: إن هذا الجيش الذي حارب بالأمس معكم ولأجل المبدأ نفسه الذي حاربتم أنتم من أجله لا يحل لكم أن تهرقوا دماءه. ربما توصلتم إلى سحقه، ولكنني أسألكم ألا يتوجع قلبكم بسحقكم جنداً يدافعون عن بلادهم وأنتم تعلمون قيمة الدفاع عن الوطن، وقد كان هذا الجند يقاتل معكم بالأمس.

فقال غورو إن هذا يؤلمه لذلك هو يطلب إلى الأمير أن يحول دون وقوع سوء التفاهم. والمسألة هي عسكرية بحتة، ومؤتمر الصلح سينظر في هذا الأمر مع غيره من المسائل الشرقية.

فرد فيصل: نعم، إن المسألة عسكرية، وقد بينت لكم ما ينتج عنها من المسائل التي لا يمكن أن يقبلها الشعب. وأما المؤتمر فقد قيلت فيه أقوال لا ريب فيها ثم أولت هذه الأقوال. والشعب عندما يرى بلاده تجزأت سيثور.

وجرى جدال ختمه غورو بقوله: لا بد من القيام بوظيفتي العسكرية، وما أطلبه أن لا يحدث ما يعكر الصفو وإني أعتقد أن الاحتفاظ بالسكينة يزيد في ثقة المؤتمر، ويكون سبباً لتأييد مطالبكم ونجاح سياستكم في المستقبل. أما إذا لُعب بالنار فلا مجال عندئذٍ لتلافي الأمر.

فكان جواب الأمير: إني لم أر هنا أذناً مصغية، وجل قصدي أن أحول دون ما يوقع قتالاً في الشرق لأني أعرف عواقب ذلك، ولكن لم يقع قولي موقع الاعتبار، وأنا لا أتكلم بلساني، بل أترجم عاطفة الشعب، فقال غورو إنه شخصياً لا يمكن أن يدحض بيانات الأمير، ولكن صفته لا تسمح له بأن يبدي رأيه كاملاً، فهو يرجو أن لا يحدث ما يثير النار لأنه يصعب عند ذلك توقيف الحالة.

فرد فيصل بأنه بذل كل ما لديه من الوسائل ليطمئن فرنسا على منافعها ويؤمن لأمته حريتها واستقلالها فلم يجد الثقة التي كان ينتظرها، وها أنا ألقي المسؤولية عن عاتقي وأضعها على عاتق المؤتمر وعلى ذوي الصلاحية السياسية من رجالكم. وعلى كل أشكركم على عواطفكم السياسية وأتمنى لكم سفراً طيباً.

وقد تدخل برتلو في الحديث فقال: بدون تضحية من الطرفين لا يكون اتفاق، وهذه سنة الكائنات، فقال الأمير: نعم، ولكن يجب أن تكون التضحية متناسبة مع اقتدار كل شخص، فمن الناس من

إذا ضحى بقرش واحد يقع في البؤس، ومنهم من إذا ضحّى بالألوف لا يؤثر ذلك عليه.

وهكذا افترق الرجلان عدوين لدودين ليتوعد كل منهما الآخر. فيصل يتوعد بالإصرار على طلب الوحدة والاستقلال والدفاع عنهما في وجه من يغتصبهما، وغورو يتوعد بعسكريته التي لا تفهم إلاّ قعقعة السلاح!

وفيصل يقر بقدرة عدوه على سحق جيشه، وغورو يقر بأنه لا يتردد في سحق هذا الجيش ويهدد اللعب بالنار!

وإذا كان العدوّان قد التقيا في باريس وجهاً لوجه، على لذائذ الطعام المريء فتصاولا بلاغة وفصاحة، متكافئي السلاح، فقد عادا والتقيا مرة أخرى على روابي ميسلون وجهاً إلى وجه أيضاً، يمثل وجه كل منهما جيشه، فتصاولا حديداً وناراً ولكن غير متكافئي السلاح.

وحقق غورو وعيده فسحق بجيشه الكبير الجيش الصغير.

غورو في بيروت

في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر كان الجنرال غورو يسافر إلى بيروت يجر وراءه ما يجر من عديد وعدة، ولم يلبث بعد ذلك فيصل أن سافر هو الآخر لا يجر وراءه ولا يقدم أمامه سوى الخيبة!

في لقاء آخر بين فيصل وكليمانصو في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٩ قال كليمانصو لفيصل: إن ورائي جيشاً من الصليبيين على أنني لست صليبياً ولكن لا يمكنني مناهضتهم فوراً.

ولا شك أن غورو كان من أعرق أولئك الصليبيين صليبية، وقد فرضه الصليبيون الذين عناهم كليمانصو.

وعندما وصل غورو إلى بيروت وأمسك بزمام الأمر لم يتوانَ عن الجهر بصليبيته وتطبيق تلك الصليبية. فقد نشرت جريدة «البرق» في عددها المؤرخ في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٢١ خطاباً للجنرال غورو خلال زيارته أرز لبنان، ألقاه في دير البلمند قال فيه:

«دعوني في البدء أن استعيد وإياكم تلك الذكريات العظيمة التي ترف فوق هذا الدير القديم دير البلمند، أما هو عمل آبائي الصليبيين الذي قاوم الدهر واخترق الأجيال وصنعهم المجيد الذي كوّنه ولا يزال حياً هتاف هذا الشعب وأناشيده المطربة».

ومن الصليبيين الذين استعان بهم غورو في بيروت وكان لهم أثرهم في توجيه سياسته الفكرية والثقافية، بل كانوا من أركان حكمه: الأب «لامنس» اليسوعي الذي وصفه الأب فردينان توتل اليسوعي في مقال له في جريدة «النهار» البيروتية في عددها الصادر في ٢٠ أيار/ مايو سنة ١٩٨٧ بما يلي:

«كتب الأب هنري لامنس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) عن رجال الحملات الصليبية فذكر (الفَلمند) أجداده من شدّوا الرحال إلى الأراضي المقدسة جنوداً وأمراء، وخرجوا من سهول الشمال البلجيكي فهجروا الآل وتركوا المال وتغربوا ووجههم الجهاد في سبيل الله واليوم الآخر.

إن تلك العاطفة النبيلة التي دفعت السواد الأعظم من رجال الغرب إلى قبر المسيح إنما هي التي دبت في قلب الفتى وأوحت له التضحية بحياته وبما فيها من مواهب منّ بها الرحمن عليه ليسير جندياً لا بالسيف والرمح شأن الصليبيين ولكن بالقلب فيفتح فتوح العلم في الخامسة عشرة من عمره».

وهكذا ـ كما يقول الأب فردينان توتل اليسوعي عن زميله في اليسوعية لامنس ـ إذا كان قد فات لامنس أن يحمل السيف

والرمح كما حملهما أجداده الفلمند البلجيكيون حين تجندوا في الحروب الصليبية، فقد حمل القلم في حرب القرن العشرين الصليبية التي قادها الجنرال غورو على سوريا والعرب والسوريين(١٦).

الهوامش

(١) جورج بيكو: هو الذي عيّنه الفرنسيون مفوضاً سامياً لهم في بيروت وأحد صاحبي المعاهدة التي سميت باسميهما (معاهدة سايكس - بيكو).

(٢) في أواخر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٨ خطب المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسية في مجلس النواب الفرنسي خطبة أعلن فيها نوايا فرنسا، فكان مما قاله:

«إن لفرنسا حقوقاً في سوريا ولبنان نشأت عن التقاليد التاريخية. وإن هذه الحقوق قائمة أيضاً على آمال ورغائب السكان الذين هم زبائن فرنسا من زمن طويل».

هذا هو الجو الذي كان ينتظر الأمير فيصل وهو يركب البحر في طريقه إلى فرنسا في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٨.

ومن المفاخر الشيعية أن شيعة العراق عندما بلغتهم تصريحات الوزير الفرنسي هذه، اجتمع رجال الدين وزعماء العشائر منهم في دار المرجع الديني الكبير الشيخ مهدي الخالصي وقرروا الاحتجاج على هذه التصريحات وأرسلوا احتجاجهم إلى الحكومة الفرنسية وحكومة الحلفاء. وهذا نصه:

إن الخطاب الذي ألقاه مؤخراً مسيو بيشون ناظر خارجية فرنسا في مجلس النواب الفرنسي والذي أظهر فيه أن للأمة الفرنسية حقوقاً في سوريا ولبنان نشأت عن التقاليد التاريخية وأن هذه الحقوق قائمة أيضاً على آمال ورغائب السكان الذين هم زبائن فرنسا منذ زمن طويل وأن المعاهدات السابقة التي وردت بها هذه الحقوق ما زالت كما كانت عليه وأن يكون لمؤتمر السلم القول الفصل.

نحن العراقيين بصفتنا عرباً ويهمنا ما يهم سوريا ولبنان لا نعتقد بأن لأمة من الأمم في بلادنا العربية حقوقاً قديمة ولا حديثة. ولم تكن الصلات التجارية المؤسسة على حرية التجارة بين الشعوب وفقاً لقوانين حقوق الدول سبباً يكسب البلاد المتاجرة حق الأرجحية في البلاد على أهلها والتصرف بحريتهم الوطنية واستقلالهم الذاتي. ولما كانت كل تصريحات رجال الدول العظمى ونخص بالذكر منهم رئيسي الولايات

المتحدة المشهور تفيد أن غاية الحرب الكبرى هي تحرير الشعوب وسخ كل سياسة دولية يقصد منها تقييد حرية الأمم واتحاذ شكل لها يخالف إرادتها، نحن كأمة قامت تطالب باستقلالها وتهرق دماء أبنائها وتضحي بزهرة شبابها على مجازر الظلم في سبيل استقلالها وقامت تنتصر للحلفاء أيام كانت الحرب غير باسمة لهم وعلى الخصوص في الساحات الشرقية نأبى كل معاهدة عقدت بشأننا من هذا القبيل بين دولة وأخرى ونعتقد اننا محونا بدماء أبنائنا كل معاهدة أو اتفاق أو مفاوضة جرت بدون معرفتنا.

هذا وليست الأمة العربية أقل مجداً تاريخياً أو حضارة زاهرة أو جدارة بالاستقلال من الأمم اليونانية والصربية والبلقانية والرومانية والجبلية (يعنون بها دولة الجبل الأسود) وغيرها من الدول التي أجمع الحلفاء في أشد أزمات السياسة الدولية على إجابة مطالبها الاستقلالية ولم تبذل تلك الدول أكثر مما بذلنا ولا كانت عند استقلالها أعظم رقياً منا.

فنحن بناء على ما أوردناه من الحقائق المعروفة بالبداهة لدى مقامكم المعظم واستناداً إلى بيانات ووعود رجال الدول العظمى العلنية التي اتخذناها واتخذها العالم بأجمعه سنداً، نحتج على البيانات التي أوردها ناظر خارجية فرنسة المحترم ونطلب باسم الحرية والإنسانية اللتين دعتاكم لتحرير اليونان اعترافاً بحضارتها القديمة ومجدها الغابر أن تعضدونا في هذا الأمر الحيوي لأن تاريخنا من الحضارة والعظمة والمجد ما يدعوكم لنجدتنا ومعاضدتنا في طلب حقوقنا الطبيعية التي يرمز إليها علمنا العربي الذي نستظل بظله الآن فرحين.

وبالختام اقبلوا فائق احترامنا.

(٣) لم يكن أمين إرسلان وفارس الخوري موجودين في باريس، وإنما كان يراد استدعاؤهما ولم يتم ذلك.

(٤) عمل الفرنسيون على تأليف لجان من المغتربين اللبنانيين في مختلف أنحاء العالم غايتها إقناع الحلفاء بمقاومة الدعوة إلى الوحدة العربية، وبث الدعاية لفرنسا، وكان الغالب على هذه اللجان العنصر الماروني. وتمّ تأسيس لجنة مركزية في باريس سنة ١٩١٧ دعيت (اللجنة السورية المركزية) لتنسيق أعمال تلك اللجان وقد تعاونت مع فرنسا وأيدت حقوقها في سوريا.

(٥) i. Shatwell, At Paris Peas-ce conference, New York, 1937, pp. 177-2.

(٦) جاء في مذكرات رستم حيدر (ص ٣٥٠) ما يلي: عصارى اليوم (١٩١٩/٤/١٧) جاء سمنة ثم غانم وعرضا عبوديتهما على الأمير وقال له: نحن في حاجة إليكم، أنتم سيدنا العظيم شرفكم وأعمالكم تشهد بذلك ولكن مع الأسف سوء تأثير حاشيتكم أدى ما أدى فنحن طوع إرادتكم. ثم ودعه وخرج.

يقول الأستاذ سلام الراسي في عدد ١٩٩٥/٩/٨ من «النهار»: إن الجنرال غورو عندما وقف في قصر الصنوبر وأعلن إنشاء دولة لبنان الكبير، كان البطريرك الياس

الحويك يقف إلى يمينه والمفتي الشيخ مصطفى نجا إلى شماله. ويرى الأستاذ الراسي أن وقوف البطريرك والمفتي إلى يمين الجنرال غورو وشماله كان يعني يومئذٍ قيام لبنان الكبير على ركيزتين قويتين هما: المسيحية والإسلام على حد سواء (انتهى).

ونقول: إن الثلاثة لم يكونوا واقفين، بل كانوا جالسين: الجنرال غورو جالس في الوسط، والبطريرك جالس عن يمينه، والمفتي جالس عن شماله.

وتأكيدنا على هذا لنشير إلى أنهم لو كانوا واقفين لما ظل ثابتاً موقع كل من البطريرك والمفتي، هذا إلى اليمين وهذا إلى الشمال، فالواقفون يتحركون فتتبدل مواقعهم، والجنرال غورو لا يريد هذا التبدل، بل يريد أن يظل الوضع كما فرضه.

ونحن نرى عكس ما رأى الأستاذ الراسي من أن هذا الذي فعله الجنرال غورو كان يراد به الخير للبنان.

نحن نرى أن هذا كان مفتاح البلاء اللبناني، وهو الذي أرسى الانقسام الطائفي الذي لا يزال مستمراً حتى اليوم.

إنه لم يقرر أن في لبنان شعباً واحداً، ينقسم إذا انقسم سياسياً، كما تنقسم كل الشعوب، بل قرر أن في لبنان فريقين لا يلتقيان وطنياً، بل يفترقان دينياً، وأن وجهي هذين الفريقين اللذين يتمثلان بهما هما رجل هذا الدين، ورجل ذاك الدين.

وعلى أساس هذا التقسيم الديني أقام الجنرال غورو لبنان، فكانت المحنة الدائمة.

ثم زاد في البلاء أن أجلس البطريرك عن يمينه والمفتي عن شماله، فاستشعر فريق الغبن واستشعر فريق التفوق، فكان ذلك علة العلل.

إن إعلان لبنان الكبير على أساس انقسام ديني، لا على أساس امتزاج وطني، وإبراز رجلي الدين ممثلين لهذا الانقسام، هو الذي فتح الباب لرجال الدين للدخول في السياسة واستغلالها والانغماس فيها أسوأ انغماس، ما رسخ الانقسام الديني والتمزق الطائفي.

(٧) لم تكن كلمة (الشيوعية) ولا كلمة (الاتحاد السوفياتي) قد عرفتا يومذاك. وإنما اشتهرت كلمة (البولشفيك).

(٨) يقصد بذلك أن ثلاث قوى كانت تحتل سوريا في ذلك الوقت: الفرنسيون والإنكليز، والجيش العربي بقيادة فيصل.

(٩) فينزيلوس (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) ولد في جزيرة كريت ودرس الحقوق في أثينا ثم تعاطى المحاماة في كريت. وقاوم الحكم العثماني في كريت ونجح في فصل الجزيرة عنه وإلحاقها باليونان فأقام في أثينا وصار رئيساً للوزراء سنة ١٩١٠. كان معارضاً لسياسة الملك قسطنطين في البقاء على الحياد في الحرب العالمية الأولى، وقد حاول زجها فيها ولكن الملك أقاله فأسس في أيلول/ سبتمبر سنة ١٩١٦ حكومة ثورية في

كريت ثم انتقل إلى سلانيك وأعلن الحرب على بلغاريا وألمانيا وأجبر الملك على التنازل عن العرش وعاد إلى أثينا رئيساً للوزراء. مثّل اليونان في مؤتمر السلم في باريس واحتل الجيش اليوناني إزمير. ولكن فشل الجيش اليوناني في الأناضول أمام قوات مصطفى كمال التركية أدى إلى أفول نجمه وسقوطه في انتخابات سنة ١٩٢٠.

(١٠) كراسين: ليونيد بوريسوفيج (١٨٧٠ ـ ١٩٢٦) من زعماء الشيوعيين الأوائل قاد البلاشفة مع لينين وبوغدانوف في ثورة ١٩٠٥ ومنذ سنة ١٩١٨ كان رئيساً للجنة تجهيزات الجيش ثم وزيراً للتجارة والصناعة ثم للنقل في الحكومة السوفياتية وفي مناصب أخرى.

(١١) كان الإنكليز يعملون على توهين عزائم السوريين وحملهم على اليأس ليستسلموا للواقع الاستعماري الفرنسي. ففي خلال وجود الوفد العربي في باريس جاءها الكرنل ويلسن الحاكم المدني العام بالوكالة في العراق تصحبه معاونته (مس بل) في ٢٠ آذار/ مارس سنة ١٩١٩ لتقديم المشورة إلى رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج والوفد البريطاني بشأن الوضع في سوريا والعراق ومستقبلهما وخاصة فيما يتعلق برغبات الأهالي، ومصير الموصل ودير الزور. فالتقت مس بل بالدكتور أحمد قدري عضو الوفد السوري فكان مما قالته له: إن الأحوال في سوريا غير حسنة والوضع الغذائي سيئ. وإدارة رضا الركابي (الحاكم العسكري العام) غير حسنة، ولا يوجد عندهم خبراء في الاقتصاد لمداواة هذه الحالة. لذلك فالأمر في تدهور مستمر. ثم ادعت بأن رضا بدأ يرتشي وأن هذا شائع واستشهدت بالكرنل ويلسن فوافقها في القول. وفي ختام حديثها قالت: ليس لكم إلاّ أن تتفقوا مع الفرنسويين وفي ذلك نجاحكم لأن الأميركيين لا يمكنهم أن يعاونوكم في بلادكم، وأما الإنكليز فلا يريدون أن يتدخلوا في شؤونكم في سوريا فالأوفق أن تتقربوا من الفرنسويين. ثم يجب أن لا يغرب عن بالكم أن فرنسا إذا دخلت إلى سوريا ووجدت منكم ميلاً إليها تترك الموارنة لاستمالتكم إليها. وكان الكرنل يؤيد أقوالها بين الحين والحين، وإن لم يوافقها على كل شيء. وزاد بأنه زار دمشق لمدة ثلاثة أيام فأدرك سوء الوضع.

(١٢) يشير بذلك إلى أن السوريين قالوا في الاستفتاء الذي أجراه (كراين) في سوريا إلى أنه إذا كان لا بد من التعاون مع أجنبي فهم يفضلون أميركا فإن لم يمكن فإنكلترا، وهم يرفضون فرنسا.

(١٣) هو ضابط الارتباط الفرنسي الذي ألحق أولاً بالوفد العربي في باريس، ثم كان ضابط الارتباط في دمشق.

(١٤) هو المدير العام لوزارة الخارجية.

(١٥) أشار الأمير إلى أن اللنبي كان يلعن في الشوارع علناً. ومقصوده بهذا التوهم بأن الإنكليز يناصرون التوجه الاستقلالي العربي.

(١٦) عاش الجنرال غورو حتى سنة ١٩٤٦ ولما وصل نبأ وفاته إلى دمشق كتب نجيب الريّس صاحب جريدة «القبس» الدمشقية المقال التالي في عدد ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٤٦:

نعت أنباء باريس الجنرال غورو بطل الحرب العالمية الأولى، ويعرف السوريون جيداً هذا الجنرال الذي خاض الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وقاد معارك النصر في الميدان الغربي كما اشترك في معارك الدردنيل ففقد ذراعه وساقه ثم عيّن بعد الحرب مفوضاً سامياً لسوريا ولبنان، فاستسنح الفرص حتى لاحت له فرصة الانقضاض على سوريا عام ١٩٢٠ فأعلن الحرب عليها بلا مناسبة واحتل دمشق بعد معركة ميسلون.

وظلت سوريا تعاني الآلام والعذاب وأشنع ما توحيه النفوس المريضة بحب الانتقام والتنكيل والاضطهاد، ظلت تعاني ما جره هذا القائد العاتي عليها خمسة وعشرين عاماً كاملة حتى قيض لها أن تتحرر وأن تنطلق نحو النور سنة ١٩٤٥ فتستعيد مكانتها وتخطوها خطوة موفقة سديدة وتسجل فوزاً في ميادين الحرية بعد جهاد دام طوال هذه السنوات الكثيرة.

أما الفاتح الظالم فقد ذهب بعد «الفتح» بأعوام قليلة إلى فرنسا حيث عيّن حاكماً عسكرياً لباريس. وظل في باريس طوال أعوام الاحتلال الألماني لها، يشهد الويلات ويرى بأم عينه مصائب الاحتلال ومصاعبه وذل العيش تحت وطأة الغريب الدخيل إلى أن وافاه أجله.

اللهم لا شماتة في الموت، ولكن حكمك العادل لم يمهل أس البلوى في سوريا أكثر من سنة بعد استقلالها وتحررها ثم قضى وقضت معه أشأم ذكرى عرفتها هذه البلاد، واندكت خيالات بغيضة كانت تراود بين الفينة والفينة الرؤوس، وتلاشت صور بشعة ما زال الكثيرون يتخيلونها لمعركة غير متكافئة وقعت في ميسلون فذهبت بعرش أقامته القلوب وجاءت بأبغض أهل الأرض إلى سكان هذه البلاد.

واللهم لا شماتة في الموت مرة أخرى، ولكن حكمك الحق لم يشأ أن تتلاشى من أذهاننا الصور القبيحة فتجلو الجيوش الأجنبية عن أراضينا فقط، بل أضافت الصور ذهاب الرمز البغيض إلى الرمس!

وبذلك انهال التراب لا على جثة بل على تاريخ وذكريات لم يعرف السوريون في حياتهم أبغض منها ومنه، ولا أكره وأشقى. ولقد ذهب الرمز غارقاً في الندم، متحملاً من الآلام النفسية بالقدر الذي حمله لسوريا عند «الفتح» وبعد الفتح وإبان الاحتلال ووقت الانتداب، ورأى بعينيه سيطرة الجندي الجائع الجشع المتعطش

للانتقام في باريس مثلما شاهدت دمشق وكل المدن السورية إبان قدومه ووجوده وإقامته فيها.

وأمس انهال تراب الرمس على الرمز وطويت صفحة من الظلم هناك، طويناها قبل سنة هنا.

الفصل الخامس

الحال في لبنان

في الوقت الذي كان يجري في باريس ما يجري من صراع سوري استقلالي واستعمار فرنسي كان مجلس إدارة لبنان يصدر القرار التالي:

لما كان جبل لبنان مستقلاً منذ القديم بحدوده التاريخية والجغرافية، والقطع التي فصلت عنه قد سلخت عنوة واغتصاباً من الدولة التركية.

ولما كانت الدولة الغاصبة قد تقلص ظلها واضمحلت سيطرتها على هذه البلاد، ولما كان لبنان لا يتسع له العيش والرقي ما لم تعد إليه القطع المفصولة عنه.

ولما كانت دول الحلفاء أعلنت أنها تساعد على تحرير الشعوب المظلومة وإعادة الأراضي المغصوبة لبلادها الأصلية وكانت القطع المغتصبة من لبنان تعد قسماً منه ومعظم سكانها هم من اللبنانيين، فبناء على ذلك كله وعلى طلبات وإلحاح اللبنانيين المتواصلة والمعلنة في عموم أنحاء الجبل قد اجتمع هذا المجلس بصفته ممثلاً للشعب اللبناني وأصدر القرار التالي:

أولاً: المناداة باستقلال لبنان الإداري والسياسي بحدوده الجغرافية والتاريخية واعتبار البلاد المغصوبة منه بلاداً لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه.

ثانياً: جعل حكومة لبنان هذه ديموقراطية مؤسسة على الحرية والمساواة والإخاء مع حفظ حقوق الأقلية وحرية الأديان.

ثالثاً: إن الحكومة اللبنانية والحكومة الفرنسوية المساعدة تتفقان على تقرير العلائق الاقتصادية بين لبنان والحكومات المجاورة.

رابعاً: مباشرة درس وتنظيم للقانون الأساسي بطريقه الأصولية.

خامساً: تقديم هذا القرار لمؤتمر الصلح العام.

سادساً: إعلان هذا القرار في الجريدة الرسمية وفي غيرها من الجرائد الوطنية تطميناً لأفكار اللبنانيين وبياناً للمحافظة على حقوقهم. ٢٠ أيار/ مايو ١٩١٩.

مناقشة الحوار

هذا هو القرار الذي أوحى به المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو إلى مجلس الإدارة اللبناني. ونحن هنا بعد أن أقررنا بما يعبرون عنه بالكيان اللبناني ـ أقررناه بعد طول إنكار، إنكار كان منا له لأنه كان تركيباً فرنسياً يراد به سلخه عن أصوله العربية ونوازعنا الاستقلالية وأهدافنا القومية. وإقرار بعد أن اندمج بالجامعة العربية وهفا لنوازع الاستقلال والقومية...

إننا ونحن الآن لبنانيون أصلاء نريد أن نناقش هذا القرار نقاشاً لبنانياً بحتاً، ونسأل اللبنانيين الذين تعاقبوا على السياسة طيلة أيام

الانتداب الفرنسي مرتكزين إلى مضمون هذا القرار ـ نسألهم ونسأل سفاح الاستقلالين السوري واللبناني الجنرال غورو، نسأله هو أولاً: هل ما عامل به لبنان واللبنانيين كان ينطبق على ما تضمنه هذا القرار؟

هل تعيين حاكم فرنسي يحكم لبنان هو الاستقلال؟

هل توزيع حكام فرنسيين على جميع الوحدات الإدارية في جميع المناطق اللبنانية باسم مستشارين بينما هم الحاكمون الحقيقيون هو الاستقلال؟

هل وضع مستشار فرنسي على رأس كل مديرية عامة هو الآمر الناهي، هو الاستقلال؟

وما شأن المباشرة بدرس وتنظيم القانون الأساسي (الدستور)؟! أين صارت؟ وأين هو القانون الأساسي؟ وأين هي الديموقراطية؟

إن الوحيدين الذين صدقوا مع أنفسهم ومع وطنهم هم أعضاء مجلس الإدارة الذين تبين لهم بعد ذلك أنهم خدعوا، فتمردوا على الجنرال غورو وعلى الاستقلال المزيف وعلى الانتداب، فكان جزاؤهم السجن والنفي، كما سيأتي.

أما الوفود التي ذهبت إلى باريس تطالب بما أسمته الاستقلال، وأما الذين توالوا على التعاون في الحكم مع الفرنسيين مباهين بما صار إليه لبنان من استقلال. وأما الجنرال غورو الذي أوحى بقرار مجلس الإدارة وأوحى بإرسال الوفود إلى باريس للمطالبة بالاستقلال. أما هؤلاء جميعاً فقد كان للاستقلال عندهم معنى غير المعنى الذي اصطلحت عليه أمم العالم كلها، كان معنى طلب الاستقلال عندهم، هو طلب الانفصال عن سوريا مقروناً بطلب الاستعمار الفرنسي!

ولم يكن قرار مجلس الإدارة هو كل ما أوحى به الجنرال غورو، بل أوحى بتوقيع عرائض من أكبر عدد ممكن من الناس ترفع نسخة إليه ونسخة إلى مؤتمر الصلح. وكانت العرائض بهذا النص:

... نحن الموقعين أدناه أهالي ... في قضاء ... اللبناني أنه بناء على ما قررناه سابقاً في عرائضنا المؤيدة لمطالب اللبنانيين التي قررها مجلس إدارة لبنان وعرضت بواسطة الوفد المعلوم لدى مؤتمر الصلح العالي فقد وكلنا... لكي يطالبوا عنا أمام المؤتمر المشار إليه وأمام جمعية الأمم واللجنة الدولية الموفدة إلى هذه البلاد لاستقصاء الحقائق وأمام سائر المراجع الرسمية صاحبة الاختصاص على اختلاف مراتبها ودرجاتها باستقلال جبل لبنان الإداري والسياسي معاً استقلالاً تاماً بحدوده التاريخية والجغرافية وإعادة القطع المغصوبة منه إلى إدارته المستقلة مشترطين في طلب عقد الوكالة هذه دوام التشبث باستقلال لبنان التام شأن كل البلدان المستقلة إدارة وسياسة وقد فوضنا الوكلاء المومى إليهم حق المطالبة بذلك باسمنا مباشرة وخولناهم حق التوكيل وإجراء جميع المخابرات على اختلاف أنواعها مع كافة المراجع صاحبة الاختصاص وإننا نعتبر كل ما يقرره وكلاؤنا المذكورون أو من يقوم مقامهم وكالة بشأن مطالبنا الآنف بيانها نافذاً علينا وفي الوقت نفسه فإننا نكذب تكذيباً باتاً كل من انتحل وينتحل الوكالة عنا أو يستعير أسمنا لطلب اندماج جبل لبنان بمقاطعة سوريا سياسياً وغير ذلك من الطلبات التي تخالف مطالبنا الحقيقية المبينة في توكيلنا المحرر أعلاه ولأجله حرر هذا البيان نسختين. (انتهى)

ولقد كان للجنرال غورو من تحريك الوفود إلى باريس ومن قرار مجلس الإدارة ومن توقيع هذه العرائض ـ كان له هدفان: الهدف الأول هو بالفعل تكبير لبنان، والهدف الثاني هو اقتطاع أكبر ما يمكن اقتطاعه من سوريا وضمه إلى لبنان، لا تحقيقاً لرغبة لبنانية في

ذلك، بل لأن سوريا كانت تطالب باستقلال حقيقي، وأنه كان مقرراً أن يكون لها وضع استقلالي خاص وهو ما كان يجري التفاوض عليه بين فيصل وكليمانصو. فأراد الجنرال غورو أن يأخذ ما يستطيع أخذه من الجسم السوري الموعود بالاستقلال ويلحقه بلبنان الذي سيظل محكوماً حكماً استعمارياً فرنسياً مباشراً.

ولنعطي القارىء صورة عما كان يبذل من مساعٍ في توقيع هذه العرائض نأخذ هنا ما سجله الشيخ أحمد رضا يومذاك في يومياته التي كان يكتبها يوماً بيوم ثم نشرها في مجلة «العرفان» بأجزاء متتابعة:

وقبل أخذ ما كتبه الشيخ أحمد رضا نأخذ ما كتبته يومذاك صحف بيروت، فمن ذلك ما جاء في جريدة «البشير» في عددها الصادر في ٧ شباط/ فبراير سنة ١٩٢٠ وهو:

> قدم الثغر وفد عاملي مؤلف من ٥٣ ذاتا من وجوه وعلماء جبل عامل تحت رئاسة كامل بك الأسعد واستأذنوا لمقابلة القائد العام الجنرال غورو فأذن لهم واستقبلهم وقد تكلم في حضرته السيد عبد الحسين شرف الدين فذكر للقائد العام ميله إلى الدولة الفرنسية وأطرى ما امتازت به هذه الدولة من العدالة والحرية وما لها من الفضل على الإنسانية إلى غير ذلك. (انتهى)

وكان السيد عبد الحسين شرف الدين نفسه هو العامل على تأليف هذا الوفد تنفيذاً لتعليمات الجنرال غورو، كما سنبينه في الآتي من القول استناداً إلى ما دونه الشيخ أحمد رضا في يومياته.

كانت مهمة هذا الوفد أخطر مما ذكرته جريدة «البشير»، وما ذكرته كان هو الواجهة التي تستر حقيقة تأليف الوفد وأسرار تأليفه وأبعاد أهدافه.

أما عن تأليفه فقد سجل الشيخ أحمد رضا في يومياته المنشورة في الصفحة ٢٥٣ من الجزء ٣ المجلد الثالث عن أحداث كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٢٠ ما نصه:

في هذا اليوم ٢٣ كانون الثاني/يناير أتانا السيد أحمد موسى من شحور يحمل كتاباً من سيادة السيد عبد الحسين شرف الدين إلى سيادة العلامة الشيخ عبد الحسين صادق بالنبطية يخبره بمقابلته للجنرال غورو...

ويقول في كتابه أنه رأى هو والعامليون أنه من الضروري تأليف وفد من العلماء والأعيان يذهب إلى بيروت لمقابلة الجنرال غورو ويعرفه ما عليه الطائفة الشيعية من السكون وعدم الخروج عن الطاعة[1] (انتهى ما ذكره الشيخ أحمد رضا).

يبدو من هذا عمق العلاقة التي كانت بين الجنرال غورو والسيد عبد الحسين شرف الدين بحيث كان يستدعيه إليه ساعة يشاء، فيأتيه منفرداً لتلقي تعليماته، ثم يذهب لتنفيذ تلك التعليمات.

وكان قد أزعج الجنرال غورو أن وفداً عاملياً كبيراً قصد إلى دمشق لتهنئة الحكم العربي الاستقلالي فيها، ما كان إعلاناً صريحاً عن الرغبة في انضمام جبل عامل إلى هذا الحكم والتخلص من منطقة النفوذ الفرنسي، لذلك كان استدعاؤه للسيد عبد الحسين شرف الدين للتفاهم معه على خطة تكون رداً على تحركات الوفد الاستقلالي العاملي الذي ذهب إلى دمشق، فتم التفاهم بينهما على تأليف وفد عاملي يجيء إلى بيروت لمبايعة الجنرال غورو وإعلان الولاء لفرنسا، ثم العمل على توقيع عرائض بضم جبل عامل إلى منطقة النفوذ الفرنسي، ترفع إلى الجنرال غورو لتكون سلاحاً بيده

للقيام بهذا الضم، كما ترفع إلى مؤتمر الصلح ليقرر المؤتمر نفسه هذا الضم.

وقد نفذ السيد عبد الحسين ما اتفق عليه مع الجنرال غورو، تنفيذاً كاملاً، وقد رأينا فيما تقدم رسالته إلى الشيخ عبد الحسين صادق التي يعترف فيها بمقابلة الجنرال والاتفاق على تأليف الوفد وإعلان الطاعة للفرنسيين ورأينا فيما نشرته جريدة «البشير» أن الوفد على لسان السيد عبد الحسين شرف الدين أدى المهمة الأولى وهي مبايعة الجنرال غورو وإعلان الولاء لفرنسا، وسنرى فيما يلي كيف أدى وفد السيد عبد الحسين المهمة الثانية المتفق عليها مع الجنرال غورو، فقد كتب الشيخ أحمد رضا عن أحداث شباط/ فبراير. ١٩٢٠ ما نصه:

وقد علمنا صباح اليوم بما انجلى عنه سفر الوفد العاملي إلى بيروت، وذلك أنهم وعدوا الجنرال غورو بأن يطلبوا من المؤتمر (مؤتمر الصلح) إلحاق جبل عامل في لبنان، وكتبوا بذلك معروضاً للمؤتمر ومعه معروض آخر للجنرال، وقال الأول: إنا اجتمعنا وقررنا أن يرجع جبل لبنان إلى حدوده القديمة فيشمل جبل عامل.

وقال الثاني إنهم يطلبون من الجنرال غورو رفع هذا التقرير إلى مؤتمر السلام العام. (انتهى كلام الشيخ أحمد رضا).

وقد تم ذلك كله بهمة السيد عبد الحسين شرف الدين، لقد كان هو نفسه خطيب الوفد والناطق بلسانه أمام الجنرال غورو، والمبايع له ولفرنسا، والمقِر لهما بالطاعة، ثم العامل على توقيع العريضتين لمؤتمر السلام وللجنرال غورو بما يهوى الجنرال.

وهكذا قام السيد عبد الحسين بتنفيذ المهمة التي عهد بها إليه

الجنرال غورو أحسن قيام، ووفى للجنرال بما وعده به في لقائهما أتمّ الوفاء.

الهوامش

(١) يحدد السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه هذا مهمة الوفد بصراحة واضحة، وهي أن يعلن للجنرال السكون التام والطاعة الكاملة، وهذا ما أعلنه هو بنفسه في خطابه أمام الجنرال غورو، فضلاً عما أعلنه مما هو أكثر من ذلك، مما ذكرت بعضه جريدة «البشير» كما تقدم.

الفصل السادس

رجوع فيصل إلى دمشق

بعد أن يئس فيصل من إقناع فرنسا بوجهة نظره طلب وساطة بريطانيا فكتب إلى لويد جورج بأن جهوده فشلت وقال:

«إن هدفي هو منع المشاكل التي ستنفجر حينما تنسحب القوات البريطانية حسب خطوط سايكس ـ بيكو التي لم يعترف بها السوريون».

وقد رد كليمانصو في رسالة إلى لويد جورج في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر قائلاً:

«إن الصعوبة ليست في أطماع فرنسا، ولكن لأن الأمير لا يبدو أنه قد تفهم حقاً ضرورة قبول العرب للانتدابين الفرنسي والبريطاني على أنهما تطوير وتنظيم للبلاد العربية».

وعلى أثر ذلك قرر فيصل توجيه مذكرة أخرى إلى المجلس الأعلى لمؤتمر السلم تضمنت احتجاجاً على إحداث تغيير في الوضع القائم في سوريا على أساس خطوط سايكس ـ بيكو، لأن ذلك تجزئة للشعب السوري الذي يتطلع إلى الوحدة.

وظل فيصل يصارع بلا نصير دولي، وقد رفع الأميركيون يدهم من الأمر كله وعادوا إلى عزلتهم، كما تخلى عنه الإنكليز الذين لم يشاءوا أن يغضبوا الفرنسيين، حتى قال عنه رفيقه في باريس رستم حيدر:

إني أرثي لحاله، مسؤولية عظيمة وتحمل عظيم...

وأخيراً قرر ترك باريس والعودة إلى سوريا بعد أن أخذ من كليمانصو أقصى ما يستطيع أخذه وهو استقلال منقوص لم يقره فيصل بل حمل الأمر إلى الشعب ليقول له: هذا كل ما تعطيه فرنسا والرأي أصبح لكم.

ووصل بيروت في ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٢٠ ثم انتقل منها إلى دمشق، ومنها ألقى خطاباً هاماً في النادي العربي قال فيه: إنني أتيت من الغرب لأقف على رغائب الأمة بعد انسحاب الأميركيين من المعترك السياسي.

وأعلن أنه سيعود إلى الغرب في وقت قريب.

ويقول يوسف الحكيم في كتابه «سوريا والعهد الفيصلي»[1].

«اختلى الأمير فيصل بالوجهاء والزعماء الوطنيين حسب ميولهم للوقوف على آرائهم حول نتيجة ما لاقاه في أوروبا، كما أنه لم يهمل اتصاله بمعتمدي الحلفاء».

وأنهى في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٢٠ حكومة الحاكم العسكري وأسس حكومة مجلس مديرين لإفساح المجال في مهمة الحكومة المركزية وإعطائها مظهراً استقلالياً. كما عمد إلى تشكيلات إدارية وعسكرية في المدن الكبرى.

واجتمع سراً في ٦ شباط/فبراير مع الهيئة العامة لحزب الاستقلال

ليعرض مشروع الاتفاق مع كليمانصو قائلاً إن هذا أقصى ما توصل إليه، ورفضه يعني إعلان الحرب على فرنسا.

فرد الحاضرون بأنه عزّ للبلاد أن تواجه أي عدوان فرنسي أو بريطاني بما لديها من الإمكانيات من أن تقبل بشروط الاتفاق(٢).

ولما لم يحصل الاقتناع بصلاح الاتفاق طوي أمر طرحه على الشعب.

كان معنى رفض الاتفاق إعلان الحرب وإن لم تعلن، وهذا الموقف كان يقتضيه الإعداد لتلك الحرب، وكل ما أعد لها عملياً: الاهتمام بالخدمة العسكرية الإجبارية(٣).

وما دامت القطيعة قد وقعت فقد ارتئي السير بها إلى أقصى غاياتها، وهذا الأقصى هو مواجهة الرأي العام العالمي عامة، والإنكليز والفرنسيين منه خاصة بإعلان استقلال سوريا استقلالاً تاماً بملكية الملك فيصل.

وفي السادس من آذار/مارس ١٩٢٠ عقد المؤتمر السوري جلسة افتتحها الأمير فيصل بخطاب تفصيلي حول القضية العربية وحق العرب بالاستقلال، مؤكداً بذلك استناده إلى وعود الحلفاء ومبادىء ويلسون، وطلب إلى أعضاء المؤتمر تقرير الشكل الذي ستحكم البلاد به.

فتألفت لجنة من أعضاء المؤتمر وضعت قراراً هو مثابة رد على خطاب الأمير تبناه المؤتمر، وفيه بعد مقدمات إعلان استقلال سوريا التام بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الأساس المدني النيابي وحفظ حقوق الأقلية ورفض الادعاء الصهيوني بالوطن القومي وتطبيق مبدأ اللامركزية الإدارية مع إعطاء ضمانات لنظام خاص في لبنان، وإنشاء حكومة مسؤولة أمام

المؤتمر الذي هو مجلس نيابي تأسيسي في وقت واحد، والمطالبة بحق استقلال العراق وإيجاد اتحاد سياسي واقتصادي بين القطرين نظراً للروابط بيهما. وتقرر بالاجماع المناداة بإعلان فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا المتحدة. وختم القرار بتأكيده على استمرار صداقة الحلفاء آملاً اعترافهم وسائر الدول الأخرى باستقلال سوريا.

وفي ٨ آذار/مارس قدم القرار لفيصل موقعاً من كافة أعضاء المؤتمر، وتلي من شرفة البلدية بدمشق وسط حفلة رسمية وشعبية أُعلن فيها فيصل ملكاً على سوريا الطبيعية ورفع العلم الجديد وأطلقت المدافع.

وشكلت بعد ذلك لجنة لوضع الدستور برئاسة هاشم الأتاسي فأتمت وضعه خلال عشرة أسابيع فكان أول دستور عربي لأول حكومة عربية في العصور الحديثة. وأنهت اللجنة تدقيق المواد في المرة الأولى في ٣ تموز/يوليو ١٩٢٠.

ونوقشت مواده السبع الأولى فصدقها المؤتمر في ١٣ تموز/ يوليو وظهرت خلال المناقشات أفكار حديثة لأول مرة مثل موضوع مشاركة المرأة بالانتخابات. وبدأت الاستعدادات لإجراء الانتخابات النيابية، ولكن كل شيء توقف بوصول إنذار الجنرال غورو.

وإننا لننشر هنا نص هذا الدستور لأنه أول دستور عربي في التاريخ وفيه تتمثل لأول مرة طموحات العرب في الحكم الاستقلالي النيابي.

الفصل الأول في المواد العامة

١ ـ إن حكومة المملكة السورية العربية حكومة ملكية مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين ملكها الإسلام.
٢ ـ المملكة السورية تتألف من مقاطعات تشكل وحدة سياسية لا تقبل التجزئة.
٣ ـ اللغة الرسمية في جميع المملكة السورية هي اللغة العربية.

الفصل الثاني في الملك وحقوقه

٤ ـ ينحصر ملك المملكة السورية في الأكبر فالأكبر من أبناء الملك فيصل الأول، متسلسلاً على هذه القاعدة وإذا لم يكن لأحدهم ابن يكون الملك للأكبر من أقرب عصابته الذكور وإن لم يبق من صلب الملك فيصل الأول ولد ذكر ينتخب المؤتمر مجتمعاً بموافقة ثلثي أعضائه ملكاً لسوريا من سلالة الملك حسين الأول ملك الحجاز ويكون إرث الملك في ذريته على ما تقرر في ذرية فيصل الأول.
٥ ـ يجلس الملك على سرير الملك عندما يتم السنة الثامنة عشرة من عمره فإذا انتقل إلى من هو دون السن ينتخب المؤتمر بالأكثرية المطلقة نائباً له يدير المملكة باسم الملك ويشترط أن يكون النائب من صنف الجند وعلى نائب الملك أن يقسم يمين الاحترام للشرائع الإلهية والأمانة للأمة والملك والمراعاة للقانون الأساسي.
٦ ـ على الملك حين جلوسه أن يقسم أمام المؤتمر يميناً باحترام الشرائع الإلهية وبالإمانة للأمة وبمراعاة القانون الأساسي.

٧ ـ الملك محترم وغير مسؤول.

٨ ـ الملك هو القائد العام وهو يعلن الحرب ويعقد الصلح والمعاهدات على أن يعرض ذلك على المؤتمر ليصدق عليه. ولا تكون المعاهدات نافذة إلاّ بعد التصديق عليها وله أن يعلن العفو العام بعد موافقة المؤتمر وهو يعين رئيس الوزراء ويصدق على تأليف الوزارة ويقبل استقالتها ويرسل السفراء إلى الدول ويقبل سفراءها ويصدق على القوانين والنظم ويعفو عفواً خاصاً ويخفف الجزاء عن المحكومين ويفتتح المؤتمر ويفضه بموجب المادة وله أن يدعوه في غير أوقاته العادية ويمدد أمد اجتماعه عند الضرورة ويحل المجلس النيابي بموجب المادة وتضرب النقود باسمه ويمنح الأوسمة ويوجه الرتب العسكرية والمناصب الملكية بموجب قوانينها الخاصة.

الفصل الثالث في حقوق الأفراد والجماعات

٩ ـ يطلق لقب سوري على كل فرد من أهل المملكة السورية العربية ويسوغ الحصول على الجنسية السورية وفقدانها بحسب الأحوال التي يعينها قانون التابعية.

١٠ ـ السوريون متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات.

١١ ـ الحرية الشخصية مصونة من كل تعدٍ ولا يجوز توقيف أحد إلاّ بالأسباب والأوجه التي يعينها القانون.

١٢ ـ لا يجوز التعذيب وإيقاع الأذى على أحد بسبب ما.

١٣ ـ لا يجوز التعرض لحرية المعتقدات والديانات ولا منع الحفلات الدينية لطائفة من الطوائف على أن لا تخل بالأمن

العام أو تمس بشعائر الأديان والمذاهب الأخرى.

١٤ ـ كيفية إدارة المحاكم الشرعية والمجالس الطائفية التي تحسب شرائعها في الأحوال الشخصية المذهبية وكيفية إدارة الأوقاف العامة تعيّن بقوانين تصدر من المؤتمر.

١٥ ـ للأهالي أن يرفعوا شكاويهم الخطية العامة والخاصة منفردين ومجتمعين إلى المراجع الرسمية والمجالس النيابية.

١٦ ـ تأليف الجمعيات وعقد الاجتماعات وتأسيس شركات حرة من ضمن قوانينها الخاصة التي يسنها المؤتمر.

١٧ ـ جميع المساكن مصونة من التعدي ولا يجوز دخولها إلاّ في الأحوال التي تعينها القوانين.

١٨ ـ أموال الأفراد والأشخاص الحكومية في ضمان القانون فلا يجوز للحكومة نزع ملكية مالك إلاّ للمنافع العامة بعد دفع التعويض وفقاً لقوانينه الخاصة.

١٩ ـ المطبوعات حرة في ضمن دائرة القانون ولا يجوز تفتيشها ومعاينتها قبل الطبع.

٢٠ ـ يجب أن يكون أساس التعليم والتربية في المدارس الرسمية والخصوصية واحداً على أساس المبادىء الوطنية في جميع المقاطعات السورية.

٢١ ـ التعليم الإبتدائي إجباري وفي المدارس الرسمية مجاني.

٢٢ ـ تأسيس المدارس الخصوصية حر في ضمن قانونها الخاص الذي يسنه المؤتمر.

٢٣ ـ لا يجوز إجبار أحد على دفع شيء من المال باسم ضريبة أو رسم أو إعانة أو غير ذلك إلاّ بالاستناد إلى مادة قانونية.

٢٤ ـ السخرة والمصادرة ممنوعتان.
٢٥ ـ لا يجوز محاكمة أحد إلاّ في المحاكم التي يعينها القانون.
٢٦ ـ النفي الإداري ممنوع بتاتاً.

الفصل الرابع في الحكومة السورية العامة

٢٧ ـ الحكومة العامة للمقاطعات السورية تتألف من هيئة الوزارة وهي مسؤولة عن أعمالها أمام المجلس النيابي العام.

٢٨ ـ رئيس الوزراء ينتخب الوزراء ويعرض أسماءهم على الملك.

٢٩ ـ على كل وزارة تبيين خطتها للمجلس النيابي العام لدى تأليفها.

٣٠ ـ كل وزير مسؤول عن وزارته تجاه المجلس النيابي العام.

٣١ ـ لا ينشر قانون ولا قرار ما لم يكن موقعاً عليه من رئيس الوزارة والوزير الذي يعود إليه تنفيذ ذلك ومصدقاً عليه من قبل الملك.

٣٢ ـ يجب أن تكون أوامر الملك موقعة من رئيس الوزراء والوزير الذي يعود إليه تنفيذ الأمر.

٣٣ ـ لا يجوز دخول أحد من الأسرة المالكة في هيئة الوزارة.

٣٤ ـ الجندية والقوى البحرية والخارجية وإدارة البرق والبريد والجمارك والتلفونات العامة بين المقاطعات وسكك الحديد والمرافق والمنائر البحرية والمناجم وضرب النقود وإصدار الطوابع والأوراق المالية وتأسيس المصرف الرسمي وصنع الأسلحة والأدوات الحربية والانفجارية وإنشاء الطرق العامة كل ذلك من خصائص الحكومة العامة.

٣٥ ـ على الحكومة العامة تأسيس مدارس كلية للعلوم والفنون العالية وهي تقوم بإدارتها ونفقاتها ولها حق الاشراف على وحدة أساس التعليم والتربية في جميع أنحاء المملكة.

٣٦ ـ الحكومة العامة توحد الأوزان والمقاييس وأسعار النقود على الطريقة العشرية وتحدد أسعار النقود الأجنبية في جميع أنحاء المملكة.

٣٧ ـ الواردات التي تخصص للميزانية العامة هي الريع المتحصل من أجور أثمان أراضي الخزينة العامة وأملاكها والواردات العامة والجمارك والتليفونات العامة والبرق والبريد ومصرف ورسوم الإبل والغنم والانحصارات والامتيازات والمواد الكحولية والمناجم والمرافىء البحرية والدمغة والحجر الصخري العام والسفن البحرية والصيد البحري وواردات المواد الانفجارية وريع السكك الحديدية ما عدا السكة الحجازية وفروعها هي من الأوقاف الإسلامية.

٣٨ ـ لا يجوز للحكومة العامة أن تبيع أو تؤجر أراضي الخزينة العامة إلاّ بقانون خاص تراعى فيه منفعة زراعها أولاً ومنفعة مقاطعتها ثانياً.

٣٩ ـ إذا باغت المملكة أخطار أو أمور تخل بالأمن العام في أثناء عطلة المؤتمر وضاق وقت تلافيها عن استدعائه لأجل وضع ما تقتضيه الحال من القوانين فلهيئة الوزارة أن تضع المقررات اللازمة وتنفذها بحكم قانون يصدق عليه من الملك على أن تعرضها على المؤتمر في أول اجتماعه.

٤٠ ـ إذا ظهر في أحد أنحاء المملكة ثورة أو دخلت الحكومة في

حرب أو أعلنت النفير العام فللحكومة العامة أن تعلن الأحكام العرفية موقتاً بموجب قانونها الخاص الذي يصدر من المؤتمر على شرط أن تكون الإدارة العرفية في حال ظهور الثورة مقتصرة على المنطقة التي تظهر فيها.

٤١ ـ يحق لكل وزير من الوزارة أن يحضر مذاكرات كل من مجلسي الشيوخ والنواب متى طلب حق التقدم بالكلام.

٤٢ ـ على كل وزير من الوزارة أن يجيب دعوة كل من مجلسي الشيوخ والنواب وأن يبين هو بنفسه أو من ينيبه عنه من المعلومات في أي مادة من المواد العائدة إلى وزارته.

٤٣ ـ إذا دعي أحد الوزراء إلى المجلس النيابي للاستيضاح منه عن قضية ولم ينل اعتماد الأكثرية في أثر الاستيضاح يسقط من الوزارة وإذا سقط رئيس الوزارة تسقط معه الوزارة وللوزير أو الوزارة أن تطلب تأخير الجواب على مسؤوليتها.

٤٤ ـ إذا رفع تقرير من خمسة نواب فأكثر في شأن هيئة الوزارة أو أحدهم عن عمل يوجب المسؤولية ووافقت أكثرية المجلس على إجراء التحقيق في ذلك فإن المجلس يحول ذلك التقرير بالقرعة إلى إحدى شعبه، وهذه تجري التحقيق وتستدعي الوزارة أو الوزير وتستوضح منهم عما ينبغي ثم تقدم قرارها إلى المجلس فإذا وافق ثلثا الأكثرية على وجوب المحاكمة تحال إلى المحكمة العليا وتعين أصول المحاكمة بقانون مخصوص.

٤٥ ـ متى تقرر في المجلس النيابي وجوب محاكمة هيئة الوزراء أو أحدهم يسقط من الوزارة.

٤٦ ـ لا فرق بين الوزير وغيره في الجرائم العادية والحقوق الشخصية والتضمينات المالية فتجرى محاكمته في هذه الأمور في المحاكم العامة.

الفصل الخامس في المؤتمر

٤٧ ـ يتألف المؤتمر من مجلسي الشيوخ والنواب.

٤٨ ـ يجتمع المؤتمر في أول شهر أيلول/سبتمبر من كل سنة ومدة اجتماعه أربعة أشهر ويجوز تمديد أمده ودعوته في غير وقته المعين عند الضرورة.

٤٩ ـ يفتتح الملك المؤتمر بخطاب ملكي يتضمن جميع الحوادث السياسية والإدارية المهمة التي حصلت في أثناء العطلة السنوية وما يجب إجراؤه في السنة القادمة وذلك بحضور الهيئة العامة والوزارة معاً.

٥٠ ـ يسن كل من مجلسي الشيوخ والنواب نظاماً خاصاً لإدارته ومذاكراته الداخلية وينتخب كل سنة من أعضائه الرئيس الأول ونائبيه والكتاب وهيئة الإدارة بمقتضى ذلك النظام.

٥١ ـ كل من مجلسي الشيوخ والنواب يدقق النظر في مضابط أعضائه الانتخابية وفي قبول استقالتهم وفي إسقاط من تثبت عليه أسباب الأسقاط القانونية.

٥٢ ـ مذاكرات كل من المجلسين علنية ويجوز جعل الجلسة سرية إذا اقترح ذلك عشرة من الأعضاء أو طلبتها الوزارة ووافقت أكثرية المجلس عليها.

٥٣ ـ إن أعضاء كل من المجلسين أحرار فيما يبدونه من الأفكار والمطالعات في المجلس ولا يتوجب على أحد منهم أية

مسؤولية من إجراء ذلك على شرط أن لا يخالفوا نظام المجلس الداخلي.

٥٤ ـ لا يجوز البدء بالمذكرات في أحد المجلسين ما لم يكن أكثر من نصف أعضائه حاضراً وتتخذ القرارات بأكثرية أصوات حاضري الجلسة إلاّ في المسائل المشروط فيها موافقة الثلثين.

٥٥ ـ آراء الأعضاء في اتخاذ القرارات تكون بتعيين الأسامي أو بإشارة مخصوصة أو بالرأي الخفي ويشترط في الأخيرة موافقة الأكثرية.

٥٦ ـ إذا عزي إلى أحد الشيوخ والنواب خيانة وطنية ووافق ثلثا أعضاء مجلسه على لزوم محاكمته فإنه يحال إلى المحكمة العليا.

٥٧ ـ لا يجوز توقيف أحد الشيوخ أو النواب ولا محاكمته بسبب جرم من الجرائم العادية في مدة اجتماع المجلس إلاّ بموافقة ثلثي أعضاء مجلسه ويستثنى من ذلك الجرائم المشهودة ولا بد في مثل هذه الحال من إخبار المجلس المنسوب إليه العضو وحالاً.

٥٨ ـ لا يجوز لأحد من الشيوخ أو النواب عقد المقاولات مع الحكومة العامة ولا الحكومة المحلية ولا البلديات ولا الدخول في الالتزامات ولا أخذ أي نوع من الامتيازات لنفسه ولا بالاشتراك مع غيره.

٥٩ ـ لكل من الشيوخ والنواب والوزراء حق اقتراح القوانين التي يراد وضعها وحق اقتراح تعديل القوانين الموجودة. والقوانين المقترح وضعها أو تعديلها تنظر أولاً في مجلس النواب ثم في مجلس الشيوخ.

٦٠ ـ القوانين المدنية والجزائية والتجارية والبحرية والقوانين المتعلقة بالصحة العامة والتأليف والاختراع والمطبوعات والتعليم الرسمي والخصوصي والجمعيات والاجتماعات والشركات والمهاجرة والتأمين والتابعية ووحدة المكاييل والمقاييس والموازين والنقود وقوانين العمال والقوانين التي تتعلق بالأمور الخاصة بالحكومة العامة تصدر من المؤتمر وتكون نافذة الحكم في جميع المقاطعات.

٦١ ـ إذا تقرر في مجلس النواب قانون من القوانين وأرسل إلى مجلس الشيوخ فعدله وأرجعه إلى مجلس النواب وأصر هذا على رأيه الأول ولم يتحول مجلس الشيوخ عن قراره يعاد القانون ثانية إلى مجلس النواب فإذا أصرّ هذا على رفض التعديل تؤلف لجنة متساوية العدد من المجلسين لإزالة الخلاف فإذا لم يمكن فقرار المجلس النيابي هو النافذ على شرط أن يكون هذا القرار بموافقة ثلثيه، وأما قانون الميزانية السنوية فليس لمجلس الشيوخ أن يعيده إلاّ مرة واحدة فإذا أصر مجلس النواب على رأيه الأول فقراره هو النافذ.

٦٢ ـ لا يجوز تنقيح القانون الأساسي إلاّ إذا اتفق على وجوبه ثلثا كل من المجلسين وحينئذٍ يجتمع المجلسان في هيئة عامة ويقرران بالأكثرية المطلقة ما يرونه من التنقيح.

٦٣ ـ إن القوانين التي تقرر في مجلس النواب والشيوخ وترفع إلى الملك للتصديق نافذة، وإلاّ أعيدت إلى مجلس النواب مصحوبة ببيان الأسباب الموجبة للنظر فيها مرة أخرى وأما القوانين التي أعطي القرار بكونها مستعجلة فمدة التصديق عليها وإعادتها اسبوع واحد. وإذا أعيدت القوانين نظر

مجلسا النواب والشيوخ فيها مرة أخرى وبعد المذاكرة الثانية يصدق عليها الملك ويأمر بإجرائها خلال المدة المعينة.

٦٤ ـ لا يحق لأحد الكلام في المجلسين من غير أعضائهما إلاّ للوزراء أو من ينيبونه عنهم.

مجلس الشيوخ

٦٥ ـ ينتخب المجلس النيابي في كل مقاطعة أعضاء لمجلس الشيوخ بنسبة ربع نوابها في المجلس النيابي العام ويعين الملك عدداً مساوياً لنصف عدد الأعضاء المنتخبين.

٦٦ ـ إذا كان عدد نواب المقاطعة في المجلس النيابي العام غير قابل للتربيع يجبر ثم يتعين العدد الذي يجب انتخابه من قبل مجلس نواب المقاطعة بعد الجبر، وكذلك إذا كان عدد الأعضاء المنتخبين لمجلس الشيوخ من المقاطعات غير قابل للتصنيف يجبر ثم يعين العدد الذي يعينه الملك بعد الجبر.

٦٧ ـ الأعضاء المنتخبون لمجلس الشيوخ من الأقلية يكونون بنسبة ربع نوابها عن جميع المملكة في المجلس النيابي العام ويفرزون من مجموع العدد الذي يخص كل مقاطعة. ويسن المؤتمر قانوناً خاصاً يبيّن فيه كيفية انتخابه شيوخ الأقلية وعددهم بالنسبة إلى المقاطعات. وكذلك تراعى النسبة فيما يعينه الملك.

٦٨ ـ مدة عضوية مجلس الشيوخ تسع سنوات ويتجدد ثلث الأعضاء في كل ثلاث سنين ويكون تجديد الثلثين الأول والثاني في السنوات الست الأولى بالاقتراع على أن يدخل الثلث المجدد الأول في القرعة الثانية وبعد ذلك يتجدد

الأعضاء الذين يتممون مدتهم القانونية ويجوز إعادة العضو المنقضية مدته أو الذي وقعت عليه القرعة.

٦٩ ـ إذا وقعت القرعة على المعينين يعين بدلهم من قبل الملك وإذا وقعت على المنتخبين ينتخب بدلهم من قبل مجالس مقاطعتهم.

٧٠ ـ لا تجتمع عضوية الشيوخ مع وظيفة أخرى في شخص واحد إلاّ في الوزارة.

٧١ ـ يجب مراعاة الأوصاف الآتية في أعضاء مجلس الشيوخ:

(أ) أن يكون العضو سورياً متمماً سن الأربعين، غير محكوم عليه بجنحة، وغير مفلس لم يعد اعتباره، وغير ساقط من الحقوق المدنية،

(ب) أن يكون ممن سبقت لهم الخدمة في الوظائف العالية إدارية كانت أو عسكرية أو سياسية أو قضائية أو من النواب الذين تكرر انتخابهم أو ممن اشتهروا بسعة العلم والفضيلة.

٧٢ ـ إذا مات أحد الشيوخ أو استقال أو سقط من عضوية المجلس وكان من المنتخبين ينتخب مجلس مقاطعته بدلاً منه وإذا كان معيناً يعين الملك بدله وتكون مدة العضو الجديد لمدة سلفه.

مجلس النواب

٧٣ ـ ينتخب أعضاء مجلس النواب بالرأي الخفي على درجتين.

٧٤ ـ الانتخابات النيابية العامة للمجلس النيابي تجرى في كل أربع سنين مرة ويبتدأ بها من أول شهر حزيران/ يونيو وتنتهي في نصف شهر آب/ أغسطس.

٧٥ ـ مدة النيابة أربع سنوات ويجوز تجديد انتخابات النائب المنقضية مدته.

٧٦ ـ تبقى نيابة النائب معتبرة إلى أن تتم الانتخابات الجديدة بموجب المادة.

٧٧ ـ الانتخابات حرة لا يجوز للحكومة أن تتدخل فيها أو تتصدى لها.

٧٨ ـ لكل سوري أتمّ العشرين من سنه ولم يكن ساقطاً من حقوقه المدنية حق في أن يكون ناخباً أول ويكون لحائز شهادة المدارس العالية منهم رأيان وكل سوري أتمّ الخامسة والعشرين من سنه ولم يكن فاقداً حقوقه المدنية ولا محكوماً عليه بسجن شهر فأكثر يجوز أن يكون ناخباً ثانياً ويشترط أن يكون الناخب الثاني ممن يحسنون الكتابة والقراءة وأن لا يكون موظفاً ولا ضابطاً ولا خادماً خاصاً.

٧٩ ـ كل سوري أتمّ الثلاثين من سنه ولم يكن فاقداً حقوقه المدنية ولا مفلساً لم يعد إليه اعتباره محكوماً عليه بجنحة يجوز انتخابه للنيابة.

٨٠ ـ لا يشترك في الانتخاب الجنود الموجودون في الخدمة الفعلية وأما المأذون منهم في دائرته الانتخابية فيشترك بها.

٨١ ـ لا يجوز ترشيح الموظف ولا انتخابه للنيابة عن الدائرة الموظف هو فيها إلاّ إذا استقال قبل البدء بمعاملة الانتخابات بشهرين على الأقل.

٨٢ ـ لا يجوز للضباط ولا أمراء الجيش وأركانه الموجودين في الخدمة الفعلية أن ينتخبوا ولا أن ينتخبوا للنيابة إلاّ إذا استقالوا من سلك الجندية قبل البدء بمعاملة الانتخاب.

٨٣ ـ لا تجتمع النيابة والوظيفة في شخص واحد إلاّ في الوزارة.

٨٤ ـ لا تجتمع النيابة وعضوية الشيوخ في شخص واحد.

٨٥ ـ كل نائب يعتبر ممثلاً للسوريين.

٨٦ ـ ينتخب نائب واحد عن كل أربعين ألفاً من السكان السوريين والكسر المعتبر في ما دون النصاب عشرون ألفاً.

٨٧ ـ كل مديرية تعد دائرة انتخابية، فالمديرية التي لا يبلغ عدد سكانها أربعين ألفاً ولا ينقص عن عشرين ألفاً تنتخب نائباً واحداً وأما المديرية التي يقل عدد سكانها عن عشرين ألفاً فتضم إلى أقرب مديرية لها.

٨٨ ـ تعتبر كل مقاطعة دائرة انتخابية واحدة بالنسبة إلى الأقليات ويكون النصاب لها ثلاثين ألفاً والكسر المعتبر في ما دون النصاب خمسة عشر ألفاً.

٨٩ ـ لكل مئتي ناخب أول أن ينتخبوا ثانياً والكسر المعتبر فيما دون النصاب مئة.

٩٠ ـ تقسم المديريات إلى مناطق انتخابية على أن لا ينقص عدد الناخبين الأولين في كل منطقة عن المئتين.

٩١ ـ يسن للانتخابات قانون خاص تبين فيه كيفية إجرائها كسائر المعاملات المتفرعة عنها والقاعدة التي يجرى عليها انتخاب الأقلية.

٩٢ ـ إذا مات أحد النواب أو استقال أو سقط من النيابة فالناخبون الثانويون في دائرته ينتخبون غيره وتكون مدة النائب الجديد توفية لمدة سلفه.

٩٣ ـ إذا اختلف مجلس النواب مع الوزارة ولم تنل اعتماده

سقطت وإذا أصرت الوزارة الجديدة على رأي سلفها يحول الخلاف إلى مجلس الشيوخ فإذا أيّد مجلس الشيوخ مجلس النواب أذعنت الوزارة وإن لم يؤيده فللملك أن يفض المجلس على أن يتجدد الانتخاب ويجتمع المجلس الجديد في مدة ثلاثة أشهر فإذا أصرّ المجلس على قرار سلفه فقراره هو النافذ.

٩٤ ـ مدة المجلس الذي يتجدد انتخابه بموجب المادة الرابعة والتسعين هي أربع سنوات كاملة ما عدا الاجتماع الذي يعقده هذا المجلس على أثر انتخابه توفية لمدة الاجتماع السنوي الذي انفسخ فيه المجلس السابق.

٩٥ ـ لكل نائب أن يطلب تأليف لجنة من النواب لتحقيق حادثة من الحوادث المهمة التي تقع في إحدى الوزارات أو الدوائر أو المقاطعات فإذا قبل الطلب بالأكثرية تؤلف اللجنة وتباشر عملها ثم ترفع نتائج تحقيقاتها إلى المجلس وليس لها أن تدخل... في الأعمال التنفيذية.

الفصل السادس في المحكمة العليا

٩٦ ـ تتألف المحكمة العليا عند الحاجة بأمر الملك من ستة عشر عضواً نصفهم من الشيوخ ونصفهم من رؤساء محاكم التمييز وينتخبون من الهيئات المنسوبين إليها بالقرعة.

٩٧ ـ تقسم المحكمة العليا إلى قسمين، اتهامي يتألف من سبعة أعضاء أربعة من الشيوخ وثلاثة من التمييز والاستئناف ويكون انتخاب هؤلاء بالقرعة من بين الستة عشر عضواً، وحكمي يتألف من التسعة الباقين.

٩٨ ـ قرار الاتهام ينبغي أن يكون بموافقة خمسة من أعضاء القسم الاتهامي على الأقل وقرار الحكم بموافقة ستة من أعضاء القسم الحكمي على الأقل.

٩٩ ـ أحكام المحكمة العليا قطعية وتطبق معاملاتها وأحكامها على القوانين الموضوعة.

الفصل السابع في المالية

١٠٠ ـ يجب على الحكومة أن تقدم في كل عام ميزانيتها للسنة القابلة إلى مجلس النواب في أوائل اجتماعه السنوي.

١٠١ ـ الميزانية العامة قانون يبيّن فيه الدخل والخرج السنويان على وجه التقريب في مواد مرتبة على فصول ويحتوي على مواد أخرى في كيفية تنفيذها ويدقق النظر في المواد القانونية في المجلس مادة مادة ويدقق النظر في فصول الميزانية وتقبل فصلاً فصلاً.

١٠٢ ـ لا يجوز للحكومة أن تتجاوز حدود الميزانية المصدق عليها إلاّ إذا طرأت أسباب اضطرارية مبرمة تقضي بانفاق شيء خارج على الميزانية في أثناء عطلة المجلس فيجوز للحكومة حينئذٍ تدبيره وانفاقه بموجب قرار يصدق عليه الملك على أن يقدم ذلك القرار للمجلس النيابي حين انعقاده.

١٠٣ ـ حكم كل ميزانية سنوية نافذة في تلك السنة فقط وإذا فسح المجال قبل التصديق على الميزانية فللحكومة العمل بحكم الميزانية السابقة بقرار يصدق عليه الملك إلى أن يجتمع المجلس.

١٠٤ ـ على الحكومة أن تقدم للمجلس النيابي الحساب القطعي لكل سنة في التي تليها ويتضمن هذا الحساب ما تحقق تحصيله من الدخل وما تحقق انفاقه من الخرج ويكون مرتباً بحسب مواد الميزانية وفصولها.

الفصل الثامن في ديوان المحاسبات

١٠٥ ـ يتألف ديوان المحاسبات من رئيس وأربعة أعضاء تنتخبهم الحكومة ويصدق عليه مجلس النواب ثم ترتفع أسماؤهم إلى الملك للتصديق على وظائفهم وتمتد وظائفهم إلى آخر حياتهم فلا يبدلون ولا يعزلون إلاّ بموافقة ثلثي الأعضاء الحاضرين في جلسة النواب وموافقة الملك وإذا وقع منهم ما يستوجب محاكمتهم من جراء وظيفتهم فإنهم يحاكمون في المحكمة العليا بموافقة ثلثي الأعضاء الحاضرين في جلسة النواب أيضاً.

١٠٦ ـ يدقق ديوان المحاسبات النظر في حسابات الحكومة العامة السنوية وحسابات المحاسبين ويراقب تطبيق الميزانية العامة ويرفع في كل عام مجلس النواب عند افتتاحه تقريراً عاماً يبيّن فيه نتيجة تدقيقه ومراقبته في تلك السنة وكذلك يرفع إلى الحكومة العامة في كل ثلاثة أشهر مرة تقريراً عن الأحوال المالية ويقدم إلى المجلس النيابي صور هذه التقارير.

١٠٧ ـ تنظيم أقلام هذا الديوان وأوصاف أعضائه وتفصيلات وظائفه وسائر ما يعود إليه من المعاملات تعيّن بقانون خاص.

الفصل التاسع في الموظفين

١٠٨ ـ يشترط في اختيار عمال الحكومة الموظفين الجنسية السورية والكفاءة والاستحقاق.

١٠٩ ـ تسن قوانين عامة تعيّن فيها وظائف الموظفين ودرجات صفوفهم وطرق تعيينهم وترقيتهم وحدود مسؤوليتهم.

١١٠ ـ كل موظف مسؤول عن أعماله في وظيفته بمقتضى القوانين والنظم الموضوعة.

١١١ ـ لا يجوز عزل موظف ولا تبديل غيره إلاّ بالأسباب المعينة في القوانين والنظم.

١١٢ ـ على الموظف إطاعة أوامر رئيسه في ما لا يخالف القوانين والنظم المقررة.

الفصل العاشر في المحاكم

١١٣ ـ المحاكم مستقلة ومصونة من كل تعد.

١١٤ ـ تأليف المحاكم ودرجاتها ووظائفها وصلاحيتها تعين بقانون خاص يشمل جميع المقاطعات.

١١٥ ـ انتخاب الحكام وتعيينهم ودرجاتهم وكيفية ترفيعهم وعقوبتهم تعين بقانون خاص يشمل جميع المقاطعات.

١١٦ ـ الحاكم لا يعزل ولا يجازى إلاّ بحكم.

١١٧ ـ المحاكمات تكون علنية ما عدا المحاكمات التي يجيز القانون جعلها سرية.

١١٨ ـ لكل أحد حق الدفاع عن نفسه في المحاكم بالوسائل المشروعة.

١١٩ ـ الدعاوى بين الدوائر الرسمية والأشخاص ترى في المحاكم العامة.

١٢٠ ـ لا يجوز تأليف محاكم غير المحاكم القانونية ولا تأليف لجان يكون لها صلاحية القضاء غير لجان التحكيم التي ينص عليها القانون.

١٢١ ـ لا تجتمع الحاكمية ووظيفة رسمية أخرى في شخص واحد.

الفصل الحادي عشر في المقاطعات

١٢٢ ـ المقاطعات تدار على طريقة اللامركزية في إدارتها الداخلية ما عدا الأمور العامة التي تدخل في خصائص الحكومة العامة كما هو مصرّح في مواد هذا القانون.

١٢٣ ـ لكل مقاطعة مجلس نيابي يدقق ميزانية المقاطعة ويسن قوانينها ونظمها المحلية وفقاً لحاجاتها ويراقب أعمال الحكومة وليس له أن يسن قانوناً يخالف نص هذا القانون الأساسي ولا القوانين العامة المعطى حق وضعها للمؤتمر.

١٢٤ ـ يشترط في أساس تقسيم المقاطعات أن لا تقل مساحة كل مقاطعة منها عن خمسة وعشرين ألفاً من الكيلومترات المربعة وأن لا يقل عدد سكانها عن خمسمائة ألف وأن تراعى فيها الارتباطات الطبيعية والاقتصادية.

١٢٥ ـ انتخابات المجلس النيابي للمقاطعة تكون على درجة واحدة. وأوصاف الناخب الأول وأوصاف النائب المعينة في المادة (٨٧) والمادة (٧٩) من هذا القانون تراعى أيضاً في انتخاب نواب مجالس المقاطعات ما عدا سن النائب في مجلس المقاطعة فإن الحد الأصغر لها يجب أن يكون خمساً وعشرين سنة.

١٢٦ ـ مدة أعضاء مجلس المقاطعة النيابي سنتان وتدوم نيابته إلى أن تتم الانتخابات الجديدة ويجوز إعادة انتخابه.

١٢٧ ـ ينتخب نواب مجالس المقاطعات بنسبة نائب واحد عن كل عشرين ألفاً من نفوس المقاطعة والكسر المعتبر فيما دون النصاب عشرة آلاف.

١٢٨ ـ يعين عدد نواب الأقليات في مجالس المقاطعات النيابية بنسبة مجموع نفوسهم في المقاطعة وبأن يكون لكل خمسة عشر ألفاً نائب واحد والكسر المعتبر في ما دون النصاب سبعة آلاف وخمسمائة.

١٢٩ ـ المقاطعات تسن القوانين الانتخابية لمجالسها النيابية.

١٣٠ ـ تبتدىء انتخابات مجالس المقاطعات النيابية في أول شهر تموز/ يوليو من كل سنتين وتجتمع في أول شهر أيلول/ سبتمبر من كل سنة وتدوم مدة اجتماعها شهرين ويجوز تمديد مدة الاجتماع إذا طلبه الحاكم أو سبعة من أعضاء المجلس ووافق على الطلب ثلثا الأعضاء الموجودين في الجلسة.

١٣١ ـ القوانين التي تسنها مجالس المقاطعات ترفع بواسطة الحاكم العام إلى الملك للتصديق عليها والأمر بتنفيذها

على أن يصدق عليها وتعاد إلى المقاطعات في مدة شهر واحد.

١٣٢ ـ إذا أعيدت القوانين المرفوعة من قبل المقاطعات بدون تصديق من الملك بدعوى مخالفتها للقانون الأساسي أو القوانين العامة نظر مجلس نواب المقاطعة فيها مرة أخرى فإذا أصرّ على الشكل الأول ولم يصدق عليه في المرة الثانية حكم مجلس الشيوخ وكان حكمه هو النافذ ويشترط في المرة الثانية أن يكون التصديق عليه أو تحويله إلى مجلس الشيوخ في مدة اسبوعين. وأما قانون الميزانية فيشترط أن يكون التصديق عليه أو إعادته في المرة الأولى في مدة اسبوعين ويشترط التصديق عليه في المرة الثانية أو تحويله إلى مجلس الشيوخ في مدة اسبوع واحد.

١٣٣ ـ يسن مجلس المقاطعة النيابي قانونه الداخلي وينتخب في كل سنة رئيسه ونائبه وكاتبه وهيئة إدارته.

١٣٤ ـ يدير المقاطعة حاكم عام يعينه الملك ويشترط في الحاكم العام أن يكون سورياً عربياً متصفاً بالصفات المشروطة في عضو مجلس الشيوخ.

١٣٥ ـ الحاكم العام يعين مديري دوائر المقاطعة الرئيسية خلا الدوائر المربوطة بالحكومة العامة كما هو منصوص في المادة... من هذا القانون، ويصدق على تعيين الموظفين المنوط به بحسب النظم المخصوصة وله حق الاشراف على الدوائر المربوطة بالحكومة العامة.

١٣٦ ـ الحاكم العام مكلف بإدارة شؤون المقاطعة وتطبيق ميزانيتها وتنفيذ القوانين فيها.

١٣٧ ـ الحاكم العام يقدم في كل سنة لمجلس نواب المقاطعة تقريراً عاماً في الأعمال التي قامت بها حكومة المقاطعة في أثناء السنة وفي الأعمال المنوي القيام بها في السنة القابلة ويقدم للحكومة العامة نسخة من هذا التقرير.

١٣٨ ـ إذا حدث خلاف بين الحاكم العام ومجلس نواب المقاطعة يحكم مجلس الشيوخ في هذا الخلاف ويكون حكمه قطعياً. ولمجلس الشيوخ أن يقترح إقالة الحاكم إذا رأى ذلك.

١٣٩ ـ إذا وقع من الحاكم العام ما يستوجب محاكمته من جراء وظيفته فإنه يحاكم في المحكمة العليا.

١٤٠ ـ لكل من الحاكم العام ونواب المقاطعة حق في اقتراح اللوائح القانونية لمجلس نواب المقاطعة.

١٤١ ـ إذا طلب سبعة من نواب المقاطعة تأليف لجنة تحقيقية من النواب لتحقيق حادثة من الحوادث المهمة التي تقع في إحدى دوائر الحكومة أو في ناحية من نواحي المقاطعة وقبل الطلب بالأكثرية تؤلف اللجنة وتباشر عملها وترفع نتيجة تحقيقاتها إلى المجلس وليس لها أن تتعرض للأمور التنفيذية.

١٤٢ ـ إذا عزي إلى نائب مجلس المقاطعة خيانة وطنية ووافق ثلث أعضاء المجلس على وجوب محاكمته فإنه يحاكم في المحكمة العليا.

١٤٣ ـ من حقوق المقاطعات تنظيم جميع أنواع المحاكم بدرجاتها بحسب قانونها الخاص كما جاء في المادة (١٢٠).

١٤٤ ـ تنقسم المقاطعة في إدارتها إلى متصرفيات ومديريات ويسن المجلس العمومي قانوناً خاصاً يبيّن فيه تنظيم هذين القسمين وخصائصهما وما يتبعه من تنظيم القرى وعمدها ووظائفهم.

الفصل الثاني عشر في مواد شتى

١٤٥ ـ يسن المجلس العمومي قانوناً يبيّن فيه كيفية إدارة العشائر وحل الاختلافات التي تحدث بينهم.

١٤٦ ـ كل مقاطعة تسن قانوناً لتنظيم بلدياتها على أساس الانتخاب وتبيّن فيه خصائصها ووظائفها.

١٤٧ ـ تظل القوانين الموجودة مرعية إلى أن تنقح أو تبدل.

الهوامش

(١) ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) «مذكراتي عن الثورة العربية»، لأحمد قدري. وكان حزب الاستقلال هو المظهر العلني لجمعية «العربية الفتاة».

(٣) قلنا عملياً. أما نظرياً فقد اهتم ديوان المعارف بترجمة الكتب ذات الصبغة العسكرية، منها ما كان في تعليم الفرسان وعلم الرماية ونظام الملابس العسكرية وفن الرماية المدفعية. كما نظمت المصالح العسكرية من دواوين وتجهيزات وتسليح وميرة ومخابرات.

واقترح ديوان الشورى الحربي إرسال بعثات عسكرية للتخصص في فن الطيران والمدفعية والاستحكام والدبابات والآلات الحربية من ضباط الاحتياط. وأعيد الاهتمام بالمدرسة العسكرية فوسعت وكانت قد أنشئت عقب تحرير البلاد من الأتراك وأجريت امتحانات الانتساب إليها في تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩١٩ لتخريج الضباط وأضيف إليها بعد فترة مدرسة نقباء الجيش، وجعلت مدة الدراسة فيها سنة.

أما الخدمة العسكرية الإجبارية فقد صدق المؤتمر السوري قانونها في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٩ وقد جعلت مدتها ستة أشهر وسن المكلف بها بين ٢٠ - ٤٠ سنة ويستثنى من الخدمة رجال الدين وموظفو الحكومة والمؤسسات الرسمية وطلبة العلم وذو العاهة المانعة من الخدمة.

ولما تشكلت وزارة هاشم الأتاسي التي اعتبرت وزارة دفاعية وتولى يوسف العظمة وزارة الدفاع استصدر ملحقاً لقانون التجنيد الإجباري يلغي استثناءات من قانون التجنيد فشمل الملحق معظم السكان باستثناء العشائر الرحل وقضاة الشرع والرؤساء الروحيين وذوي العاهات والمرضى، ويقبل البدل النقدي خمسين ديناراً، ويخير الموظف بين الخدمة الفعلية أو البذل والمواظبة على الوظيفة. ثم طلب التلاميذ للخدمة وألغي إعفاء المعيل ويعطى المحتاج خمسين قرشاً عن كل فرد.

ومن يتأخر عن تلبية النداء خلال اسبوعين أو يحتال بإحدى الطرق يؤخذ بدله النقدي من ماله المنقول والثابت ويستخدم كل طبيب حسب اختصاصه، كما يستفاد من العشائر عند الضرورة بموجب نظام خاص يسن في وقته.

الفصل السابع

إقرار الانتداب

إذا كان السوريون قد قرروا مواجهة أوروبا بالأمر الواقع بإعلان استقلالهم، فإن أوروبا قررت مواجهتهم بدورها بالأمر الواقع. وإذا كان الاستقلال السوري قد أعلن في ٨ آذار/ مارس سنة ١٩٢٠، وإذا كان مقرر هذا الاستقلال هو المؤتمر السوري، فإن مؤتمراً آخر كان يعقد بعد مضي شهر وبعض الشهر على قرار المؤتمر السوري هو مؤتمر (سان ريمو)، ويقرر ما ينقض قرار المؤتمر الأول.

والفرق بين قرار المؤتمرين أن ليس وراء قرار المؤتمر السوري سوى شعب أعزل لا يملك سوى بضعة عشر ألف بندقية مع ذخيرة محدودة لها، وبضعة مدافع مع ذخيرة هي الأخرى محدودة!

أما قرار مؤتمر سان ريمو فقد كان وراءه جيشان لجبان خرجا بالأمس منتصرين على أقوى قوة يمكن أن تناوئهما هي قوة ألمانيا.

اجتمع المؤتمر السوري في دمشق وأعلن الاستقلال في ٨ آذار/ مارس. واجتمع مؤتمر سان ريمو في ١٩ نيسان/ أبريل، وكان موضوع هذا المؤتمر هو تقرير مصير البلاد العربية التي كانت تابعة

لتركيا، وتقرير مصير تركيا المنهزمة في الحرب...

وأما تركيا فقد وضعوا لها ما أسموه معاهدة سيفر (Sivre) التي قضت بتمزيقها بين الدول والقضاء على استقلالها.

وأما البلاد العربية فقد قرر المؤتمر في ٢٥ نيسان/أبريل وضعها تحت الانتداب: سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الإنكليزي، مع فرض تطبيق وعد بلفور.

وحمل الجنرال اللنبي باسم حكومته قرارات سان ريمو إلى فيصل في ٢٧ نيسان/ أبريل طالباً إليه السفر إلى المؤتمر ليعرض عليه قضيته من جديد.

كما أرسل مليران رئيس الوزارة الفرنسية برقية مماثلة عن قرارات سان ريمو معلناً قبول فرنسا للانتداب. وقد رد فيصل على اللنبي رافضاً الانتداب ورافضاً وعد بلفور، كما رد على مليران بأن إعلان الانتداب أحدث اضطرابات في البلاد.

صك الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان

إن مجلس جمعية الأمم:

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على أن أراضي سوريا ولبنان التي كانت فيما مضى جزءاً من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعينها الدول المشار إليها إلى دولة منتدبة موكول إليها نصح الأهالي ومعاونتهم وإرشادهم في إدارتهم وفقاً لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم.

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد قررت أن الانتداب على البلاد الآنفة الذكر يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسية وقد قبلته.

ولما كان نص هذا الانتداب المبين في المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية وعرض للتصديق على مجلس جمعية الأمم.

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد بإجراء هذا الانتداب باسم عصبة الأمم طبقاً للمواد المذكورة.

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآنفة الذكر (الفقرة الثامنة) تقضي بأنه إذا كانت درجة السلطة والمراقبة والإدارة التي تجريها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقاً بين أعضاء جمعية الأمم فالمجلس هو الذي ينظم ذلك.

توضع نصوص الانتداب كما يلي موافقاً عليها:

١ ـ تضع الحكومة المنتدبة في برهة ثلاث سنوات اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستوراً نظامياً لسوريا ولبنان.

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية وتراعى فيه حقوق جميع السكان القاطنين في هذه البلاد ومصالحهم. وتشرع الحكومة المنتدبة في إيجاد الوسائل التي من شأنها أن تسهل تقدم سوريا ولبنان ورقيهما حكومتين مستقلتين وتسيرهم بموجب روح هذا الصك إلى أن يتم الشروع في تنفيذ ذاك الدستور.

ويجب على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلي قدر ما تسمح به الحال.

٢ ـ يمكن للحكومة المنتدبة أن تبقي جنودها في البلاد للدفاع عنها. وقد خُولت حق تنظيم جند من المليس المحلي للمحافظة على الأمن والدفاع عن الحوزة كما تقتضيه الأحوال وذلك ريثما ينفذ الدستور ويُعاد الأمن إلى نصابه،

وتنظم جنود المليس المحلي من سكان البلاد فقط.

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالإدارات المحلية تحت إشراف الدولة المنتدبة ولا يجوز استخدامها لأغراض أُخرى سوى الأغراض المعينة فيما تقدم إلاّ بعد موافقة الدولة المنتدبة.

لا مانع يمنع سوريا ولبنان من الاشتراك في نفقات القوات التي تضعها الدولة المنتدبة في البلاد.

يحق للدولة المنتدبة في كل حين أن تستعمل الموانى والخطوط الحديدية ووسائل النقل الموجودة في سوريا ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمهمات والوقود اللازمة لها.

٣ ـ يعهد إلى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سوريا ولبنان الخارجية ولها حق إصدار البراءات إلى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الأجنبية، وتشمل الدول المنتدبة بحمايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه الديار.

٤ ـ الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن أي جزء من أجزاء سوريا ولبنان وعن عدم تأجيره أو وضعه تحت سيطرة دولة أجنبية.

٥ ـ إن إعفاء الأجانب من الأمور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الأجنبية وبقاء القنصلاتو والحماية التي كانوا يتمتعون بها أيام الدولة العثمانية لا تطبق في سوريا ولبنان غير أن المحاكم الأجنبية تستمر على القيام بوظيفتها إلى أن يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة.

إن الدول التي كان أتباعها يتمتعون بالامتيازات الأجنبية

المبينة أعلاه أول آب/ أغسطس سنة ١٩١٤ والتي لم تتنازل عن هذه الامتيازات أو توافق على عدم تطبيقها لأجل محدود، ستمنح ثانية جميع هذه الامتيازات أو بعضها بعد انقضاء أمد الانتداب بالصورة التي يتم عليها الاتفاق بين الدول ذوات الشأن.

٦ ـ تضع الحكومة المنتدبة في سوريا ولبنان نظاماً قضائياً يصون حقوق الوطنيين والأجانب على السواء.

يحافظ على أحوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية وخصوصاً إدارة الأوقاف التي تدار وفقاً للشريعة ولإرادة الواقف.

٧ ـ تكون معاهدات تسليم الرعايا الأجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الأجنبية مرعية في سوريا ولبنان إلى أن يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن.

٨ ـ تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير وحرية القيام بجميع شعائر العبادة التي لا تخل بالأمن ولا بالآداب العامة ولا يكون تمييز من أي نوع بين سكان سوريا ولبنان بسبب الجنس أو الدين أو اللغة.

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام ويكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية. ولا تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم أبنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقاً لقانون التعليم العام الذي تعينه الحكومة.

٩ ـ تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل في أعمال المجالس الإدارية وفي إدارة الطوائف الدينية وفي إدارة المعابد المقدسة التي

تخص إحدى الطوائف وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد.

١٠ ـ تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سوريا ولبنان لأجل محافظتهم على الأمن وعلى الحكم بطريقة مرضية. ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيد أعضاءها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج أعمالهم عن أصول الدين.

يمكن لهذه البعثات الدينية أن تشتغل بأمور الإسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة أو الحكومة المحلية.

١١ ـ يجب على الحكومة المنتدبة أن لا تميز في سوريا ولبنان بين أتباعها وأتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الأمم، وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الأجنبية على أنواعها وأن لا تميز أيضاً بين أتباع أي دولة أجنبية وبين أتباعها في الأمور التي لها مساس بالضرائب والتجارة والملاحة وتعاطي الحرف والمهن أو في معاملة السفن البحرية أو الوسائط الهوائية وكذلك يجب أن لا يكون تمييز في سوريا ولبنان بين البضائع التي يكون مصدرها أو مقصدها ممالك تلك الدول المذكورة ويجب إطلاق حرية المرور التجارية عبر المنطقة المشار إليها بشروط عادلة.

للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر أعلاه أن تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التي تراها ضرورية أو أن توعز للحكومات المحلية أن تفرضها، وللدولة المنتدبة أو للدول المحلية التابعة لمشورتها أن تعقد بسبب الجوار اتفاقاً جمركياً خاصاً مع البلاد المتاخمة لها.

وللحكومة المنتدبة عملاً بشروط البند الأول من هذه المادة أن تتخذ الوسائل الفعالة التي تعتقد صلاحها لترقية الموارد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان.

تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون النظر إلى تابعية الأشخاص الداخلة دولهم في عداد جمعية الأمم بشرط أن لا تمس هذه الامتيازات سلطة الحكومة المحلية، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام. لا تمس هذه الفقرة تحديد سلطة الدولة المنتدبة في إيجاد الاحتكارات المالية التي ترقي مصالح سوريا ولبنان وتحفظ مواردهما المالية والمحلية، وعلى الحكومة أن تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة أو بواسطة شركة خاصة تعمل تحت إشرافها على شرط أن لا يوجد هذا العمل لا عمداً ولا بالواسطة احتكاراً خاصاً بالدولة المنتدبة أو برعاياها، أو يمنحهما ميزة في الأمور الاقتصادية والتجارية والصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع.

١٢ ـ تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سوريا ولبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن أو عساه يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الأمم بخصوص الاتجار بالرقيق، وبالعقاقير، وبالسلاح، والمعاهدات الحربية، وبالمساواة التجارية، وحرية العبور، والملاحة، والطيران، والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية، وباتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع والآداب والفنون.

١٣ ـ تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الأحوال الاجتماعية والدينية اتحاد سوريا ولبنان في الأمور ذات الفوائد العامة

التي تقرها جمعية الأمم لمنع الأمراض ومقاومتها وفي جملتها أمراض الحيوان والنبات.

١٤ ـ تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات ينطبق على الأحكام الآتية ويضمن هذا القانون لرعايا الدول الداخلة في جمعية الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية.

(١) يجب أن يفهم من لفظة «العاديات» كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠.

(٢) إن التشريع لحماية العاديات يجب أن يكون أجدر بالتشجيع منه بالتهديد ويجب على كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الإذن المذكور في الفقرة الخامسة أن يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه وينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه.

(٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات إلاّ لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن أخذه. ولا يتأتى إخراج شيء من العاديات من البلاد إلاّ بإذن تلك السلطة.

(٤) كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمداً أو إهمالاً يجب أن يجازى جزاء معيناً.

(٥) ممنوع كل حفر أو تنفيق لإيجاد العاديات إلاّ بإذن من السلطة ذات الشأن ويغرم المخالف لذلك غرامة مالية.

(٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية موقتاً أو أبدياً في الأراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية.

(٧) لا تعطى الرخصة بإجراء الحفريات إلاّ لأشخاص يقدمون أدلة

كافية على خبرتهم الأثرية وعلى الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص أن لا تستثني علماء أمة من الأمم.

(٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي. فإذا تعذر الاقتسام لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل.

١٥ ـ عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عنه في المادة الأولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي أنفقتها الحكومة المنتدبة لأجل تنظيم الإدارة وترقية الموارد المحلية والقيام بالمشاريع العامة التي أفادت إفادة خاصة وترسل نسخة عن هذه التراتيب إلى مجلس جمعية الأمم.

١٦ ـ تكون اللغة الفرنسية واللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين في سوريا ولبنان.

١٧ ـ تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتها خلال السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب ويرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والأنظمة التي تسن سنوياً.

١٨ ـ على مجلس جمعية الأمم أن يوافق على كل تعديل يطرأ على شروط هذا الصك.

١٩ ـ يستعمل مجلس جمعية الأمم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب لتحافظ حكومة سوريا ولبنان في المستقبل على علاقتهما المالية ومنها الرواتب القانونية التي منحتها إدارة سوريا ولبنان أيام الانتداب.

٢٠ ـ توافق الدولة المنتدبة إذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخلة في عضوية جمعية الأمم بخصوص تفسير شروط صك الانتداب أو تطبيقها على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشرة من مواد عهد جمعية الأمم هذا إذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بالمفاوضات.

صك الانتداب «على شرقي الأردن»

لأمين سر جمعية الأمم العام بخصوص تطبيق الانتداب الفلسطيني في شرق الأردن في ٢٣ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٢٢.

يتشرف أمين سر جمعية الأمم العام بعرض مذكرة لأعضاء الجمعية قدمتها الحكومة البريطانية في ١٦ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٢٢ بخصوص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني.

وقد صادق المجلس على هذه المذكرة بموجب قرار قرره أثناء انعقاده في لندن في ٢٤ تموز/ يوليو سنة ١٩٢٢ بشأن تطبيق الانتداب على فلسطين وسوريا.

* * *

مذكرة العضو البريطاني

١ ـ تنص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني على ما يأتي: يحق للدولة المنتدبة بإذن جمعية الأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ما تراه غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة من الشروط، وذلك في الأملاك الواقعة بين نهر الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين بعد وأن تضع من التدابير

لإدارة هذه الأملاك ما تراه ملائماً لتلك الأحوال على أن لا يعمل عمل يخالف شروط المواد ١٥ و١٦ و١٨.

٢ - تطلب حكومة جلالة الملك من المجلس وفقاً لشروط هذه المادة أن يقرر القرار الآتي: لا تطبق الشروط الآتية على نظام الانتداب الفلسطيني في القطر المعروف بشرق الأردن الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادي عربة والبحر الميت ونهر الأردن حتى النقطة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية.

وتلك الشروط الملغاة هي: الشرح الثاني والثالث من الديباجة.

المادة الثانية: في جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في الديباجة.

المادتان الرابعة والسادسة.

المادة السابعة: يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعوية الفلسطينية.

المادة الحادية عشرة: الجملة الثانية من الفقرة الأولى والفقرة الثانية. والمواد ١٣ و١٤ و٢٢ و٢٣.

وفي تطبيق نظام الانتداب على شرق الأردن تقوم حكومته بالأعمال التي تقوم بها حكومة فلسطين في فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة.

٣ ـ تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التي تقع على عاتقها في تطبيق نظام الانتداب على شرق الأردن وتتكفل بأن الشروط التي توضع لإدارة ذلك القطر وفقاً للمادة ٢٥ من نظام الانتداب لا توافق بقية شروط نظام الانتداب التي لم تشر إلى عدم تطبيقها في هذا القرار بحال.

عهد أنقرة الذي وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٢١

المادة الأولى: يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان أنه بعد التوقيع على هذا الوفاق تنتهي حالة الحرب بينهما ويبلغ ذلك في الحال إلى الجيوش والسلطات الملكية والسكان.

المادة الثانية: بعد التوقيع على هذا الوفاق يطلق سراح أسرى الحرب من الطرفين ويعاد جميع الفرنسيين والأتراك المأسورين والمسجونين على نفقة الفريق الذي أسرهم إلى أقرب مدينة تعين لذلك. ويستفيد من هذه المادة جميع الأسرى والسجناء من الفريقين مهما كانت مدة أو محل سجنهم وتوقيفهم أو أسرهم.

المادة الثالثة: بعد شهرين من التوقيع على هذا العهد على الأكثر تتراجع الجيوش التركية إلى الشمال والجيوش الفرنسية إلى جنوب الخط المعين في المادة الثامنة.

المادة الرابعة: يجري الإخلاء والاستيلاء اللذان يتمان خلال المدة المذكورة في المادة الثانية على الكيفية التي تعين بالاتفاق المشترك وذلك بواسطة لجنة مختلطة يعينها قواد الجند من الفريقين.

المادة الخامسة: يمنح الفريقان المتعاقدان العفو العام في الأصقاع التي تمّ الجلاء عنها وذلك بمجرد وضع اليد عليها.

المادة السادسة: تصرح حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا أن حقوق الأقليات التي جرى الاعتراف بها جهاراً في الميثاق الوطني سيوافق عليها على الأساس نفسه الذي عقد في الوفاق المتعلق بهذا الشأن بين دول التحالف وخصومهم وبعض أحلافهم.

المادة السابعة: تدار شؤون صقع الإسكندرونة إدارة خصوصية ويتمتع السكان الأتراك في تلك الأرجاء بجميع التسهيلات لترقية ثقافتهم وتكون للغة التركية صفة لغة رسمية.

المادة الثامنة: يعين الخط المذكور في المادة الثالثة ويحدد كما يلي: يمتد خط التخوم من نقطة يجري اختيارها في خليج الإسكندرونة في جنوب ناحية بياس مباشرة ويتجه إلى ميدان اكبس (تبقى محطة السكة الحديدية والناحية تابعتين لسوريا).

ومن هنا ينحني نحو الجنوب الشرقي بحيث يترك لسوريا مديرية مرسوى ولتركيا بلدة قارصايه مع مدينة كليس ثم يسير مع السكة الحديدية حتى محطة جوبان بك ويسير مع خط بغداد ويبقى سطحه للأملاك التركية حتى نصيبين. ومن هناك يتبع الطريق القديم بين نصيبين وجزيرة ابن عمر حتى يبلغ نهر دجلة وتبقى لتركيا نصيبين وجزيرة ابن عمر والطريق بينهما ويكون للبلدين الحقوق نفسها في الانتفاع من هذا الطريق.

وتكون المحطات في شعبة جوبان بك ونصيبين ملكاً لتركيا كأنها جزء من سطح السكة الحديدية.

وتتألف لجنة من مندوبي الفريقين في برهة شهر بعد التوقيع على هذا الوفاق لتحديد الخط المذكور وتبدأ هذه اللجنة بعملها في تلك المدة.

المادة التاسعة: يبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس

الدولة العثمانية (وهو القبر المعروف باسم تركيا مزاري) الواقع في قلعة جعبر مع كل ما يتعلق به ملكاً لتركيا تستطيع أن تضع فيه حراساً وترفع العلم التركي.

المادة العاشرة: تقبل حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا بنقل امتياز فرع السكة الحديدية البغدادية الواقع بين بوزانتي ونصيبين مع سائر الشعب الممتدة في ولاية أضنة إلى شركة إفرنسية تعينها الحكومة مع جميع الحقوق والفوائد والمنافع المتعلقة بالامتيازات ولا سيما فيما له علاقة بالاستثمار والاتجار.

يحق لتركيا أن تنقل منقولاتها العسكرية بالسكة الحديدية من ميدان اكبس إلى جوبان بك في أرض سوريا ويحق لسوريا أن تنقل مهماتها الحربية بالسكة الحديدية من جوبان بك إلى نصيبين في الأرض التركية. ولا تضاف زيادة عن أجور السكة في هذه الشعبة أو الفرع، وتحتفظ الحكومتان بحقهما في درس ما تقضي به الضرورة من الحياد إذا اقتضت الحال وذلك باتفاق الفريقين.

وإذا لم يتسن الاتفاق فكل فريق حر في عمل ما يراه.

المادة الحادية عشرة: تؤلف لجنة مختلطة بعد التصديق على هذا العهد لتعقد اتفاقاً جمركياً بين تركيا وسوريا وتحدد اللجنة شروط هذا الاتفاق ومدته ويكون للبلدين حق التمتع بحرية العمل ريثما يعقد هذا الوفاق.

المادة الثانية عشرة: تقسم مياه نهر قويق بين مدينة حلب والصقع الواقع إلى الشمال الباقي لتركيا قسمة عادلة يرتضي بها الفريقان.

ويتأتى لمدينة حلب أن تأخذ على حسابها من نهر الفرات شطراً من المياه من الأرض التركية لتستعملها في أرجائها.

المادة الثالثة عشرة: يظل سكان القرى أو نصف الرحالة من أهلها

ممتعين كما في السابق بحقوقهم في المراعي إذا كان لهم أملاك في إحدى الجهتين من الخط المعين في المادة الأولى ويتيسر لهم لضرورة استثمار أراضيهم أن يعملوا أحراراً لا يؤدون رسماً جمركياً ولا ثمن إلمراعي ولا أي رسم كان ويتنقلون من جهة إلى أخرى من هذا الخط مع مواشيهم وما تنتج وأدواتهم وآلاتهم وبذارهم وحاصلاتهم الزراعية وهم مكلفون بأن يؤدوا الحقوق والرسوم عليها في الأراضي التي ينزلونها.

الفصل الثامن

الحال في جبل عامل

خلال الأحداث التي مرّ الحديث عنها كان لجبل عامل موقف استقلالي بارز نكبه الفرنسيون من أجله نكبة فادحة.

وفي خلال انشغالنا في هذا الكتاب كتبَ أحدهم في إحدى الجرائد مقالاً له علاقة بهذا الموضوع ولكنه بعيد عن الحقائق فصححنا بعض ما ورد فيه بمقال قلنا فيه:

يقول الكاتب في عدد ١٩٩٥/٩/١٣ من «النهار» ما يأتي: «كان مؤتمر الحجير عام ١٩٢٠ آخر محطة للحركة الدينية ورجال الدين الشيعة في الشأن العام، والسياسي منه خاصة في الفترة الفاصلة بين سقوط الدولة العثمانية وقيام دولة الاستقلال».

ونقول: إن مؤتمر الحجير ليس محطة للحركة الدينية ورجال الدين الشيعة، ودور رجال الدين فيه لا يعدو دور أي جماعة من الناس حضرت ذاك الذي سماه مؤتمراً، في حين أن ليس له أن يسمّى إلاّ اجتماعاً.

وعمليات تزوير التاريخ لا تبدو واضحة كما تبدو في قصة اجتماع

وادي الحجير، وما حيك حوله من أساطير وادعي فيه من بطولات، وما روي من قصص وحكايات.

ولولا أنه قيض لأحداث تلك الأيام، الشيخ أحمد رضا فدوّنها يوماً يوماً وحدثاً حدثاً، لكان ما اخترعه المخترعون وادعاه المدّعون ـ ومنهم الكاتب ـ لكان ذلك هو الحق، في حين أننا حين نرجع إلى تدوينات الشيخ أحمد رضا ندرك أنه الباطل.

إن قصة اجتماع وادي الحجير هي كما يلي:

بلغ التأزم بين الملك فيصل وحكومته في دمشق وبين الجنرال غورو في بيروت مدى بعيداً، وبدا أن هذا التأزم ماضٍ إلى الاشتداد وأن يوم الإصطدام بات قريباً.

وأخذ الناس يتهيأون لهذا اليوم، وكان من هؤلاء الناس اثنان من زعماء الجولان، المنطقة الأقرب إلى جبل عامل، هما سعيد العاص وأحمد مريود، أحمد مريود البطل الشجاع الذي استشهد في معارك الثورة السورية سنة ١٩٢٥.

هذان الرجلان كانا يعدان للثورة على الفرنسيين في منطقتهما، فأرادا استطلاع أفكار رجال من يجاورهما من بلاد، محرضين لهم على الاعداد للثورة.

وكانت أقرب منطقة لمنطقتهما هي جبل عامل، وكان أمر جبل عامل في ذلك الوقت هو لكامل الأسعد، فجاء سعيد العاص وأحمد مريود إلى كامل الأسعد في بلدته الطيبة، وقالا له: إن الثورة لا بد منها ونحن نعدّ لها ونريد أن نعرف هل أنتم معنا أم لا؟

فقال لهما كامل الأسعد: مبدئياً نحن معكم، ولكن أمراً خطيراً

كهذا لا يصح أن أبتّ به وحدي، ولا بد لي من أن أجمع أهل الحل والعقد في جبل عامل وأعرض عليهم الأمر وهم يقررون ما يقتضي تقريره.

وبالفعل دعا كامل الأسعد جمهرة من قادة الرأي في جبل عامل إلى لقاء على نبع وادي الحجير، وتمّ اختيار المكان لتوسّطه بين المناطق العاملية، ولوجود نبع غزير فيه يكفي الواردين وخيولهم، لأن الماء في ذلك الحين كان عزيز المنال.

وكان من الطبيعي أن لا يقتصر الحضور على من دعوا، بل أن يشمل جمهوراً من الفضوليين، لأن دعوة يوجهها كامل الأسعد إلى نخبة من الناس ستثير الفضوليين وما أكثر الفضوليين.

وكنت أنا من هؤلاء الفضوليين وكنت في الثانية عشرة من عمري، وكان من النخبة المدعوة ابن عمنا السيد عبد الحسين محمود الأمين فرافقته مع من رافقه من بني عمومتنا.

وكان بين الحاضرين جماعة من رجال الدين مع جماعة من «البكوات» و«الأفندية» وكان شأن رجال الدين شأن غيرهم من الحاضرين، لولا أن أحد رجال الدين خطب خطبة لا صلة لها بموضوع الاجتماع، بل مناقضة لأهدافه وكادت تفسد هذه الأهداف.

واختلت النخبة المدعوة وعرض عليها كامل الأسعد ما جاءه به سعيد العاص وأحمد مريود، وبعد المداولة المستفيضة تقرر بالإجماع أن يعرض الأمر على الملك فيصل في دمشق فما يشير به يقره العامليون. ولما كان المؤتمر السوري قد أعلن قبل ذلك استقلال سوريا بملكية الملك فيصل فقد تقرر - مضافاً إلى المهمة الاستشارية

ـ تسطير رسالة مرفوعة إلى الملك فيصل توقعها النخبة في تأييد هذا الاستقلال وتأييد ملكية الملك فيصل وإلحاق جبل عامل بالمملكة السورية على أساس اللامركزية الواسعة.

بقي أمر اختيار الرجل الذي يحمل الاستشارة والرسالة إلى الملك فيصل، ولما كان هذا الاختيار يثير الحساسيات بين المتزاحمين على الظهور، فقد أرتئي اختيار رجل يجمع جبل عامل كله على تبجيله واحترامه، ولا يثير اختياره حساسية أي إنسان وهو الشيخ حسين مغنية، فلما عرض الأمر عليه اعتذر عن ذلك بانحراف صحته. وعند ذلك تقرر أن يكون الرسول لا فرداً بل ثلاثة أفراد كان اثنان منهما من رجال الدين. وكانت مهمة الوفد لا تعدو نقل المقررات إلى الملك فيصل وأخذ جوابه على الاستشارة.

هذا هو دور رجال الدين يومذاك، ولم يكونوا هم المتقدمين إليه، بل قدمهم غيرهم، ولم يكن آخر محطة لحركة الديني ورجال الدين الشيعة في الشأن العام، والسياسي منه خاصة: إذ لم يكن قبله محطات ليكون هو آخر محطة.

وما دام الكاتب لم يحدد مكاناً معيناً فإننا نقول له إن حركة رجال الدين الشيعة في الشأن العام الوطني لا السياسي كما قال الكاتب، لأن كلمة السياسي لا تنطبق على ما نعنيه، بل تنطبق كلمة (الوطني).

نستطيع أن نقول له إن هذه الحركة في الشأن العام، والوطني منه خاصة لم تكن لها محطات لتكون لها محطة أخيرة. إنها لم تتوقف منذ الحرب العالمية الأولى.

هذه الحركة التي كان رجلها السيد محسن الأمين، فعندما دخلت

الدولة العثمانية الحرب متحالفة مع الألمان على الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين رأى السيد محسن في هؤلاء ألد الأعداء للعرب، فالإنكليز يحتلون مصر والفرنسيون يحتلون شمال أفريقيا والإيطاليون يحتلون ليبيا. فاعتقد أن في هزيمتهم خلاصاً لتلك البلاد من استعمارهم لها. لذلك سارع إلى إصدار فتوى تدعو لتأييد الدولة العثمانية في حربها، وأعلن وجوب الجهاد في هذه الحرب. وهي فتوى نشرت نصها جريدة «المفيد» التي كانت تصدر في بيروت، ولا شك في أن جرائد أخرى نشرت ذلك النص، ولكن نحن لم نر النص إلاّ في جريدة «المفيد».

ثم خطب في هذا المعنى في مجتمع عام حافل محرضاً الجماهير على التطوع في القتال وتلبية نداء الحرب. ونص الخطاب لا يزال محفوظاً.

وفجأة تنتدب الحكومة العثمانية لحكم الولايات العربية في بلاد الشام كلها ممتدة سلطته حتى الحجاز ـ تنتدب لذلك رجلاً من أشرس رجالها وأسفكهم للدماء هو جمال باشا وتطلق يده إطلاقاً تاماً، فيجهر بنزعته الطورانية الهادفة إلى تتريك البلاد العربية، ثم يبدأ بتهجير الأسر العربية من بلادها إلى الأناضول، ثم يبطش بطشته الكبرى بإعدام نخبة قادة العرب ومفكريهم، وكان بينهم عبد الكريم الخليل تلميذ السيد محسن الأمين وصديقه كما كان بينهم أصدقاء له عرفهم في دمشق وعرف إخلاصهم ووطنيتهم.

وتكشفت عند ذلك حقيقة نوايا الرجال المسيطرين على الدولة والمعروفين باسم (الاتحاديين)، وبدت نزعاتهم الإلحادية واتجاهاتهم المتعارضة مع الإسلام، وبان الأثر الفعّال لبعض كبار زعمائهم من جماعة (الدونمة) وهم اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وظلوا يعرفون

بهذا الاسم (الدونمة) ومن أظهر من كان يسيطر على الحكم منهم (جاويد).

وعند ذلك تغير رأي السيد محسن بالدولة العثمانية.

وبانتهاء الحرب العامة انجلى أمر معاهدة «سايكس ـ بيكو» وبان ما يبيته المنتصرون من شر لبلاد العرب، فنظم سنة ١٩١٨ قصيدة أجمع مؤرخو الأدب العربي في سوريا على أنها فاتحة الشعر الوطني النضالي في بلاد الشام، وظل التلاميذ في مدارسهم والمناضلون في منتدياتهم يستظهرونها ويرون فيها أنشودة الكفاح الاستقلالي ومطلعها:

إن الحيـــاة تـــنـــازع وخـــصـــام

هيهات ما بسوى السيوف سلام

وانتهت الحرب والسيد محسن في قريته شقرا بجبل عامل، واحتل الفرنسيون الساحل السوري اللبناني، وبقيت للعرب المدن الأربع الداخلية دمشق وحلب وحمص وحماه وما إليها، وأخذ الفرنسيون يبثون دعاتهم في البلاد لتتعاطف مع القسم المحتل في الساحل، وتنبه السيد محسن لذلك، فقرر أن يستبق الأحداث فعمل على تشكيل وفد عاملي كبير يتمثل فيه العلماء والوجهاء والشبان، فيذهب هذا الوفد إلى دمشق معلناً ولاءه للحكم العربي الاستقلالي، وأن يكون عنوان رحلته تهنئة الأمير فيصل بالنصر ودخول دمشق، وبث السيد محسن رسله إلى قادة البلاد وممثليها فاستجابوا جميعاً، على أن يكون اللقاء في بلدة هونين، في يوم معين، ينطلق فيه الجميع على خيولهم قاصدين دمشق.

ولما كان الوصول إلى دمشق لا يتأتى في يوم واحد، وكان لا بد من المبيت في الطريق إليها، فكان القرار أن يتفرقوا قبيل المساء في

القرى المجاورة، فيقصد كل اثنين أو ثلاثة أو أربعة بيتاً من البيوت المضيافة للمبيت فيه.

ووصل الركب دمشق وأدى مهمته، فكان في ذلك حسم لموقف جبل عامل من قضية الاستقلال العربي. ومما يذكر في هذا المجال أن الشعر العاملي يظل حاضراً أبداً لا سيما في مثل هذه الحماسيات، وكان بين الذاهبين إلى دمشق الوجيه الحاج حسن دبوق وكان ـ إلى وجاهته السياسية ـ أديباً ينظم الشعر، فألقى أمام الأمير فيصل قصيدة جلّى فيها واشتهرت يومذاك في جبل عامل، واستظهرناها نحن في تلك السن، ثم نسيناها فيما نسينا، ولم يبق في الذهن منها إلاّ عجز بيتها الأخير، وكان هو بيت القصيدة وهو: «وتحيا ملوك توجتها العمائم» إشارة إلى الملك حسين والد الأمير فيصل.

وعاد العامليون بعد ذلك إلى جبلهم متفرقين وبقي السيد محسن في دمشق، يؤدي قسطه (في الشأن العام، والوطني منه خاصة) متكاتفاً مع العاملين متضامناً مع المناضلين.

دخل الفرنسيون دمشق وضاعت الأحلام وهوى الاستقلال وتفرق الشمل، ولكن بقي الصامدون صامدين، يحاولون جمع ما تبعثر من القوى. وكان دور السيد محسن الأمين هو الدور الذي تحدث عنه الأستاذ منح الصلح في مقال له في جريدة «الديار»، فبعد أن تحدث عن عبد الحميد بن باديس وأثره في تحضير الجزائر للثورة قال: «والنموذج الثاني بين رجال الدين على العلاقة الخلاّقة بين العمل الوطني والإسلام: هو المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين الذي كان في دمشق إمام العمل الوطني السوري ومرجع المذهب الشيعي الأعلى، فهو على الصعيد الديني لم يقل أثراً وسعة أفق عن

محمد عبده. وعلى الصعيد الوطني كان رأس الوطنيين السوريين، وفي بيته أعلنت الحركة الوطنية في سوريا سنة ١٩٣٦ الإضراب الخمسيني الشهير» (انتهى).

الزحف على جبل عامل

قرر الفرنسيون الزحف على جبل عامل بعد الاضطرابات التي حدثت فيه فأعدوا حملة مؤلفة من ٤٠٠٠ جندي فرنسي بقيادة الكولونيل (نيجر) منضماً إليهم مئات من المتطوعين المرتزقة وكانت الحملة تتهيأ في ١٨ أيار/ مايو سنة ١٩٢٠ للتقدم إلى جبل عامل بعد أن وصل قائدها نيجر إلى صور في التاريخ المتقدم، وكانت الخطة أن تنطلق الحملة في فصيلتين إحداهما من النبطية والثانية من صور، وفي العشرين من أيار/ مايو زحف نيجر من صور إلى البازورية التي كان قد هجرها سكانها ثم تقدم إلى جويا حيث أصبح على اتصال بالفصيلة الزاحفة من النبطية بقيادة (أورلابوس) التي كانت قد عسكرت في صريفا وتوحد عمل الفصيلتين، وفي مساء ٢١ أيار/ مايو انطلق لواء إلى طيرزبنة ليحتل الفجوة الشرقية الكبرى تسهيلاً لنفاذ الجيش إلى مضيق تبنين عند انبثاق الفجر ـ كما يقول مراسل فرنسي ـ وهنا قابله رصاص المقاومين، يقول المراسل الفرنسي: فقابلته العيارات النارية واضطر إلى الاشتباك بمعركة للاستيلاء على طيرزبنة (التي بدل اسمها بعد ذلك إلى الشهابية)، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد قام المقاومون بغارة مقابلة في الساعة الحادية والعشرين، وكان في حوزتهم رشاشات مكنتهم تحت ستار الليل من الاقتراب إلى المعسكر وأصاب منا ثلاثة قتلى وثلاثة جرحى بينهم ضابط صرعه الرصاص عن كثب.

وفي الثاني والعشرين من أيار/مايو زحفت فصيلة نيجر عند الساعة الرابعة صباحاً وكانت جميع الأكمات الشرقية والجنوبية أمامها آهلة بشرذمات صغيرة صممت على حماية المضيق والحؤول دون مزور الجيش وفتحت النار من مسافة بعيدة، ولكن الجيش استمر في تقدمة فاحتل مضيق كفردونين فدير انطار.

وفي الساعة السابعة وصلت إلى قرية (اليهودية) ـ التي صارت تسمى السلطانية ـ فصيلة أورلابوس المنطلقة من مجدل سلم واستدبرت المقاومين، فرأوا أن لا طاقة لهم بتلك القوات المنتشرة فانسحبوا.

ولم يتعرض الجيش في زحفه على بنت جبيل بأمر ذي بال وخلت الديار أمامه لأن الثوار اجتازوا الحدود الفلسطينية وتوقف الجيش في بنت جبيل ثلاثة أيام، وفي السادس والعشرين من أيار/ مايو غادر الجيش بنت جبيل وقام بطواف في وادي الحجير حيث كانت الديار تخلو أمامه باستمرار، على أن فصيلة أورلابوس التي سلكت الطريق إلى مارون قد وقعت في ذلك النهار على جماعات منهزمة بالقرب من سلعا وتعقبتهم فلاذوا بالمنطقة البريطانية.

وبعد أن يصف المراسل هجوم فصيلة أورلابوس على بلدة الخالصة في الحولة يقول: وفي التاسع والعشرين من أيار/ مايو عسكرت فصيلة أورلابوس في تبنين ولبثت هناك حتى رجع النصارى إلى قراهم وارتد سائر الجيش إلى صور حينما رجع السكان إلى الحقول على مألوف عادتهم وفي الثاني من حزيران/ يونيو تفككت حلقات التجريدة بعد أن أنهت مهمتها[1].

هذا ما ذكره المراسل أما ما لم يذكره فهو ما ارتكبته الحملة من فظائع قتلاً وحرقاً ونهباً وترويعاً وهدماً. وقد ذهب العشرات من

الأبرياء ضحية الوشايات الكاذبة، كما نهب الجنود بيوت القرى التي مروا بها وأحرقوا ودمروا القسم الكبير منها لا سيما في فرون وأرزون وتولين وعيناثا ومارون هذا فضلاً عما أصاب بلدة بنت جبيل من الاحراق شبه التام لها.

وكان المتطوعون الذين رافقوا الحملة يجمعون أثاث البيوت ويضرمون فيها النار بعد أن ينهبوا الأواني والأشياء التي يستطيعون حملها، ثم كان بعد هذا كله الإذلال العام لعلماء ووجهاء جبل عامل.

ففي الخامس من حزيران/يونيو سنة ١٩٢٠ أعلن الكولونيل نيجر انتهاء مهمة الحملة، ثم جمع علماء جبل عامل وأعيانه في صيدا بصورة مذلة وحشرهم في دار الأسقفية الكاثوليكية وقد بلغ عددهم المئة والخمسين وخطب فيهم قائلاً:

> إن جميع قرى العصاة التي ذهبنا إليها أحرقنا بيوت مجرميها ما عدا قرية بنت جبيل التي كانت مقر العصابة فقد ضربنا القسم الأكبر من بيوتها والآن ألقينا تبعة الحوادث على الطائفة الشيعية بجملتها، وذلك سواء بالاشتراك أو تدبير المذابح أو الذين كتموا أمرها عن الحكومة، حتى إن شيعيي صيدا مسؤولون عن الفظائع لذلك على وجوه وأعيان الشيعة التوقيع على شروط الجنرال غورو وإلاّ استأنفت الحملة أعمالها، على أن يتحمل الأهالي كل ما تحتاجه الحملة من ميرة وعلف ومأكل.

ولقد حظر عليهم الخروج من مكان الاجتماع وأمهلهم إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ليتداولوا ويعطوا الجواب على الشروط التالية:

١) دفع غرامة قدرها مئة ألف ليرة ذهبية.

٢) إرجاع المسلوبات التي لم تتلف.

٣) إعطاء تعهد خطي بالمحافظة على المسيحيين الذين يفضلون البقاء في بلادهم.

٤) جمع الأسلحة من أقضية صيدا وصور ومرجعيون.

٥) تسليم المجرمين أينما وجدوا.

٦) إلقاء المسؤولية عليهم عن كل أمر يجد وكل قتيل يقتل في الأقضية الثلاثة.

وفي الوقت المحدد كان المجتمعون قد قدموا تعهداً خطياً وقعوا عليه بأسمائهم، متعهدين فيه بدفع الغرامة وبمساعدة السلطة على جمع الأسلحة وتسليم المجرمين.

إفقار جبل عامل

المئة ألف ليرة ذهبية التي فرضت على أهل جبل عامل، استطاع جامعوها أن يزيدوها بما تفننوا فيه من أساليب الجباية إلى ما شاءت لهم مطامعهم وجشعهم.

ويقدر الشيخ سليمان ظاهر مقدار ما جمع بنصف مليون ليرة ذهبية، كما يقدر خسارة جبل عامل بالسلب والتخريب والنهب بمليوني ليرة ذهبية. كما يقدر سكان جبل عامل في ذلك الوقت بثمانين ألف نسمة. وقد اعتُمد في تقسيم المبلغ على القرى عدد نفوس كل قرية، وكان جبل عامل حديث عهد بانتهاء الحرب العالمية التي خرج منها جائعاً فقيراً فضلاً عن تشتت رجاله الذي جنّدتهم الدولة في ميادين القتال، وبمضي سنتين على انتهاء الحرب (١٩١٨ - ١٩٢٠) كان الجبل قد بدأ بالانتعاش انتعاشاً بطيئاً، فجاءته الآن هذه الضربة القاصمة التي حولته إلى فقر موجع استمر يعيش فيه حتى أواسط الحرب العالمية الثانية.

كان ما فرض على كل قرية أن تؤديه فوق طاقة تلك القرى، وكان يرافق الجباة من يرافقهم من الجند الذين كان على القرية أن تأويهم وتطعم عجماواتهم، فاضطر الناس إلى بيع كل ما يملكون من أبقار وأغنام وماعز، والتخلي عن كل ما له ثمن في البيع وانقطعت الموارد وضاقت الحياة.

الهوامش

(١) **الكتاب الذهبي لجيوش الشرق**، ترجمة ادوار البستاني، ص ٩٦.

الفصل التاسع

الموقف في لبنان

كما كان الفرنسيون محركين لذهاب الوفود إلى باريس لتثبيت حكمهم، كذلك حركوا من حرّكوا للاحتجاج على قرار المؤتمر السوري بإعلان الاستقلال التام وملكية فيصل، فاحتج البطريرك الماروني منكراً أن يكون اللبنانيون المشتركون في المؤتمر يمثلون الشعب اللبناني.

كما احتج مجلس الإدارة على ما ورد في قرار المؤتمر فيما يتعلق بلبنان. إلاّ أنه لم تمض ثلاثة أشهر حتى اجتمع مجلس الإدارة نفسه واتخذ القرار التالي:

إن مجلس إدارة جبل لبنان المؤلف نظاماً من ١٣ نائباً وفي الوقت الحاضر من ١٢ نائباً عاملاً بسبب خلو مركز أحد نائبي كسروان المستقيل قد وضع نهار السبت الموافق ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ بأكثريته الكبرى القرار الآتي:

إنه لما كان اللبنانيون منذ أعلنت الدول العظمى حق انشاء الحكومة الوطنية لشعوب هذه البلاد قد طالبوا وما زالوا يطالبون تأييد حقوقهم بتأسيس حكومة وطنية مستقلة.

ولما كان استقلال جبل لبنان ثابتاً تاريخياً ومعروفاً منذ أجيال طويلة وموقعه وطبيعة أهله المؤالفة للحرية والاستقلال منذ القدم مما يستلزم استقلاله وحياده السياسي أيضاً لوقايته من المطامع والطوارىء. وكان مع ذلك من أهم مصالحه وراحته شعور الوفاق وصفاء العلاقات مع مجاوريه، وقد دلّ على ذلك ما أحدثه التقاطع من ثوران الجهلاء لارتكاب الحوادث المؤلمة المقلقة المتسلسلة من السنة الماضية إلى هذه الآونة.

فبناء على ما تقدم قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلاً لوفاق يضمن حقوق البلدين المتجاورين سورية ولبنان ومصالحهما ودوام حسن العلاقات بينهما في المستقبل. وبعد البحث في هذا الشأن وجد أنه من الممكن الوصول إلى ذلك بمقتضى البنود الآتية:

١ ـ استقلال لبنان التام المطلق.

٢ ـ حياده السياسي بحيث لا يحارِب ولا يحارَب ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي.

٣ ـ إعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سوريا.

٤ ـ المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة مؤلفة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلسي لبنان وسوريا.

٥ ـ يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود الأربعة وضمانة أحكامها.

ولأجل التمكن من العمل بحرية وبمعزل عن ضغط وتأثير خارجي ولأجل السعي الناجح لدى المراجع الإيجابية لتقرير البنود الأربعة المتقدم بيانها والتي هي مطالب الأمة اللبنانية، ومصلحة لبنان

الحقيقية المنزهة عن المآرب والأغراض الخصوصية، وبالنظر لنيابة هذا المجلس عن الشعب اللبناني القانونية والمؤيدة مؤخراً أيضاً بأكثرية أصوات الشعب الكبرى، قد قررت أكثرية المجلس موقعة هذه المضبطة الانتقال والتوجه بالذات لملاحقة ومتابعة تقرير مضمون البنود الآنف بيانها، في أعمال القضية والمراجع الإيجابية وإبلاغ هذا القرار بكامله إلى المقامات الرسمية والسعي بالطرق الممكنة.

سعد الله الحويك (نائب الرئيس)، خليل عقل، سليمان كنعان، محمود جنبلاط، فؤاد عبد الملك، محمد الحاج محسن، إلياس الشويري.

وتخلف العضو الثامن وهو إلياس البريدي مع أنه متضامن مع الأعضاء الموقعين بسبب مرضه، وأرسل نسيبه ميشيل قاصوف فاشترك في اجتماعهم ووعد باللحاق بهم.

وكان قد سبق هذا القرار اتصالات مع دمشق قام بها (الأمير ألاي) سعيد البستاني، وكان يتردد على دمشق بغية إيجاد نوع من التفاهم بين لبنان وسوريا بحسنات الاتحاد الوطني بين البلدين الشقيقين ومهد للمعتمد العربي في بيروت أن يجتمع بأعضاء مجلس الإدارة وقد اتفقوا مع الحكومة العربية في دمشق بواسطة معتمدها في بيروت على استقلال لبنان التام وتوسيع حدوده وقرروا أن يرفعوا عريضة إلى عصبة الأمم وأن يوقعوها بهذا المعنى وأن يسافروا بأنفسهم إلى دمشق فحيفا فباريس لملاحقة قضية الاستقلال اللبناني التام بالاتفاق مع سوريا.

ولم يفاتح أعضاء مجلس إدارة لبنان زميليهما داود عمون وحبيب

السعد بهذه القرارات اعتقاداً منهم أن هذين العضوين هما لفرنسا قلباً وقالباً.

وكان لا بد للمسافرين من نفقات لم يكن يمكنهم تحملها فتطوع لدفع هذه النفقات عارف النعماني أحد كبار رجال الأعمال البيروتيين.

يقول عارف النعماني في مذكراته:

وبرزت مشكلة المال فاقترح بعضهم جمع المبلغ من بعض الاخوان فأجبته: بل أنا أدفع كل شيء، وقد دفعت عشرة آلاف وخمس مئة ليرة ذهبية وزعت على الأعضاء بنسبة ٩٠٠ ليرة لكل عضو.

وهنا قال أحد الاخوان إن المبلغ ضخم ويجب أن يحرر لك صك به، وبذلك نضمن سفرهم جميعاً بحيث إذا هم عدلوا عن السفر أعادوا المبلغ.

وهنا قال لي سليمان كنعان تعقيباً على هذا الاقتراح أنه موافق عليه ومستعد أن يوقع السند وحده، وقال إذا شئتم فإن صديقي الأمير أمين إرسلان يكفلني.

ووضع السند ووقعه سليمان كنعان بكفالة الأمير أمين لمدة خمسة عشر يوماً.

وفي العاشر من تموز/يوليو كان أعضاء مجلس الإدارة يتجهون إلى دمشق فرادى، وكان كلما وصل واحد منهم إلى المديرج يقبض عليه حتى قبض عليهم جميعاً.

أما كيف انكشف أمرهم فذلك أنهم كانوا يجتمعون في منزل نجيب الأصفر واثقين به في حين أنه كان جاسوساً عليهم، فكان يرفع إلى الجنرال غورو نفسه أخبارهم خبراً وراء خبر.

فأشاع الفرنسيون جواً إرهابياً محاولين كتم الأنفاس وضعضعة

النفوس، وفي هذا الجو الإرهابي الرهيب أحيلوا جميعاً إلى مجلس حربي فرنسي رأسه الكولونيل (ديفوكريسون) وبُدىء بمحاكمتهم محاكمة أريد بها قبل كل شيء إهانتهم وتحقيرهم فتولى ذلك بكل إتقان رئيس المحكمة والنائب العام العسكري فوجها إليهم كل ما يستطيعان توجيهه من العبارات المهينة المهددة المتوعدة[1].

ولما تقدم شهود الدفاع لأداء شهاداتهم كان الرئيس يعنفهم ويروعهم، وعكس الأمر مع شهود الحق العام فراح يثني عليهم ويتملقهم ويهنئهم على حبهم لفرنسا.

وعندما تقدم محامو الدفاع باعتراضهم على صلاحية المجلس العسكري وعلى خرقه البروتوكول الذي هو بمثابة الدستور اللبناني ومبادىء الحقوق الدولية، كان الكولونيل ديفوكريسون لا يأبه لذلك ويرد الاعتراضات غير مبال بما فيها من صواب ومنطق.

وبعد محاكمة استمرت يومين كاملين حكم عليهم بالنفي وبتغريمهم غرامات مالية باهظة وبإسقاطهم من الحقوق المدنية.

وظلوا يعاملون بتعذيب وتحقير، ثم أرسلوا إلى جزيرة كورسكا.

وبلغت أصداء ما جرى إلى المهاجر اللبنانية، فقامت جمعيات المهاجرين تحتج على ذلك. وتولت الجمعية اللبنانية التي كان قد ألفها خير الله خير الله في باريس إذاعة ما جرى على الرأي العام الفرنسي، وإبلاغه إلى البرلمان وإلى أعضاء الحكومة، فقامت ضجة في البرلمان تولى إثارتها النائب اندرن برتون، وعضو مجلس الشيوخ ورئيس لجنة الشؤون الخارجية فيه: فيكتور بيرار، فاستنكرا الأساليب التي اتبعت في المحاكمة وأظهرا براءة المحكوم عليهم ظلماً، وبينا عدم قانونية المحاكمة.

وانتقد المسيو برتون في جلسة ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢١ السلوك الذي اتبع في المحاكمة مما يتنافى مع العدل.

فرد رئيس الوزراء المسيو بريان قائلاً: إن احترام الطرق القانونية أمر سهل في بلاد حرة في وقت السلم، كما هي الحال في فرنسا. ولكن إذا وجد قائد في بلاد مضطربة وكان في حدودها مضطراً إلى مواصلة أعمال حربية دامية، وهو في كل حين عرضة للقتل كما جرى مؤخراً، فهل تريد والحالة هذه أن نحفظ المعاملات القانونية كلها حفظاً تاماً كما لو كانت المسألة في فرنسا؟ هل هذا عدل؟

فأجابه المسيو برتون: إذاً يا حضرة الرئيس فليعدموا الناس، لكن لا يقولوا إنهم يحاكمونهم.

أما الأحكام فكانت كما يلي:

١ ـ ينفى سعد الله الحويك شقيق البطريرك الحويك ٨ سنوات ويعيد من المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ١٤٠٠ ليرة ويغرم ٢٨٠٠ ليرة.

٢ ـ ينفى فؤاد عبد الملك ١٠ سنوات ويعيد ٨٠٠ ليرة من أصل المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ويغرم ١٦٠٠ ليرة.

٣ ـ ينفى خليل عقل ١٠ سنوات ويعيد ١٤٠٠ ليرة من أصل المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ويغرم ٢٠٠٠ ليرة.

٤ ـ ينفى سليمان كنعان ١٠ سنوات ويعيد ١٤٠٠ ليرة من أصل المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ويغرم ٢٨٠٠ ليرة.

٥ ـ ينفى محمد محسن ٨ سنوات ويعيد ١٤٠٠ ليرة من أصل المبلغ الذي تناوله لسفره ويغرم ٢٨٠٠ ليرة.

٦ ـ ينفى محمود جنبلاط ٧ سنوات ويعيد ١٣٥٠ ليرة من أصل المبلغ الذي تناوله لسفره ويغرم ٢٧٠٠ ليرة.

٧ ـ ينفى إلياس الشويري ١٠ سنوات ويعيد ١٥٠٠ ليرة من أصل المبلغ الذي تناوله لسفره ويغرم ٣٠٠٠ ليرة.

٨ ـ ينفى الأمير ألاي سعيد البستاني ١٠ سنوات.

٩ ـ ينفى الأمير أمين إرسلان ٦ سنوات.

١٠ ـ وحكم على عارف النعماني ورشيد عقل من أقرباء خليل عقل وإلياس الحويك ابن شقيق البطريرك الحويك بغرامات مختلفة وسجن تتراوح مدته بين ٤ سنوات و٩ سنوات.

يقول عارف النعماني في مذكراته:

وخصتني المحكمة دون الآخرين بمادة إضافية إذ حكمت علي بغرامة مالية قدرها إثنا عشر ألف وخمس مئة ليرة سورية وهذه خلاصة الحكم:

«إن المحكمة العسكرية الدائمة المنعقدة في بيروت تحكم على عارف النعماني بالحبس مدة سنتين وبغرامة مالية قدرها ١٢٥٠٠ ليرة سورية بتهمة تحريض ضد سلامة الاحتلال وبتموين ابن وزير الداخلية السورية بالمال».

وعلى أثر صدور الحكم قام الصديقان أحمد فخري بك وبترو طراد بمسعى لدى لجنرال غورو بإبدال حكم السجن بالإقامة الجبرية فنزل عند طلبهما.

وقد نقل المحكوم عليهم إلى جزيرة أرواد أولاً ثم إلى جزيرة كورسكا.

ويصف عارف النعماني في مذكراته كيفية نقلهم إلى جزيرة أرواد ثم إلى جزيرة كورسكا بما يلي:

بعد أيام من صدور الحكم كنا في جزيرة أرواد بصورة مزرية، ولم يطل الوقت أكثر من بضعة أسابيع حتى كنا ننقل إلى بيروت فوصلنا مرفأها في أول أيلول/ سبتمبر وهو اليوم الذي كان الجنرال غورو يحتفل فيه بإعلان لبنان الكبير.

وفي اليوم نفسه نقلنا إلى باخرة فرنسية لتحملنا إلى مرسيليا ومنها إلى كورسكا. وبعد خمسة أيام كنا في مرسيليا، فأمرونا بأن يحمل كل منا أمتعته فامتثلنا وسرنا وراء بعض الجنود الفرنسيين في طريق صعودي استمر أكثر من ساعتين، فوصلنا إلى بناء قديم يقف على بابه جندي بيده ورقة تحمل أسماءنا، فأخذ يقرأ الأسماء ويدخلنا إلى البناء. كانت ليلة مزرية تلك التي قطعناها، وكان أحدنا مصاباً بمرض السكري، ولم يكن موجوداً في الغرفة القذرة التي حشرونا فيها منافع عامة، ما اضطرنا أن نستجدي من الجندي الموكل بنا برميلاً كبيراً بأجر محترم.

وبعد بضعة أيام نقلونا إلى جزيرة كورسكا، ولما وصلناها طلبت إلى أحد أبنائها أن يرشدنا إلى بيت نستأجره فأرشدنا إلى قصر منيف وسط غابة كثيفة تنساب حولها الأمواه فاستأجرته بثمن باهظ وأنزلت اخواني الأحد عشر فيه.

وما هي إلاّ اسابيع معدودات حتى توثقت العلاقات بيننا وبين بعض أبناء كورسكا. وذات يوم حملوا إلينا سيفاً صغيراً جميلاً قالوا إنه أول سيف حمله نابليون وقاتل به وقدموه لي هدية فكافأتهم على هديتهم بمبلغ كبير من المال ساعدهم على إتمام بناء معبد في ضاحيتهم. ولم يزل ذلك السيف عندي.

وفي ١٠ شباط/فبراير سنة ١٩٢٠ التمست من الحكومة الفرنسية إذناً بالسماح لي بالسفر مدة شهر إلى منشستر لأتفقد تجارتي فيها. وفي ٢٠ آذار/ مارس سنة ١٩٢١ تلقيت الجواب بالموافقة على أن يرافقني رقيب فرنسي دائم، فسافرت إلى منشستر وقضيت أشغالي، وفي طريق العودة إلى باريس قابلت وزير الخارجية السيد بريان

وأقنعته بضرورة الموافقة على نقل المعتقلين من كورسكا إلى باريس ورجعت إلى الجزيرة.

وبعد أيام تلقينا خبراً من باريس بالموافقة على نقلنا، فشخصنا إلى باريس محروسين من الجند، وقابلنا وزير الخارجية وفي نهاية المقابلة سمح لنا بالإقامة في باريس بشرط أن نبقى قيد المراقبة وأن نسجل أسماءنا في سجل الشرطة كل يوم.

وبعد ثلاثة أشهر بعث إلينا الجنرال غورو بمشروع عريضة حمله شكري غانم وقال إذا وقّعنا على هذه العريضة فإن فرنسا توافق على إعادة حريتنا إلينا. وهذا نص العريضة:

إنني آسف جداً لما صدر عني نحو الحكومة الفرنسية التي لم نضمر لها إلاّ الخير والولاء، وما كان قصدنا فيما رمينا إليه الإساءة إليها، وحبنا التقليدي لها مشهور لدى العموم.

وبعد أخذ ورد بين المعتقلين وقّعها بعضهم ورفض البعض الآخر التوقيع. وكان من الرافضين سليمان كنعان والأمير أمين إرسلان وعارف النعماني.

وفي نهاية العام ١٩٢٢ سمح لي بمغادرة فرنسا على أن لا أدخل الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي أي سوريا ولبنان.

وفي ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٣ تلقيت عفواً ـ لم ألتمسه ـ من رئيس الجمهورية الفرنسية عن المدة الباقية. فعدت إلى بيروت (انتهى ما رأينا أخذه من مذكرات عارف النعماني لتعلقه فيما نحن بصدد تدوينه من تاريخ تلك الحقبة).

إن عارف النعماني الذي عاد من المنفى في أواسط تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢٣ لم يعد ليقر ويهدأ بعد أن لاقى ما لاقى من الترويع والنفي. ففي الشهر الذي عاد فيه من المنفى كانت البلاد أمام حدث اقتصادي خطير، فالفرنسيون قد عزموا على تأسيس

بنك الاصدار لسوريا ولبنان تأسيساً فرنسياً تتولاه أيدٍ فرنسية على رأسها (بيرار) مع جماعة ما أسموه بنك سوريا ولبنان.

فصمم عارف النعماني على مجابهة ذلك وأن يكون بنك الإصدار هذا لبنانياً بأيدٍ لبنانية ومال لبناني على أساس الذهب، فوضع بذلك تقريراً مفصلاً قدمه إلى الحكومة اللبنانية والمجلس النيابي. وكان بيرار وجماعة بنك سوريا ولبنان قد قدموا طلباً بتأسيس بنك الإصدار، وكان قيد الدرس في المجلس النيابي.

فاستدعي النعماني حكومياً للاجتماع باللجنة النيابية المكلفة بدرس طلب البنك وإبداء رأيه أمامها.

فلما تلقى الدعوة عمد إلى دعوة أصحاب المصارف العامة في بيروت ودمشق للاجتماع في مكتبه ودراسة الأمر معهم، فاستجاب للدعوة أصحاب بنك (مرقدة) في سوريا، وميشال شيحا، وحبيب طراد، ومصطفى عز الدين، ونجيب يوسف سرسق، وألفرد سرسق.

فاتفق الجميع على وجوب تأليف بنك إصدار وطني وقدموا طلباً بذلك للحكومة وللمجلس النيابي مع دفتر الشروط التي قرروها وكان أهمها تغطية النقد المصدر جميعه بالذهب.

يقول عارف النعماني في مذكراته:

«قدمت الطلب بنفسي مع الشروط مذيلاً بإمضائي بعد التفويض من لجنة البنك، وتضمن الطلب تعهد أعضاء اللجنة بتغطية رأس المال الأساسي، واكتتب كل منا بالمبلغ اللازم حسب الأصول، على أن تعرض أسهم البنك بعد ذلك على جميع المواطنين للاكتتاب.

ما كاد يصل الطلب إلى المراجع حتى قامت قيامة جماعة البنك ومناصريهم ودارت المساعي والمناورات لإحباط مشروعنا».

جرى هذا لا في عهد الجنرال غورو، إذ كان هذا قد استدعي إلى فرنسا وحلّ محله الجنرال (ويغان). فاستدعى ويغان النعماني لمقابلته وحاول ثنيه عن متابعة الأمر، ولكن النعماني لم ينثن.

فتُرك أمر إقناعه بالتهديد والوعيد إلى (اوبوار) الحاكم الفرنسي للبنان فاستدعاه إليه، وبعد جدال بينهما وإصرار النعماني على متابعة العمل في المشروع قال له أوبوار:

وماذا تفعل إذا ما تفرق من حولك الباقون؟

فقال النعماني: إني لا أعتقد ذلك أبداً...

ثم قال له أوبوار وهو يودعه: يجب أن تعرف يا مسيو نعماني أن (مدغسكر) ليست مثل كورسكا وأن الفرق بينهما بعيد جداً.

فأدرك النعماني أن الفرنسيين يهددونه بالنفي إلى جزيرة مدغسكر إذا بقي مصراً.

يقول النعماني: فذهبت وأنا أفكر بقول أوبوار إن الباقين قد ينصرفون من حولي. فذهبت باكراً إلى بيت بترو طراد ـ الذي كنا جعلنا منه مستشاراً قانونياً ـ وقصصت عليه ما حدث بيني وبين أوبوار، وطلبت إليه أن يرافقني إلى بيت نجيب سرسق ففعل، ولما سألنا عنه قيل لنا:

لقد تلقى ليلاً برقية من الإسكندرية وسافر في الحال عن طريق فلسطين، فساورني القلق... ثم مضينا إلى بيت ألفرد سرسق فألفيناه واقفاً أمام داره، وما كاد يرانا حتى اندفع مهرولاً نحونا وبادرني بقوله: كنت ذاهباً لزيارتك لأقول لك إن المسألة (تفشكلت)، ولكن تأكد أني باقٍ معك إلى النهاية، لقد غاب ابن عمي نجيب، وأما مصطفى عز الدين فلا أحسبك تجده إذا قصدته.

وتابعت طريقي إلى بيت مصطفى عز الدين فلم أجده وقيل لي إنه سافر إلى طرابلس وهو يعتزم السفر منها إلى رومانيا بشأن قضية (الكاز)...

وتوقع عارف النعماني أن ينفيه الفرنسيون إلى مدغسكر كما توعده أوبوار، لذلك ارتأى أن ينفي نفسه إلى مكان يختاره هو. فخرج في منتصف ليل النهار نفسه متجهاً إلى فلسطين عن طريق الناقورة...

ويقول عارف النعماني:

أما لماذا تشبثنا بتأسيس بنك الإصدار يومئذٍ فللأسباب الآتية:

١ ـ كان الذهب الموجود في سوريا ولبنان حسب الإحصاءات الموثوق بها والرسمية ستة عشر مليون ليرة ذهبية.

٢ ـ كان تأسيس بنك الإصدار يومئذٍ من السهولة بمكان من الناحية المادية ووفرة وجود الذهب في البلاد مع ما كان يجب أن يتبع ذلك من سياسة اقتصادية سليمة.

٣ ـ كان تأمين إدارة البنك برجال لبنان وسوريا ممكناً بما هو معروف عنهم من المقدرة الاقتصادية والتجارية.

٤ ـ لو تم تأسيس هذا البنك لحافظنا على ثروتنا الذهبية التي كانت في البلاد بقدر الإمكان ومنع تسربها إلى الخارج.

وبعملية بسيطة يستطيع أي إنسان أن يلمس الأرباح الفاحشة التي تسربت للخارج بواسطة البنك، وقد كان من حق البلاد أن تستفيد منها.

لقد كانت الليرة الذهبية عند صدور النقد السوري اللبناني بليرتين

لبنانيتين، وها هي اليوم (يوم كتب النعماني مذكراته سنة ١٩٥٣) بأربعين ليرة لبنانية. أما الستة عشر مليون ليرة لبنانية فقد انتهت في عام ١٩٤٨ الى نصف مليون وأظنها لا تزيد اليوم عن ربع مليون.

الهوامش

(١) قال البلاغ الرسمي بأن وسطاء حكومة دمشق رشوا ثمانية من أعضاء المجلس بمبلغ ٤٢ ألف جنيه.

الفصل العاشر

وزارة جديدة

أول وزارة بعد الاستقلال هي الوزارة التي ألفت برئاسة رضا الركابي. وبعد قرار مؤتمر سان ريمو استقالت الوزارة وألفت وزارة جديدة برئاسة هاشم الأتاسي كانت في كل مظاهرها وزارة دفاع تُعد للصدام العسكري.

وقد تلا وزير الخارجية عبد الرحمن شهبندر بيان الوزارة فكان في حقيقته رداً على مقررات مؤتمر سان ريمو، من الاصرار على الاستقلال التام والمطالبة بوحدة سوريا الطبيعية ورفض وعد بلفور ورفض أي تدخل أجنبي يمس السيادة القومية.

ثم باشرت الوزارة باتخاذ إجراءات دفاعية كتعديل قانون التجنيد الإجباري بزيادة الخدمة من ستة أشهر إلى سنة.

ثم تقرر إرسال وفد إلى أوروبا برئاسة فيصل، وطلب فيصل برسالة إلى رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ضماناً بعدم حدوث تغيير في الوضع العسكري على الحدود عند غيابه، ولكن الإنكليز لم يقدموا له أي ضمان، ولم يتعهدوا باتخاذ أي إجراء يتعلق برحلته إلى أوروبا.

وأرسل فيصل نوري السعيد إلى الجنرال غورو في بيروت ليخبره بعزمه على السفر إلى أوروبا على أن يعدّ له وسائل السفر البحري.

فأبلغ غورو نوري السعيد بأن دعوة فيصل إلى أوروبا ألغيت وأن إنذاراً سيصل فيصل من غورو بأمر من الحكومة الفرنسية خلال أيام وأن على فيصل وحكومته قبول شروط الإنذار الذي أطلع غورو نوري السعيد على محتواها.

وذاعت في دمشق أنباء الإنذار الشفهي ومحتواه فعقد المؤتمر السوري جلسة في ١٣ تموز/ يوليو وطلب من وزارة الأتاسي التصريح بما عندها، فألقى وزير حربيتها يوسف العظمة البيان التالي:

«أيها السادة

إننا نعتبر أن من واجبنا أن نطلعكم على الحالة في هذه الساعة الحرجة. أنتم تعلمون أن سياسة الوزارة كانت وما زالت أساساً لعملنا كما أنكم تعلمون أن هذه السياسة التي وافقتم عليها تتضمن الإبقاء على علاقات الصداقة مع الحلفاء وخاصة مع فرنسا وبريطانيا. وأن عملنا الدائم كان تحقيقاً لتلك الرغبات التي أبدتها البلاد بواسطتكم.

«لقد بوشرت المفاوضة واستمرت على أحسن الشروط، وكما تعلمون تلقينا قرار مؤتمر (سان ريمو) الذي يعترف بأن سوريا تؤلف دولة مستقلة. كما أعلمتنا بريطانيا من جهة أخرى بطريقة شبه رسمية أنها زيادة على ذلك تعترف بصاحب الجلالة فيصل ملكاً على سوريا.

لقد قررنا في هذه الأوقات أن نرسل بعثة إلى أوروبا لإتمام المفاوضات والحصول على حل نهائي طبقاً لرغباتنا الوطنية، كما أن رغبتنا أيضاً أن نثبت للعالم وللدول أننا لا نعادي أحداً، ولا نعارض قرارات مؤتمر الصلح، بعد أن تعهد المحافظة على شرفنا واستقلالنا.

لقد أبدى صاحب الجلالة رغبته أن يتوجه بنفسه إلى أوروبا ليحصل على حل سريع للقضية، وبفضل الاحترام الذي يتمتع به لدى رجالات الدول المتحدة، فإننا على ثقة تامة وأمل مكين بأن نزف قريباً إلى الشعب أخباراً سارة.

ولكن فجأة برزت الحالة الخطرة الحاضرة التي نبسطها لكم: أراد الجنرال غورو لأسباب نجهلها أن يغتنم مناسبة حشد جيوشه لكي يعارض أو يمنع سفر صاحب الجلالة. فأبلغ مندوبنا بعض الشروط التي قال إنه يريد أن يطلبها منا والتي لم نتسلم نصها الرسمي حتى الآن، ولذلك لم نتمكن من أن نبلغكم إياها ولا أن نعتبرها رسمية ما لم نتبلغ نصها المكتوب رسمياً.

إن بعض هذه الشروط هي على كل حال مخالفة ليس فقط لرغبات البلاد وتصميمها الثابت على الاستقلال، ولكنها مخالفة أيضاً لروح القرارات المتخذة في سان ريمو وللتعهدات الموقعة من فرنسا لأن في قبول هذه الشروط تقويضاً لسيادة البلاد واستقلالها من أساسه كما اعترفت بهما الدول في سان ريمو.

حشد الجنرال غورو جيوشاً على حدود المنطقة الشرقية جهتي الشمال والغرب ومن المحتمل أن يكون هذا الإجراء دعماً للطلبات التي تقدم بها والتي لم يصلنا نصها الرسمي كما سبق وقلنا. هذا عدا أنه أرسل جيوشاً فرنسية إلى رياق. ولقد أبلغ حاكم زحلة العسكري قائد قواتنا في رياق: بأنه احتل عسكرياً هذا المركز، كما أن الجنرال غورو أعاد إقامة القوة الفرنسية التي احتلت معلقة زحلة في السنة السابقة، ومن جهة أخرى أبلغنا الكولونيل كوس باسم الجنرال غورو بأنه احتل المركزين المذكورين لوجود قواتنا في مجدل عنجر.

ولكن من المعلوم أن مركز مجدل عنجر كان أقيم للمحافظة على الأمن العام في الجوار منذ بدء الاحتلال وأنه عزز أخيراً بعد حشد الجيوش الفرنسية على حدودنا.

وعليه اعترضت حكومتنا على هذه التدابير التي اتخذها الجنرال غورو، والتي لا تتفق مع التحالف وطالبت بعرض المسألة على الدول أولاً. كما أننا نعلم الأمة والعالم أجمع من على هذا المنبر بأننا لا نريد إلاّ السلم والمحافظة على شرفنا واستقلالنا، واننا لا نقبل بأية شروط مقيدة.

ثانياً: إننا نرفض كل شكوى يظن معها أو يكون منها مجال للظن بأننا نرغب في تعكير علاقات الصداقة التي تربطنا بحليفتنا أو بحلفائنا.

ثالثاً: إننا لا نرفض التفاوض وإننا على استعداد للمباشرة به، وإن بعثتنا التي يرأسها الملك فيصل هي على أتمّ الاستعداد للسفر إلى أوروبا لمواصلة المفاوضة، وإننا نقبل بكل حل لا يسيء إلى شرفنا ولا إلى حريتنا وعلى أن يكون قائماً على الحق.

رابعاً: وأخيراً إننا على أتمّ الاستعداد والتصميم للدفاع عن شرفنا وحقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها (انتهى).

ووقت كانت حكومة الاستقلال تلقي هذا البيان، كانت البلاد غارقة في فوضى لا مثيل لها، ولم يكن أحد يفكر في إعداد خطة المواجهة، ولم يكن أحد يفكر أن فرنسا خرجت من الحرب هازمة لألمانيا، وأنها لا تقاوم بالبيانات، بل لا بد من الاعداد والتفتيش عن السلاح لا في ساعة وقوع المعركة.

نص الإنذار

ننشر فيما يلي نص الإنذار الذي وجهه الجنرال غورو باسم فرنسا إلى الملك فيصل لا باعتباره ملكاً لسوريا، بل باعتباره أميراً حجازياً يقود جيشاً من جيوش الحرب ويحتل جزءاً من البلاد المفتوحة، ونلاحظ أن الجنرال يسمي الجيش العربي السوري بالجيش الشريفي

نسبة إلى اللقب الأول الذي كان يطلق على الملك حسين وابنه الملك فيصل، كما يسمي الحكومة بالحكومة الشريفية بهذا الاعتبار نفسه، أي أن فيصلاً هو الشريف فيصل ابن الشريف حسين وليس له إلاّ هذه الصفة.

وقد أرفق الجنرال إنذاره برسالة، يستهل بها الإنذار:

يا صاحب السمو أتشرف بأن أرسل مذكرتي المؤرخة ١٤ تموز/ يوليو، أقدمها إلى سموكم الملكي وأناشد أخلاقكم السامية ووطنيتكم الصحيحة وشعوركم الودي نحو فرنسا أن تقبلوها.

لقد برهنت فرنسا من جهتها على إخلاصها لسوريا بقبولها لمهمة إرشاد الدولة الجديدة وقيادتها بنزاهة. ولذلك أريد أن أظن أن سموكم الملكي سيصغي إلى صوت الحكمة في معالجة هذه القضية الخطيرة فلا يتضامن مع حكومة لا تمثل سوى الأحزاب المتطرفة من الشعب.

ولا أفكر أنني قادر على أن أعول في تنفيذ الضمانات التي تشرفت بطلبها على سموكم إذا تولت ذلك الحكومة فبقاؤها في مناصبها ينطوي على معنى العداء لفرنسا وقد بذلت جهودها لجر بلادكم إلى الحرب وإلقائها في أتون بلاياها ولن يعصمها سوى تصرف سموكم الملكي وحده.

وهذا نص الإنذار:

«باسم الحكومة الفرنسية، لي الشرف بأن أعرض على سموكم الملكي لآخر مرة، موقف هذه الحكومة إزاء السلوك الذي سلكته حكومة دمشق منذ مطلع هذا العام.

سادت السكينة سوريا إبان الاحتلال الإنكليزي ولم يتعكر صفو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلاّ لما حلّ جنودنا محل الجنود

البريطانية وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد من ذلك الحين.

ولقد أثرت هذه الاضطرابات في رقي سوريا ونظامها السياسي والإداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا وفي الاحتلال الفرنسي في المنطقة الغربية. فحكومة دمشق تحمل كل التبعة إزاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا بأن تمتعهم بحسنات إدارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة، وإن أماني الولاء والتعاون التي أظهرتها فرنسا لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون العربية على اختلاف مذاهبهم ويقطنون القطر السوري بحكم أنفسهم كأمة مستقلة قد أجاب عليها سموكم معترفاً بأن لسكان سوريا مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الأمة نظراً للتضعضع الذي أصاب البلاد من الإرهاق التركي والأضرار التي نتجت عن الحرب، وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها عصبة الأمم عندما تتحقق بالفعل. وقد دعا سموكم الملكي فرنسا إلى القيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية. ولما كنتم تفاوضون الحكومة الفرنسية في شهر كانون الثاني/ يناير الماضي وكانت العصابات الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة الغربية أرسل إلي مسيو كليمنصو البرقية الآتية:

«عندما بلغني خبر هجوم البدو في جنوب سوريا وشمالها قلت للأمير فيصل أنني اتفقت معه مؤقتاً على المبادىء وأنني أحافظ أتم المحافظة على كلامي ولكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من الاخلاص وأن يجعل سلطته محترمة على أنصاره فإذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذاً دقيقاً فالحكومة الفرنسية تستأنف العمل بحرية وتستعمل القوة لتأييد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر».

والبيان الآتي يوضح جلياً كيف أن حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية ومخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التي رمى إليها رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها:

١ ـ اعتداء جلي على قواتنا:

إن إصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية باستعمال سكة رياق ـ حلب الحديدية هو عمل عدائي بحت. فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لإعاشة إحدى فرقنا الفرنسية في الشمال وتمكينها من القتال وهذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة لتركيا التي انتزع الحلفاء الظافرون سوريا من ربقتها ودفاعاً عن حدود حكومة سوريا الجديدة التي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل.

إن حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا المحتلة. وهذا المبدأ أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب صراحة يوم ١٣ نيسان/ أبريل بالقول الآتي:

«لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً على الفرنسيين يجب علينا أن نملأ البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجياً وسيقود ضباطنا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته».

وإليك الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة:

في ١٣ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩١٩ هوجم موقعنا في تل كلخ بتحريض السلطة الشريفية في حمص وفي أواخر ذاك الشهر ذبح بدو محمود الفاعور الذي قلتم لي يا صاحب السمو الملكي أنه صديقكم الشخصي مسيحيي مرجعيون وهجم على جنودنا في ١٤ كانون الثاني/ يناير رافعاً العلم الشريفي.

وفي ٢٥ منه سنة ١٩٢٠ تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجموا جنودنا تحت قيادة ثريا بك (بركات) في قريق خان ثم في الحمام. وفي حزيران/ يونيو ثبت وجود أميرالاي ويوزباشي وستة ملازمين و٣١٧ رجلاً من الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل في ساحة مرجعيون وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي أربعة رشاشات ثقيلة وثلاثة خفيفة وخمسون صندوق ذخيرة وظهر أيضاً اشتراك محرضي المنطقة الشرقية في

الاضطرابات التي امتازت بمذابح (عين إبل) وفتنة الشيعة في شهر حزيران/ يونيو.

ثم إن منظمي العصابات محترمون كل الاحترام في دمشق.

وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار في المنطقة الفرنسية ذاتها.

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين لا سيما في جسر القرعون في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر حيث تقع التبعة على الضابطين الشريفيين واجد بك وتحسين بك..

وقد سوعد الشيخ صالح (العلي) بطل الفوضى والبغضاء لنا مساعدة مؤثرة مستمرة في جبال النصيرية.

ومن الممكن تعداد كثير من هذه الأمثلة وقد عرضناها على سموكم الملكي في حينها.

٢ ـ سياسة حكومة دمشق العدائية:

رأى سموكم الملكي إدخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا في حكومة دمشق وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى إنكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح، وقد تألفت الوزارة من أناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب لسوريا.

إن رفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً في ١٨ أيار/ مايو الماضي هو خطة عمياء تجر نتائجها المصائب على سوريا.

٣ ـ التدابير الإدارية ضد فرنسا:

إن التمتع الاقتصادي الظاهر في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد.

وكذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقة الفرنسية مبتدئاً من حماه

فدمشق فحلب، ثم إن السلطة الشريفية اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجياً داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعاً يقصد به إخراجنا.

ففي شهر آذار/مارس وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس بعد ذلك بقليل وفي نيسان/ أبريل جعلت حكومة حلب القصير قضاء شريفياً. ثم نصب قائمقام شريفي في جسر الشغور.

٤ ـ أعمال عدائية موجهة رأساً إلى فرنسا:

إن من كان صديقاً لفرنسا أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً به من السلطة ويعامل معاملة سيئة في أغلب الأحيان.

(وبعد أن يذكر الإنذار بعض الأمثلة يعود فيقول):

وعدد سكان المنطقة الشرقية الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عظيم جداً.

إن بث الدعوة ضد فرنسا في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق أشكالاً خبيثة أرادت السلطة الفرنسية أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتباع سياسة التساهل إلى النهاية.

وآخر هذه الأعمال وأظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس الإدارة باثنين وأربعين ألف جنيه مصري.

ولقد ألقت مخافرنا القبض على هؤلاء الأعضاء في ١٠ تموز/ يوليو بينما كانوا ذاهبين إلى دمشق لبيع بلادهم منكرين الأماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالإجماع تقريباً منذ عهد بعيد.

إن صحافة دمشق التي تفرط الحكومة في شد أزرها تواصل دائماً حملاتها على كل ما هو فرنسي وتقبح السلطة المحتلة في المنطقة الغربية وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا على سوريا وتهينني أقبح إهانة.

٥ ـ الاعتداء على الحقوق الدولية:

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سورياً لا بد أن يظل عثمانياً إلى أن يقتضي تنفيذ المعاهدة بتغييره أن لا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة وهو حارسها. ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا وقد تقرر التجنيد الإجباري ونفذ منذ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٩ مع أن البلاد لا تزال بلاداً أجنبية وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره عليه الشعب حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع. ونفذ في أناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية. ولاقى هذا التجنيد الباطل مقاومة نزيهة أدت في بعض الأحيان إلى إراقة الدماء.

ثم إن المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية يسن القوانين بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يُعترف بوجودها. وفضلاً عن ذلك فقد قدم اللقب الملكي لسموكم الملكي بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف التمرد على مؤتمر الصلح.

ولم تحترم الامتيازات الأجنبية فإن أحد رعايانا الأمير مختار الذي يمثل أسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد أوقف إيقافاً معيباً.

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً. فإن لواء من الجيش الشريفي أرسل إلى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذي تمّ في كانون الأول/ ديسمبر الماضي مع المسيو كليمنصو والذي يقضي أن لا تحتل في البقاع قوة شريفية أو فرنسية.

٦ ـ الأضرار التي أصابت فرنسا وسوريا من ذلك:

لم تستطع السلطة الفرنسية حتى الآن أن تنظم البلاد التنظيم الذي ننتظره منها لأنها اضطرت إلى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن

المتوالية ومواصلة المفاوضات السياسية الجدية العقيمة مع حكومة دمشق، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخير بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة دمشق ولا يمكن إلاّ أن تؤثر على التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو الاشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل.

ولقد بلغت حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد حداً دعا إلى استجلاب قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو إليه استبدال جنود إنكليزية وأن هذه الأسباب تدل دلالة كافية على أنه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومة جاهرت فرنسا إبان السكينة بالعداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأ عظيما بظهورها عاجزة عن تنظيمها وإدارتها.

لذلك ترى فرنسا أنها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان التي نالت من مؤتمر السلم مهمة الوكالة عليهم فأتشرف بأن أبلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي كما يأتي:

١ ـ التصرف بسكة رياق ـ حلب الحديدية لإجراء النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط في يد الترك(١).

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسي: إن هذا الانتداب يحترم استقلال أهالي سوريا ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من إرادة الشعب ولا يتضمن سوى معاونة بشكل

مساعدة وتعاون مع الدولة المنتدبة دون أن يتخذ مطلقاً شكل استعمار أو إلحاق أو إدارة تنفذ رأساً.

٣ ـ قبول الورق السوري: تصبح هذه العملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الأحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية.

٤ ـ تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداء لفرنسا. (ويعدد الإنذار بعضهم).

وهذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من نصف ليل ١٠ تموز/ يوليو (أي ١٤ منه الساعة ١٢ ليلاً) وتنتهي في ١٧ منه الساعة ٢٤ (أي الساعة ١٢ ليلاً).

فإذا جاءني علم من سموكم قبل هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم في الوقت نفسه إلى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة، ثم إن قبول الشروط الثاني والثالث والرابع يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ منه، أما تنفيذها بالتمام فيكون قبل ٣١ منه الساعة ٢٤ (نصف الليل).

وإذا كان سموكم الملكي لا يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط أتشرف بأن أبلغه أن الحكومة الفرنسية تكون مطلقة اليد في العمل. وفي هذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومة الفرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة. ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التي تحل بالبلاد فهي قد برهنت على تساهلها من زمن طويل وفي الآونة الأخيرة. فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر إليه إلاّ آسفاً ولكني مستعد له بمتانة لا تتزعزع (انتهى).

لم يكن وصول الإنذار مفاجئاً بعد أن كان قد نقل نوري السعيد

مضمونه شفهياً، ولكن كان المفاجىء هو حقيقة قوة الجيش السوري ومقدار ما يملك من أسلحة وذخائر.

بوصول الإنذار دعا الملك فيصل الوزراء للاجتماع في القصر الملكي في ١٦ تموز/ يوليو ١٩٢٠ وقد كان الوزراء ـ ما عدا رئيسهم هاشم الأتاسي ووزير الحربية يوسف العظمة ـ قد تلقوا دعوة من زميلهم وزير المعارف ساطع الحصري للحضور إلى منزله لبحث أمر هام وقف عليه مؤخراً، فعرّج الوزراء قبل ذهابهم إلى القصر على منزل الحصري، فقال لهم هذا نقلاً عن لسان ياسين الهاشمي رئيس ميرة الجيش سابقاً، إن الذخيرة والأعتدة الحربية الموجودة لدى الجيش لا تساعد على الدخول في حرب مع الفرنسيين مهما قصرت مدتها.

فدهش الوزراء لهذا البيان ثم واصلوا سيرهم إلى القصر الملكي حيث التقوا بالرئيس الأتاسي ووزير الحربية يوسف العظمة وعقدت الجلسة برئاسة الملك. فطرح عليهم الملك إنذار الجنرال غورو لبحث ما جاء فيه وإعداد الجواب. فوجّه معظم الوزراء سؤالاً عن مقدار الأسلحة والأعتدة والذخيرة المتوفرة لدى الجيش ليبنى على الأمر مقتضاه. فأجابهم وزير الحربية يوسف العظمة: لدى الجيش من العتاد ما يكفي لمقاومة الفرنسيين مدة من الزمن، وربما لدحرهم على أعقابهم إذا أداروا ظهورهم في أول ملحمة.

ولما طلب الوزراء من زميلهم وزير الحربية تقديم بيان خطي بوجود العتاد موقّع بتواقيع أركان الجيش أجابهم غاضباً: ألا تثقون بكلامي وأنا زميلكم المسؤول عن أمور الجيش؟

ولما قالوا له: ولكننا لا نرتبط بمصير الأمة وقبول الحرب أو رفضها إلاّ بعد الوقوف على إمكانات الجيش للدفاع ولو لبرهة من الزمن

يحول فيها دون تقدم العدو إلى العاصمة قبل وصول الخبر الحلفاء. فاستمهلهم مدة ساعتين دعا خلالها أركان الجيش فا: في غرفة نحو ساعة من الزمن، ثم حضروا معاً الاجتماع الوز المنعقد برئاسة الملك وهم: مصطفى نعمة وأحمد اللحام وشر الحجار ومصطفى وصفي وعارف التوام وحسن الصبان. فتلا الحربية البيان الذي قدموه والمتضمن أن وجود العتاد الحربي الجيش لا يزيد على مئتين وسبعين رصاصة لكل بندقية وثمانين لكل مدفع من المدافع السبعين.

وبعد مبادلة الآراء في هذا الاجتماع أظهر هؤلاء الأر استعدادهم للقيام بواجبهم العسكري وفي مقدمته الدفاع الوطن من كل اعتداء، دون أن يزيدوا شيئاً على بيانهم. ولما سـ هل يحتمل نفاد هذا العتاد في أول معركة دون أن تنتهي الحر وكيف العمل حينئذٍ؟ أجابوا على الشق الأول بقولهم: يحتمل. وعلى الشق الثاني: إن مهمتنا هي تنفيذ الأمر العسـ ولو أدى بنا إلى تضحية نفوسنا في سبيل الدفاع عن الوطن

حينئذٍ وبناء على طلب وزير الحربية أمر الملك بتعليق الـ للإستراحة والتفكير بهدوء.

وبالرغم من فقدان الملك ثقته بالإنكليز فقد أراد الاستئناس الجنرال اللنبي الذي كان يومذاك موجوداً في حيفا فأرسل إليه يسأله رأيه، فعاد المرسلون بنصيحة اللنبي بقبول إنذار غورو تـ لدخوله دمشق فاتحاً.

وفي اليوم التالي دعا الملك المؤتمر السوري إلى اجتماع يعقد القصر الملكي فلبى الدعوة جميع النواب فأوضح لهم الملك المو

على حقيقته وسألهم رأيهم فرد أحد النواب بلهجة شديدة مطالباً بتحقيق الوعود باستقلال سوريا، وساند بعض النواب زميلهم. أما الأكثرية الساحقة من النواب فلزمت الصمت.

هذا الذي ذكرناه مأخوذ مما كتبه يوسف الحكيم الذي كان وزيراً في وزارة هاشم الأتاسي وكان شاهداً حاضراً في تلك الأحداث.

ويروي يوسف الحكيم ما جرى يوم ٢٣ تموز بما يلي:

اجتمعت الوزارة برئاسة الملك في قصره حيث كرر وزير المعارف ما قاله ليلاً لجلالة الملك عن رحلته ومقابلته للجنرال غورو، وعلى هذا فإن الهدنة تنتهي في منتصف الليل فإذا لم تقبل شروط غورو الجديدة حتى منتصف الليل استعملت جيوشه حريتها في الزحف على دمشق.

حينئذٍ رأى الوزراء أن حراجة الموقف تستدعي تأليف وزارة عسكرية أو مدنية برئاسة عسكري، واقترح اسم رضا الركابي، ولكن الركابي اعتذر وقال إن الحالة الحاضرة أصبحت وخيمة العاقبة نتيجة للتهور الذي سلكه الشبان المهووسون، فعليهم أن يتولوا هم الحكم ويتحملوا تبعة ما بدأوه.

وأضاف قائلاً:

ولكني بصفتي العسكرية أضع نفسي تحت تصرف جلالتكم للذود عن الجبهة التي تأمرني بحمايتها والدفاع عنها ما دمت حياً.

ساد الوجوم على المجتمعين زمناً يسيراً بعد كلام الركابي، ثم أمر الملك بدعوة ياسين الهاشمي، فحضر على الفور، ولما كلّفه الملك بتأليف الوزارة اعتذر أيضاً مقدماً نفسه للدفاع عن النقطة التي تعين له عسكرياً. حينئذٍ استشاط وزير الحربية يوسف العظمة غيظاً ووجّه إلى ياسين باشا قاسي الكلام ومما قاله:

أنت يا باشا بلبلت الأفكار وفضحت أسرار الجيش بما نقلته إلى

بعض الوزراء عن عتاده مع أنك المسؤول عن تموينه، فلا يليق
التهرب من الحكم بعد أن أوصلتنا ببياناتك إلى الأزمة الحاض

فردّ عليه ياسين باشا قائلاً:

إني أوقفت الوزارة على حقيقة حالة ميرة الجيش لكي لا تن
بأقوالك وتسوق البلاد إلى حرب لا أمل لها في كسبها
مسؤولية التقصير فتقع على عاتق الذين خلفوني في رئاسة
وتولوا شؤون الدفاع (ويقصد بذلك يوسف العظمة).

فأجابه الملك:

ولكنك يا ياسين كنت رئيساً للميرة مدة عشرة أشهر، فلما
تعمل على تدارك الأسلحة اللازمة؟

حينئذٍ تقدم يوسف العظمة بحماسته المعروفة رافعاً التحية العس
للملك وقال:

إني مستعد يا صاحب الجلالة للدفاع عن الوطن بكل قواي
النفس الأخير إذا أوليتموني ثقتكم.

فشكره الملك على وطنيته وإخلاصه ودعا له بالتوفيق. ثم عينه
للقائد العام للقوات السورية، باعتبار منصب القيادة العامة يت
عادة الملك نفسه. (انتهى)

أما فارس الخوري الذي كان وزيراً في وزارة الأتاسي فقد روى
محمد الفرحان في كتابه (فارس الخوري)[٢] أنه بعد أن تَ
حقيقة العجز في الجيش وأخذ الفرنسيون يتقدمون، سأل يو
العظمة ما أنت صانع الآن وكيف نحارب الفرنسيين بلا سلا
فأجابه يوسف العظمة: إن خطتي هي أن أهاجم الفرنسيين
وأستولي على أسلحتهم وذخائرهم وأحاربهم بها، فأجابه ف
الخوري: إن هذه مغامرة قد تصيب وقد تفشل فهل يجوز لن

نعرض سلامة البلاد للخطر في مغامرة يائسة من هذا النوع؟! إلى ماذا كنت مستنداً في أقوالك أنك قادر على رمي الفرنسيين في البحر؟! فأجابه يوسف العظمة: كنت أريد بهذه الأقوال الإبقاء على معنويات جنودي قوية وإرهاب الفرنسيين كي لا يقوموا بعمل ضدنا.

ويكمل فارس الخوري حديثه قائلاً: ولكن يوسف العظمة لم يبق على اندفاعه هذا وحماسته تلك، فإنه ما لبث أن شعر بفداحة الخطر وعظم المسؤولية فوافق هو ووزير الخارجية على مطلب الجنرال غورو بإلغاء الجيش النظامي، كما ذهب بنفسه بمعية الرئيس هاشم الأتاسي لإبلاغ المؤتمر السوري قرار تعطيله. (انتهى)

ويقول أسعد داغر في (مذكراتي على هامش القضية العربية[٣]).

«وقد وجّه كثيرون من الوطنيين انتقادات شديدة إلى ياسين الهاشمي وسلقوه بألسنة حداد واتهموه بأنه توخى بما قاله التنديد بسياسة يوسف العظمة وضربه ضربة قاضية».

وقد حدّثني الشيخ محمد رضا الشبيبي في منزله ببغداد عن أحداث تلك الأيام التي شهدها بنفسه إذ كان يزور دمشق وعلى صلة دائمة مع الهاشمي الذي كان يسكن بيتاً مجاوراً للبيت الذي كان يسكنه الشبيبي ـ حدثني أحاديث سجلتها بعد وفاته عندما نشرت دراسة عنه في مجلة (العربي) قلت فيها: إن سلطات دمشق كانت ـ كما يقول الشبيبي ـ قد عرضت قيادة الجيش العامة في ساعة المحنة على بعض الضباط العراقيين المعروفين فاعتذروا بعد قيامهم بالكشف على وحدات ذلك الجيش وتفتيش الثكنات قائلين إن جيش دمشق أو ما يسمى كذلك في ذلك الحين لا يعول عليه

ولا يعتد به كماً وكيفاً، كما تحدث للشبيبي بذلك ياسين الهاشمي، عندما عرضت عليه قيادة الجيش فاعتذر بعد جولة قام بها على المعسكرات والثكنات، واجتمع على أثرها بالشبيبي وأعرب له عن رأيه بكفاءة ذلك الجيش، ومن ثم ركن إلى العزلة، وكانت عزلة هذا العسكري المعروف سبباً في مجاملة الفرنسيين المحتلين له. (انتهى)

أمام هذه الحقيقة اقتنع الملك واقتنع الوزراء بأن رفض الإنذار سيؤدي إلى الحرب وأن الحرب ستؤدي إلى الهزيمة السريعة وبذلك تدخل البلاد في الحكم الفرنسي المباشر، فالأفضل قبول الإنذار ثم العمل بعد ذلك على تخفيف شروطه بالمفاوضات.

وكان من شروط الإنذار تسريح الجيش، فلم تُستعمل الحكمة في تسريحه، وما حدث أنه جاء من قال للجنود الموجودين في الثكنة الكبرى (الحميدية): إنهم باعونا لفرنسا ولذلك سرحونا ليسلموا البلاد إليها، فثارت النخوة في نفوس الجنود وخرجوا من الثكنة بأسلحتهم هائجين يصيحون بسقوط الحكومة، ولم يبالوا بأن يعتدوا على الضباط.

وكان في قيادة المركز في شارع النصر عدد كبير من المجندين معدين للإرسال إلى القطعات، فعندما وصل أمر التسريح إلى قائد المركز جاء إلى الباب الذي كان مغلقاً ففتحه وقال للجنود: ليذهب كل منكم لحال سبيله فقد باعونا للفرنسيين وقبضوا ثمنكم وثمن البلاد. فخرج الجنود ثائرين ينادون بسقوط الحكومة واختلطوا بالجنود القادمين من ثكنة (الحميدية) وانضمت للجميع جماعات من الغوغاء، واندس فيهم من دعاهم إلى الهجوم على القلعة لأخذ السلاح الذي فيها، فاتجهوا إلى القلعة واقتحموا بابها ودخلوها بلا

مقاومة، وبدأ النهب، وأصبح كل شيء يوحي أن حرباً أهلية ستقع لأن المدينة كانت مليئة بالسلاح.

وهنا ظهر الأمير زيد متجهاً بسيارته نحو القلعة يرافقه أحد الضباط حاملاً رشاشاً وفاجأ المتجمهرين بإطلاق النار عليهم فأخذوا يفرون حاملين ما أخذوه من أسلحة وغير أسلحة، وأسفرت الواقعة عما لا يقل عن مئتي قتيل.

ويقول صبحي العمري في كتابه[٤]. وهو الذي كان يشهد ما يجري بأنه:

«لولا هذه الحركة الجريئة التي قام بها الأمير زيد ومغامرته بنفسه لكانت الفوضى قد توسعت حتى شملت دمشق بأسرها».

أما أمر التسريح في الجبهة فيرويه المقدم حسن الهندي قائد اللواء الأول من الفرقة الأولى الذي كان مرابطاً عند (المصنع) لصد التقدم الفرنسي من سهل البقاع: تبلغ يوم ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٢٠ أمراً تلفونياً من قيادة الفرقة هذا نصه:

«المسألة حلّت صلحاً مع الفرنسيين، غداً صباحاً تحركوا إلى دمشق».

وبينما كان اللواء متهيئاً للحركة على جانبي الطريق جاء قائد الفرقة تحسين الفقير ووقف أمام الجنود والمتطوعين وأبلغهم بوقوع الصلح وأن الجنود حين يصلون إلى دمشق ويسلمون أسلحتهم سوف يسرحون وتابع سيره إلى دمشق. وتحرك اللواء نحو دمشق ولكن النظام والضبط أخذا يضيعان وصار الجنود يسيرون دون نظام وبعضهم يطلق الرصاص والبعض يتمرد على ضباطه.

وحين خرجوا من وادي القرن وجد قائد اللواء قائد نقطة ميسلون ينتظره في مخرج الوادي ليبلغه أن الفرنسيين حنثوا باتفاقهم وأنهم

يزحفون خلفه ويبلغه أمر وزارة الحربية بالوقوف والدفاع في ميسلون. وكان من جراء أمر التسريح على تلك الصورة واختلال النظام أن فقد هذا الإلغاء تأثيره فبدأ الجنود وبعض الضباط يتركون قطعاتهم متوجهين إلى دمشق.

وعلى هذه الصورة جرت عمليات التسريح في سائر قطعات الجيش.

وهنا لا بد لنا من تبيان ما كان يتشكل منه الجيش العربي السوري: كان هذا الجيش يتكون من ثلاث فرق في كل فرقة لواء خيالة يضم ثلاث سرايا فرسان وسرية رشاش، ومن ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدفعية وسرية هندسة وسرية مخابرة وسرية نقل وسرية مقر. ولواء المشاة يضم ثلاثة أفواج ويضم الفوج ثلاث سرايا مشاة وسرية رشاش وفصيل مخابرة وفصيل نقل. وتتشكل كل سرية من ثلاثة فصائل مشاة ومقر، ويتشكل الفصيل من ثلاث جماعات كل جماعة من ثمانية جنود وضابط صف يقودهم ضابط برتبة ملازم. أما لواء المدفعية فيضم كتيبتين كل كتيبة تتألف من بطاريتين ما عدا كتيبتي الفرقة الأولى اللتين كانت تتألف الواحدة منهما من ثلاث بطاريات. والبطارية تتألف من مدفعين من عيار ٧,٥ أو ١٠,٥م. وكانت القيادة العامة للجيش قبل إعلان الاستقلال وتأليف الوزارة ـ ممثلة برئيس ديوان الشورى الحربي، وبعد ذلك أصبح القائد العام هو وزير الحربية تعاونه هيئة أركان، كان يرئسها العقيد أحمد اللحام وتتألف من شعب: الحركات، والاستخبارات، والتسليح، والتموين والإدارة.

وكان الجيش موزعاً على ثلاث مناطق:

الفرقة الأولى: مقرها دمشق تتبعها من الشمال حمص وتنتشر

جنوباً حتى (شيخ مسكين) في حوران، وكان يقودها العقيد تحسين الفقير.

الفرقة الثانية: مقرها درعا، وتشمل ما بين (شيخ مسكين) شمالاً حتى معان جنوباً، وفلسطين غرباً، وكان يقودها العقيد إسماعيل الصفار، وهو عراقي.

الفرقة الثالثة: مقرها حلب، وتشمل ما بين شرقاً العراق، وشمالاً طرابلس، وغرباً المنطقة الساحلية المحتلة من الفرنسيين، وجنوباً حماه، وكان يقودها العقيد محمد إسماعيل الطباخ.

ومن المفترض ـ بحسب ما ذكرنا ـ أن لا يقل عدد هذه الفرق الثلاث عن ٢٥ ألف جندي، في حين أن مجموع الجيش لم يبلغ تعداده أكثر من ٨٠٠ ضابط و٦٨٩ ضابط صف و٤٧٣٤ جندياً، موزعاً في منطقة واسعة لا يتناسب اتساعها مع عدده، ممتدة من دير الزور حتى معان.

ولما بدا أنه لا بد من وقوع الحرب جعلت وزارة الحربية من حمص وحماه قيادة ولّتها إلى المقدم يحيى حياتي. وأتت من الفرقة الثانية بما بقي من لواء الخيالة وهو ستون خيّالاً وبطارية من أربعة مدافع، ووضعت ذلك بأمرة قائد الفرقة الأولى.

وأنشأت مراكز دفاعية كما يلي:

يحفوفة: للدفاع عن وادي بردى إذا حاول الفرنسيون اجتيازه، والتعاون إذا اقتضى الأمر مع قوة مجدل عنجر.

حاصبيا: فوج من اللواء الثالث مع مدفعين لستر الجناح الأيسر للقوة المدافعة عن مجدل عنجر وتأمين قطنا.

القنيطرة: فوج من اللواء الثالث مع مدفعين لتنسيق قوة المتطوعين في هذه المنطقة وإعدادها للنجدة.

ويرى صبحي العمري(٥) وكان ضابطاً في الجيش العربي أنه: بهذه الترتيبات مزقت قوات الفرقة الأولى التي كان منوطاً بها أمر الدفاع عن العاصمة. وأن في ذلك مخالفة لأهم قاعدتين من قواعد الحرب في كل خطة حربية، وهما: التجمع والاقتصاد بالقوة.

ولسنا نحن عسكريين لنحكم بين الرأي الذي ارتآه صبحي العمري، وما نفذته القيادة...

القوة التي واجهت الجيش الفرنسي

بعد التوزيع الذي أشرنا إليه للقوات العربية والتي ذكرنا أن عددها لم يكن يتجاوز (٦٢٢٣) ضابطاً وجندياً، وأنها منتشرة في المدى الواسع الممتد من دير الزور حتى معان، نرى أنه لم يبق لصد الجيش الفرنسي الزاحف سوى فوجين من اللواء الأول. هذا قبل قرار التسريح، أما بعد القرار فلم يبق سوى ٥٣ جندياً.

وبعد قرار العودة إلى الحرب كان في ميسلون هذا المقدار من القوات:

١٥٠ من فوج الدرك الاحتياطي، حوالى مئة خيال، ٣٠٠ هجان حجازي كانوا الحرس الخاص للملك فيصل، ٦٠ جندياً من الحرس الملكي النظامي، ١٦ ضابطاً و١٣٧ جندياً من بقايا اللواء الأول و٢٣٩ متطوعاً منهم ١٥ بدون سلاح، ١٦ ضابطاً و١٦٠ جندياً و٢٦٠ متطوعاً منهم ١٥٠ بدون سلاح وهؤلاء كلهم بقايا اللواء الثاني، سرية الهندسة، مدفعية الفرقة، بطارية صحراء ٤ مدافع،

بطارية ونصف مدافع جبلية عيار ٧,٥سم ٦ مدافع، بطارية ٤ مدافع، نصف بطارية اوبوس مدفعين.

ويقول صبحي العمري إنه كان من الصعب معرفة حقيقة ما وجد من القطعات بعد صدور أوامر التسريح وبعد أن ترك عدد كبير من الضباط والجنود قطعاتهم وتوجهوا إلى دمشق مخالفين الأمر اللاحق الذي صدر بالدفاع في ميسلون.

يقول صبحي العمري: لولا جدولان وجدناهما في مذكرات قائد اللواء الأول حسن الهندي يذكر فيهما موجود لوائه والفوج الأول من اللواء الثاني الذي ألحق به مع من التحق بهم من المتطوعين، لولا ذلك لما أمكن الحصول على مصدر يطمأن إليه في معرفة عدد المحاربين يوم ٢٤ تموز.

ويقول إنه تأكد من بقية الأعداد الأخرى من كل من النقيب عزت الساطي ومن الملازم عبد الله عطفة، فضلاً عما كان يقوده هو نفسه.

ويبقى مجهولاً عدد الخيالة المتطوعين من أبناء دمشق ودوما وما حولهما الذين ألحقوا قبل المعركة بالقرب من خان ميسلون، ويقدر العمري عددهم بمئة خيال يركب بعضهم الخيل الأصائل، وبعضهم: الكدش، وبعضهم: البغال.

أما القوة الفرنسية الزاحفة فكانت:

فرقة مشاة مؤلفة من ستة أفواج تتجه من قطمة للاستيلاء على حلب، فرقة مشاة مؤلفة من سبعة أفواج تتجه من طرابلس وتل كلبخ للاستيلاء على حمص، وفرقة مشاة مؤلفة من اثني عشر فوجاً وست كواكب خيالة وسبع بطاريات مدفعية تؤلف ٤٢ مدفعاً

وسرية دبابات وأربعة أسراب طائرات ثلاثة منها أسراب قصف وسرب واحد للاستطلاع ومجموعها ١٨ طائرة.

ولا يقل عدد أفراد هذه الفرقة عن خمسة عشر ألف مقاتل، وهي الفرقة التي زحفت بقيادة الجنرال غوابيه إلى دمشق واصطدمت بالقوة العربية في ميسلون.

الموقف على حقيقته

المفاجأة المذهلة بحقيقة قدرة الجيش العربي على القتال ومقدار ما يملكه من سلاح وذخائر هدّت عزائم الملك فيصل وحكومته، فكان لا بد من مخرج للموقف الخطر الذي أصبحت تواجهه البلاد، فارتئي التسليم بشروط الجنرال غورو وقبول انذاره لأن ذلك يحمي دمشق من الاحتلال الفرنسي، ثم يمكن بعد ذلك الحصول على شروط أفضل بمفاوضات يكون لها متسع من الوقت في الأيام القادمة. فأرسلت الحكومة برقية للجنرال غورو بقبول إنذاره وبدأت بتطبيق هذا القبول فسرحت الجيش. ولكنها فوجئت بأن جيش الجنرال يواصل زحفه باتجاه دمشق مدعياً بأن برقية القبول وصلت متأخرة عن الموعد المحدد نصف ساعة، فلو كانت النيات سليمة لما كان لهذا التأخر البسيط من أثر، ولكن الجنرال غورو كان يطمح بأن يكون فاتح دمشق، فاتخذ من تأخير نصف ساعة وسيلة لمواصلة الزحف.

ففي صباح يوم ٢١ تموز/يوليو ١٩٢٠ تلقى الجيش الفرنسي أمر الجنرال غورو بالتقدم، وكان هذا الجيش قد احتل في ١٢ تموز/ يوليو (المعلقة) و(محطة رياق) التابعتين للحكم العربي، في حين أن القسم الأكبر من قواته كان محتشداً في (المريجات) ومقدمته في (شتورة) واحتياطه في صوفر، وفي ١٤ تموز/ يوليو أرسل الجنرال

غورو إنذاره إلى الملك فيصل. وفي الساعة الأولى من يوم ٢١ تموز/ يوليو أخذ الجيش باجتياز سهل البقاع واحتل موقع (مجدل عنجر).

جرى ذلك دون إطلاق رصاصة واحدة لأن الحكومة العربية كانت قد قررت قبول شروط الإنذار وسرّحت الجيش وأمرت القطعات بالإنسحاب إلى دمشق.

ووصلت مقدمة الجيش الزاحفة إلى عين (جديدة يبوس) مجتازة وادي الحرير، كما وصلت الخيالة إلى منطقة (ينطة) المشرفة على ميسلون من الغرب، وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر ٢١ تموز/ يوليو ١٩٢٠ وصل الجيش كله إلى المرتفعات التي تحد سهل جديدة يبوس من الشرق وتسيطر على وادي القرن ووادي الزرزور فعسكر القسم الأكبر منه في عين الجديدة بعد أن اجتازت مقدمته وادي القرن واحتلت المرتفعات المطلة على وادي الزرزور وعقبة الطين، واحتلت ميمنتها مرتفعات ينطة المطلة على عقبة الطين ووادي ميسلون.

وفي الساعة السادسة مساء حاولت الدبابات الخروج من وادي القرن والدخول في وادي الزرزور فتصدت لها المدافع العربية وردتها بعد أن أصيب بعضها.

أمام هذا الزحف المتواصل بعد قبول شروط الإنذار أرسلت حكومة دمشق موفداً إلى الجنرال غورو هو وزير معارفها ساطع الحصري مصحوباً بمعاون المعتمد الفرنسي في دمشق الكولونيل تولا فوصل في طريقه إلى مقر الجيش وتمكن من إقناع الجنرال غوابيه بإيقاف زحفه ٢٤ ساعة انتظاراً لنتيجة لقاء الجنرال غورو.

والتقى الحصري غورو في عاليه في ٢١ تموز/ يوليو فإذا بغورو يقدم

شروطاً جديدة قاسية فاستمهل الحصري لعرض هذه الشروط على حكومته وعاد إلى دمشق وعرض على الملك ووزرائه شروط غورو الجديدة قائلاً إن انطباعاته من خلال حواره مع غورو هي أن غورو مصمم على دخول دمشق وأنه يحاول إيجاد الذرائع لتحقيق ذلك، وأن قبول شروطه الجديدة لن يمنعه عن خلق حجج أخرى.

وبالفعل وصلت برقية من غورو إلى مندوبه في دمشق الكولونيل كوس بأن يبلغ الملك فيصل أن وضع الجيش الفرنسي يتطلب منهم تعديل الشروط بالسماح للجيش الفرنسي بالانتقال من معسكره في الجديدة إلى خان ميسلون نفسه لإمكان تأمين حاجاته من المياه التي هناك ومن الأرزاق على طريق ميسلون ـ التكية.

وقد وضعت هذه البرقية حداً للتردد فتقرر بالإجماع عدم قبول الشروط الجديدة، وكان ذلك قراراً بالحرب، وعمّم الأمر على قطعات الجيش وعلى الشعب.

ولما جاء المعتمد الفرنسي الكولونيل كوس يطلب الجواب سلم إليه هذا الجواب:

«إننا نأبى الحرب، ولكن قبول الشروط الواردة في مذكرتكم الأخيرة يعرضنا لا محالة إلى حرب أهلية. إننا مستعدون لتنفيذ الإنذار المؤرخ في ١٤ تموز/ يوليو بحذافيره. وقد نفذنا إلى الآن أربعة من شروطه، إننا نتعهد بشرفنا بتنفيذه بأخلاص، على أن ينسحب الجيش الفرنسي من الأماكن التي احتلها مؤخراً» (انتهى).

أقول: كنت يومذاك في الثانية عشرة من عمري وكنت في دمشق أعي كل ما يجري وأعيشه متأثراً به، ولا أزال أتذكر ـ عندما أذيع نبأ قرار الحرب بعد أن نكث غورو بعهوده وانطلق المنطلقون يحمّسون الشعب ويدعونه للذود عن حياضه ـ لا أزال أتذكر مناظر (السناجق) مرفوعة أمام الجماهير، هذه (السناجق) التي كانت

موجودة في كل حي وتوضع في أكبر مساجد الحي أو عند قبر ولي مدفون في الحي. ويتكون (السنجق) من قطعة قماش كبيرة جداً ذات بطانة، يحمل الواحد منها الرجل القوي في الحي من وسطها بعمود ويعينه في الحمل آخرون من اليمين واليسار بحبال ربطوها وسط العمود وأطراف (السنجق) لينتشر السنجق انتشاراً كاملاً فيقرأ الناس ما عليه من آيات وأدعية واستغفارات.

وهذه السناجق قديمة العهد، وقد سرق الكثير منها ونقلت إلى بلاد الغرب.

وأتذكر دقات الطبول التي اندفعت في الأزقة والشوارع تؤلب الناس ليجتمعوا للقتال، كما أتذكر جماهير المتطوعين ذاهبة (بعراضاتها) إلى محطة البرامكة لتركب القطار إلى أقرب محطة للجبهة الجديدة في (ميسلون) حيث يواصلون السير إلى ميسلون على أقدامهم.

وكان يطيب لي مرافقة الذاهبين إلى المحطة بأهازيجهم الحماسية وهتافاتهم المدوية. وقد ظلت صور بعض الوجوه منطبعة في ذهني فكنت أشاهدها بعد مر السنين في دمشق فأتذكر الزحف إلى محطة البرامكة.

والذي أتذكره تمام التذكر أن هذه الجماهير كانت بغير سلاح يذكر، ولم أكن يومذاك منشغلاً بفقدانها السلاح، وإنما كنت منفعلاً بحماستها العارمة. ولما وعيت بعد ذلك مسترجعاً في ذهني أحداث ذلك الزمن، صرت أتساءل ماذا يمكن أن تفعل تلك الجماهير في ساحة الحرب، وهي عزلاء بغير سلاح إلاّ ببعض البنادق؟!

ويصف صبحي العمري الذي ساهم في معركة ميسلون ضابطاً في الجيش العربي ـ يصف هؤلاء المتطوعين في كتابه(٦):

«وبعد ظهر يوم الجمعة ٧/٢٢ تحركت بالقطار من محطة البرامكة ومعي آمر إحدى السرايا الملازم الأول سعيد عمون وكان القطار يعج بالمتطوعين الذاهبين إلى ميسلون وكانوا طيلة الطريق ينشدون

الأناشيد الدينية والوطنية وكانوا من مختلف الأعمار فيهم الغلام والشاب والشيخ. وكانوا دون نظام لا رئيس ولا مرؤوس ولا قائد لا يعرف الواحد منهم إلى أي جهة هو ذاهب أو ماذا سيعمل، وكل ما في علمه أنه ذاهب للجهاد في سبيل الله وأنه سيقاتل للدفاع عن بلاده. وكان منظرهم يوحي الخشوع والاحترام الممزوج بالإكبار، وكلما وصل القطار إلى إحدى المحطات كانوا ينتشرون بجانبيه ليأكلوا ويشربوا ويدخنوا وينشدوا الأناشيد، وعندما يصلون إلى محطة الحسينية أو التكية كانوا يتركون القطار مستأنفين السير نحو ميسلون على الأقدام، وكانوا يسيرون جماعات وأفراداً، كل أفراد حي أو أقرباء أو أصدقاء مع بعضهم منتشرين من المحطة حتى ميسلون».

وعندما يتحدث صبحي العمري بعد ذلك عن المعركة يقول:

«ولما اشتد قصف المدفعية والطائرات انسحب أكثر المتطوعة الذين لم يكن لهم سابق معرفة لا بالحرب ولا بالطائرات».

وإكمالاً لسرد وقائع تلك الأيام نأخذ هنا ما رواه أسعد داغر الذي كان شاهداً للأحداث:

قابل أسعد داغر يوسف العظمة في البلاط الملكي فسأله عن رأيه في الموقف وهل يستمر الجيش الفرنسي في زحفه وما هي التدابير التي اتخذت لمقاومته وصدّه بعد تسريح الجيش؟ فقال إنه لم يبلغه حتى تلك الساعة نبأ عن توقف الجيش الفرنسي الذي دخل الأرض السورية بحجة المرابطة على ينابيع المياه في أول الأمر، ثم استولى على مجدل عنجر بعد جلاء الجنود السورية عنها. وقال عن التدابير التي اتخذت لمقاومته إن القوات التي كان قد صدر الأمر بتسريحها وقفلت راجعة إلى دمشق تلقت أمراً جديداً بالعودة إلى ميادين القتال من وسط الطريق.

ثم يقول أسعد داغر عن يوسف العظمة:

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ونهض عن كرسيه وخرج إلى الشرفة فتبعته محاولاً تخفيف ما اعتراه من شدة التأثر والانفعال..

كيف استشهد يوسف العظمة؟

في حوالى الساعة الثامنة والنصف وكانت المعركة على أشدها ووضع الجيش العربي لا يزال سليماً ومعنويات الباقين منه جيدة، كان يوسف العظمة في نقطة الترصد يراقب جريان المعركة وبالقرب منه حسن الهندي ومرافقه ياسين الجابي، ظهرت دبابات العدو وهي تتقدم صعداً على الطريق حتى اجتازت نصف المسافة التي بين أسفل الوادي ومركز الترصد، ولما أصبحت في زاوية غير مرئية للمدفعية العربية توقفت قليلاً ثم تقدمت الدبابة الأمامية وبدأت تصعد الطريق نحو مركز الترصد، وكان العظمة قد وضع مدفعاً في أعلى منعطف الطريق من خط الدفاع العربي يسيطر على جميع المنعطفات من أول الطريق حتى أسفل الوادي، فلما شاهد العظمة تقدم الدبابة والمدفع صامت التفت إلى حسن الهندي الذي كان بقربه وسأله غاضباً ما بال المدفع صامتاً لا يرمي الدبابة؟ أنا ذاهب إليه وأنت إذهب إلى اليمين وثبّت الجنود. ولما عاد الهندي إلى محل الترصد وكان ينتظر أن يكون العظمة قد عاد قبله من موضع المدفع لم يجده. وفي هذه اللحظة سمع الهندي من خلفه صوتاً ينادي: يوسف بك قتل، فالتفت ليرى ضابطاً برتبة وكيل من سرية الرشاشات مكشوف الرأس يركب حصاناً وهو لا يزال يصيح: يوسف بك قتل، فأمره بالسكوت مهدداً إياه بالمسدس ثم أمر بحجزه في الخلف.

ثم وصل ياسين الجابي مرافق العظمة وهو بحالة ارتباك وقص على الهندي ما جرى: عندما شاهد العظمة تقدم الفرنسيين داخل

الوادي ورفعهم الحواجز وعدم انفجار الألغام وعدم رمي المدفع على الدبابات المتقدمة وسقوط حصن عقبة الطين وانسحاب حاميته واستمرار تقدم الدبابات على الطريق بحيث قاربت مقر القيادة أخذه الغضب وذهب ـ كما ذكرنا ـ إلى موضع المدفع وطلب إلى الرامي أن يرمي الدبابة المتقدمة، وفي هذه اللحظة رمته تلك الدبابة بطلقة من مدفعها فأردته شهيداً «مرويات حسن الهندي وجميل البرهاني وصبحي العمري، وهم ممن شهد يوم ميسلون»

كان انتهاء الحكم الاستقلالي العربي انتهاء سريعاً على تلك الصورة الدامية، مفجعاً للعرب إفجاعاً لا حد له، وكان الشعراء أولى الناس بأن يكونوا مظهر تلك الفاجعة الناطقين بلسان أمتهم، المعبرين عن خيبتها وضياع أحلامها وتمزق أمانيها.

وكان شاعر جبل عامل الشيخ سليمان ظاهر أول شاعر عربي تثير فاجعة ميسلون شاعريته فتكون قصيدته فاتحة شعر النضال العربي بعد الفاجعة، وننشر هنا مقاطع من تلك القصيدة:

أمل بصدر العرب والإسلام ... هل ذاهب فيه سقوط الشام
يا يوم وقعة ميسلون كم جوى ... لك في الحشا لا تنطفي وضرام
أخمدت من عزمات يوسف جذوة ... مرهوبة الايراء والأضرام
ألويته عن سرجه من بعدما ... ألوت عزائمه بكل لجام
ما كان فيك الفيلقان لبأسه ... إلاّ كسرب جآذر ونعام
وبنقع خيليه غدوت وبيضه ... متشابه الأصباح والأظلام

ويخاطب يوسف العظمة قائلاً:

ما كان ذاك بموهن لك عزمة ... مشتقة من نبعة الإقدام
لهفي على الخلق الجميل تزينه ... بطلاقة من ثغرك البسام
للعرب بعدك كم لواعج زفرة ... ومدامع تجري عليك سجام

فلتبكيتك أمة ناصحتها ... وبنصحها استعذبت كأس حمام
وقذفت نفسك في المهالك راغباً ... عن عيشة ذلاً بموت كرام
لا يوحشنك بالفلا رمس طووا ... لك في محانيه عظام عظام
فلك الأنيس به ضمير صنته ... عن هاجسات الوزر والآثام
وبه تطوف مدى الزمان مواكب ... الاجلال والإكبار والأعظام
لا يذهبن دمك الحرام مضيعاً ... فالعرب بعدك عنه غير نيام
هل أنصف (الحلفاء) قائد أمة ... أرعى الأنام لموثق وذمام
أين البوارق وهي برق والقنا ... شهب طوالع في سماء قتام
أين الصواهل إن جرت في حلبة ... لم تدر أيديها من الأقدام
تختال تحت فوارس عربية ... معروفة الأخوال والأعمام
صوت بعالية الحجاز مشى إلى ... أرض العراق إلى ربوع الشام

الهوامش

(١) كانت السلطات السورية قد رفضت أن تسهل للجنرال غورو استعمال السكة الحديدية لإرسال القوات والمؤن والذخائر إلى كيليكيا حيث كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة في محاربة القوات التركية الكمالية، وكانت نتيجة ذلك أن شعر الفرنسيون بحرج مركزهم في كيليكيا فاتفقوا مع مصطفى كمال على الجلاء عنها واسترداد قواتهم منها، ودفعوا بها فجأة إلى سوريا. ويروي بعضهم أن بعض الفئات كانت تدعو إلى تعاون سوريا وتركيا الكمالية لمقاتلة الفرنسيين حتى النهاية وحملهم على الاعتراف باستقلال سوريا، وقد سافر يوسف العظمة وسعيد حيدر إلى إعزاز على الحدود التركية وتباحث كل منهما مع مندوبي الحكومة الكمالية في إنشاء تعاون عسكري بين الحكومتين، فوعدوه بأن يطلعوا حكومتهم على اقتراحاته ويبلغوه الجواب، ولكن الهدنة التي عقدتها فرنسا مع الأتراك أوقفت المباحثات عند ذلك الحد.

وقد كان امتناع الحكومة الوطنية في دمشق عن فتح السكة الحديدية أمام الفرنسيين للوصول إلى قتال الأتراك نابعاً من الأصالة الوطنية العربية التي أبت مساعدة الفرنسيين على الأتراك المقاتلين في سبيل بلادهم. وتناسى العرب كل ما عانوه من

فظائع الاتحاديين الأتراك خلال الحرب ورجعوا إلى ما يمليه عليهم شعورهم الوطني البحت متجاهلين حتى مصلحتهم في عدم إغضاب الفرنسيين.

على أنني سمعت من رضا الركابي نفسه الذي كان في ذلك الحين رئيساً للوزارة الاستقلالية الأولى ـ سمعت منه بعد ذلك بسنين ـ أنه كان من رأيه التحالف مع الفرنسيين في هذا الموقف الذي تجمع فيه المصلحة بين الفرنسيين والعرب، وأن لا مجال للعواطف أمام الحقائق. وأن حكومته استقالت لعدم الأخذ برأيه، فخلفتها وزارة الأتاسي التي يتحدث عنها الجنرال غورو. ويبدو أن الأتراك استغلوا مفاوضة السوريين لهم فأطلعوا الفرنسيين على ذلك، فكان أن تحالف الفريقان وانسحب الفرنسيون من كيليكيا موجهين قواهم كلها لقتال السوريين.

ولا شك أنه كان للتزاحم الإنكليزي الفرنسي أثر في ذلك، فإن الإنكليز كانوا أعوان اليونانيين في غزوهم للأناضول، فرد الفرنسيون بتأييد الأتراك.

(٢) ص ٣٢٩.

(٣) ص ٣٥.

(٤) **أوراق الثورة العربية**، ج٣، ص١٤٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٢.

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٣.

الفصل الحادي عشر

تعليق على كتاب «سلام ما بعده سلام» لدافيد فرومكين

يقول:

بتاريخ ٢٧ أيار/مايو ١٩٢٠ أمرت باريس قائد قواتها في بيروت الجنرال غورو بالاستعداد للنزول إلى ميدان المعركة ضد فيصل. وفي يوم الباستيل ١٩٢٠ أرسل الجنرال غورو مدفوعاً إلى ذلك من باريس إنذاراً نهائياً إلى فيصل يحدد شروطاً لم يتوقع من هذا الزعيم العربي أن يقبلها، ومن ضمنها حلّ الجيش العربي. ولكن فيصل الذي كان واضحاً أنه فقد رباطة جأشه وافق على الشروط الفرنسية، وعلى أثر ذلك قامت غوغاء دمشق بأعمال شغب ضده. وبناء على أوامر من باريس قال الجنرال غورو إن الرد الذي أرسله فيصل ـ بالرغم من كونه رداً متخاذلاً ـ لم يكن مرضياً. وسارع فيصل لإرسال رد جديد، يعرض فيه الاستسلام بلا قيد أو شرط، ولكن غورو تلقى من دوكي توجيهاً بأن يرد قائلاً: لقد فات الأوان. وأن يأمر قواته بالزحف على دمشق. (انتهى)

إن الأحداث تنفي كل حرف من هذا الذي سطّره (دافيد فرومكين) في كتابه، ومن شهدوا تلك الأحداث رووها كما

شهدوها وما رووه يناقض كل المناقضة هذا الذي جاء في (سلام ما بعده سلام)!

إن فيصلاً لم يفقد رباطة جأشه حين تلقى الإنذار، والدليل على ذلك أن نوري السعيد كان ـ قبل وصول الإنذار الكتابي ـ قد حمل الإنذار نفسه شفهياً إلى الملك فيصل حين عاد من مقابلة الجنرال غورو في بيروت، قائلاً للملك فيصل إن الإنذار الكتابي سيصل عما قريب...

فلم يفقد فيصل رباطة جأشه، بل تلقى ذلك بصلابة المناضل الشجاع الذي يتوقع في نضاله كل شيء، فمضى وزير حربيته إلى المؤتمر السوري (البرلمان) الذي التأم ليستمع رأي فيصل وحكومته في الطارىء الخطير المفاجىء، فوقف الوزير على المنبر يقول فيما يقول لا بلسانه، بل بلسان من أوفده، بلسان فيصل وحكومته:

«إننا نعلن الأمة والعالم أجمع من على هذا المنبر بأننا لا نريد إلاّ السلم والمحافظة على شرفنا واستقلالنا، وإننا لا نقبل بأية شروط مقيدة.... وإننا نقبل بكل حل لا يسيء إلى شرفنا ولا إلى حريتنا وعلى أن يكون قائماً على الحق...

وأخيراً إننا على أتمّ الاستعداد والتصميم للدفاع عن شرفنا وحقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها».

إن هذا القول لا يصدر عمن فقد رباطة جأشه، بل عمن قابل الشدة بالشدة والعزم بالعزم، ومن صمد للهول المتوقع قدومه.

إن فيصلاً لم يفقد رباطة جأشه فوافق على الشروط الفرنسية، كما يزعم (دافيد فرومكين)، بل دعا الوزراء للاجتماع في القصر الملكي للرد على الإنذار.

ولكن الوزراء كانوا قبل الذهاب إلى القصر قد استجابوا لدعوة

زميلهم وزير المعارف إلى بيته فإذا به يبلغهم بأن ياسين الهاشمي قد أخبره أن الذخيرة والأعتدة الحربية الموجودة لدى الجيش لا تساعد على الدخول في حرب مع الفرنسيين مهما قصرت مدتها. وذهبوا إلى القصر الملكي وأنبأوا الملك بما عرفوا. ومع أن هذا يهد عزائم الرجال ويفقدهم رباطة جأشهم... فإن فيصلاً ظل عامر العزيمة رابط الجأش وأخذ يحاور ويناقش حتى كان ما كان مما ذكرناه مفصلاً فيما مر من القول...

والموافقة على الشروط الفرنسية لم تحصل لفقدان رباطة الجأش عند تلقيها، بل حصلت بعد أن كان ما كان.

وكذلك ما ذكره المؤلف من العبارات الأخرى مثل قوله:

«قال الجنرال غورو أن الرد الذي أرسله فيصل - بالرغم من كونه رداً متخاذلاً - لم يكن مرضياً».

فرد فيصل لم يكن متخاذلاً، بل كان نابعاً من صميم الواقع المرير، الذي لم يكن باستطاعة أي كان من الرجال إلاّ أن يجيب بمثله...

وكذلك قوله:

«وسارع فيصل لإرسال رد جديد يعرض فيه الاستسلام بلا قيد أو شرط».

إن رد فيصل الجديد لم يكن عرضاً للاستسلام بلا قيد أو شرط، بل كان إعلان الحرب...

وكل ذلك فصلناه فيما تقدم فلا نعيد تفصيله هنا.

ويقول فيما يقول عن المعركة:

«وقد تقدم جيش الشرق الفرنسي ومعظم جنوده سنغاليون عبر الأودية المتعرجة التي كان يستطيع خصم كفؤ أن ينصب له كميناً فيها، ولكن لسبب غير واضح انتظر مناصرو فيصل حتى خرج

السنغاليون من هذه الأودية ثم هاجموهم، عند ذلك حلق سرب من سلاح الجو الفرنسي فذعر المدافعون عن دمشق وولوا الأدبار دون أية مقاومة».

والمؤلف يعتمد في هذه الأقوال على هوارد م. ساشار في (انبثاق الشرق الأوسط) وهو حين يأخذها دون تعليق يكون متبيناً لها، ومن المؤسف أن يكون (ساشار) و(فرومكين) الباحثان المتعمقان الواسعا الإطلاع ـ أن يكونا على مثل هذه السطحية وقلة التتبع حين يعرضان شؤون البلاد العربية وشجونها!..

يتساءلان لماذا انتظر مناصرو فيصل الجيش الفرنسي حتى يخرج من الأودية المتعرجة ثم هاجموه ويعجبان من هذا ولا يريان سبباً واضحاً يبرر ذلك، ويجزمان بأن خصماً كفؤاً كان يستطيع أن ينصب هناك كميناً للجيش الفرنسي.

وينسيان أو هما لا يعلمان ـ ومع ذلك يؤرخان ـ أن من سمياهم مناصري فيصل قد أعدوا الكمائن عند مداخل الأودية المتعرجة وفي تعريجاتها ومضائقها، ولكن الأوامر صدرت إليهم بأن ينسحبوا منها حين اعتمد مصدرو الأوامر على شرف كلمة الجنرال غورو فنزلوا على حكم إنذاره وأصدروا أوامرهم بالانسحاب، وعندما تبين لهم أن لا شرف لكلمة الجنرال عادوا فأوقفوا الانسحاب بعد الخروج من الأودية المتعرجة.

لقد كانوا أخصاماً أكفاء على عكس ما يصفهم المؤرخان، ولكن القدر كان أشد كفاءة وأعتى خصومة، فلا تثريب عليهم إذا غلبتهم كفاءته في خصومتهم!..

ونقول رداً على كلمتهما الأخيرة الزارية: لم يذعر المدافعون عن دمشق حين حلّق سرب من سلاح الجو الفرنسي، ولم يولوا الأدبار

دون أية مقاومة... بل صمدوا وثبتوا يقاتلون بمئاتهم القليلة ألوف الجنرال غورو الكثيرة، وبأسلحتهم الخفيفة أسلحته الثقيلة، ما دبّ منها على الأرض وما سبح في الجو.

وظلوا ثابتين حتى استشهد قائدهم ونفدت ذخيرتهم...

الفصل الثاني عشر

تقسيم البلاد

إن ما يمكن أن نسميه سوريا الطبيعية التي تحد من الشمال بجبال طوروس ومن الجنوب بصحراء سيناء وقنال السويس ومن الشرق بالحجاز والعراق ومن الغرب بالبحر المتوسط، كانت عندما جلا عنها الأتراك بانتهاء الحرب مقسمة إلى ثلاث ولايات: ولاية حلب وولاية دمشق وولاية بيروت، وإلى متصرفيتين ملحقتين بوزارة الداخلية مباشرة هما: متصرفية القدس التي تشمل معظم فلسطين، ومتصرفية دير الزور المتصلة حدودها بحدود العراق، وإلى متصرفية ممتازة مرتبطة مباشرة بمقام الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) هي متصرفية جبل لبنان ذات النظام الخاص المستقل.

وبعد الانسحاب التركي الكامل أصدر الجنرال اللنبي القائد العام للقوات الثلاث: الإنكليزية والعربية والفرنسية أمراً بتقسيم سوريا إلى ثلاث مناطق:

المنطقة الشرقية: تشمل ولايتي دمشق وحلب ومتصرفيات حماه وحوران والكرك بما فيه المنطقة التي سميت بعد ذلك (شرق

الأردن) وتعرف اليوم بالأردن. وتحولت حمص التي كانت مركز قضاء تابع لمتصرفية حماه إلى متصرفية. كما تحول جبل العرب الذي كان يسمى جبل الدروز والمؤلف من عدة أقضية تابعة لمتصرفية حوران، إلى متصرفية قاعدتها بلدة السويداء.

أما ولاية حلب فقد جلا الأتراك عن قسمها الجنوبي، وهو القسم العربي منها الممتد من حدود متصرفية دير الزور شرقاً حتى ساحل إسكندرون غرباً. أما القسم الشمالي منها ذو الأكثرية التركية مع مجموعات كردية وأرمنية وأقلية عربية فبقي ضمن تركيا.

وهكذا فإن المنطقة الشرقية تألفت من ولاية دمشق (التي كانت تعرف باسم ولاية سوريا) كلها ومن القسم الجنوبي من ولاية حلب، ومن متصرفية دير الزور.

المنطقة الغربية: اشتملت على متصرفية جبل لبنان والقسم الغربي الساحلي الممتد من رأس الناقورة جنوبي مدينة صور حتى ما بعد مرفأ إسكندرونة شمالاً، بما في ذلك مدينة بيروت قاعدة الولاية، ومتصرفيّتي طرابلس واللاذقية، وأقضية جسر الشغور وإنطاكية وإسكندرونة وكل ما أطلق عليه بعد ذلك اسم لواء إسكندرونة وقد كان سابقاً من توابع ولاية حلب، وقضاء العمرانية (مصياف) الذي كان تابعاً لمتصرفية حماه.

منطقة فلسطين: وقد شملت متصرفية القدس ومتصرفية عكا ومتصرفية نابلس وأقضيتهما، وكانت هاتان المتصرفيتان تابعتين لولاية بيروت.

وقد عيّن الجنرال اللنبي الذي كان مقره في القاهرة ومعه مستشاره الفرنسي جورج بيكو ـ عين رضا الركابي حاكماً عسكرياً على المنطقة الشرقية، ثم عين بعد ذلك الكولونيل الفرنسي (دوبياباب)

حاكماً على المنطقة الغربية التي كانت قاعدتها بيروت، وفصل عن ولايتها السابقة متصرفية عكا ومتصرفية نابلس وألحقهما بمنطقة فلسطين التي هي تحت الإدارة البريطانية منذ احتلالها.

وقد كان هذا تطبيقاً عملياً لمعاهدة سايكس ـ بيكو. وبعد دخول فيصل إلى دمشق وإقراره حاكمية رضا الركابي تصرفت الحكومة العربية على أساس رفض هذه المعاهدة بأن شكلت حكومة من رجال ينتمون إلى عدة أقطار عربية، فكان عادل إرسلان (لبنان) معاوناً للحاكم العسكري ونوري السعيد (العراق) مستشاراً سياسياً، وجعفر العسكري (العراق) مستشاراً عسكرياً، وياسين الهاشمي (العراق) رئيساً لميرة الجيش، ورشيد طليع (لبنان) مديراً للداخلية، وسليم موصلي (دمشق) مديراً للشؤون الصحية، وسعيد شقير (لبنان) مديراً للمالية، وإسكندر عمون (لبنان) مديراً للعدلية، وساطع الحصري (حلب) مديراً للمعارف.

وبنفس المنهج تألف ديوان الأمير فيصل، ومحكمة التمييز، ومحكمة الاستئناف، وجميع الوظائف الكبرى، وبعد أن احتل الجيش الفرنسي المنطقة الغربية بكاملها، عمد الفرنسيون إلى تقسيمها إلى ثلاث حكومات:

١ ـ لبنان الكبير وقاعدته بيروت، وسمي كبيراً تمييزاً له عن متصرفية جبل لبنان القديم، إذ ضم إليها مدينة بيروت وأقضيتها الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون، وهي المنطقة المسماة جبل عامل، كما ضمّ إليها مدينة طرابلس والنواحي التابعة لها وهي: المينا والمنية والقلمون والضنية وقضاء عكار، بعد أن فصلت عنها الأقضية الأخرى وألحقت باللاذقية.

ثم بعد أحداث وأحداث فصلت عن دمشق ما عرف باسم

الأقضية الأربعة وهي: البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا وألحقت بلبنان الكبير.

٢ ـ بلاد العلويين وقاعدتها اللاذقية، وتألفت من أقضية اللاذقية الثلاثة: جبلة، والمرقب، وصهيون وما يتبعها من نواح وقرى. وما فصل عن متصرفية طرابلس وهو: الحصن (تل كلخ)، وصافيتا، وطرطوس، وجزيرة أرواد، وما فصل عن متصرفية حماه وهو: قضاء مصياف الذي كان اسمه في العهد التركي: (العمرانية)، وما فصل عن ولاية حلب وهو قضاء جسر الشغور.

٣ ـ إسكندرونة وهي التي كانت قاعدة قضاء تابع لولاية حلب مع عدة أقضية أخرى فصلت عن حلب وألّف منها ما عرف باسم لواء إسكندرونة، وجعل مرتبطاً رأساً بالمفوض السامي الفرنسي.

وبعد سقوط الحكم الاستقلالي قسّم الجنرال غورو البلاد على هذا الشكل:

دولة حلب:

بقرار أعلنه الجنرال غورو في ٨ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٢٠ وجعل منها دولة مستقلة بهذا الاسم رغم ضآلة حدودها وقلة موازنتها.

ودولة العلويين:

التي أصدر المفوض السامي قراراً بتأليفها في ٢٣ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٢٠ من لواء اللاذقية القديم بما فيه أقضية صهيون وجبلة وبانياس وقضاء حصن الأكراد وصافيتا من لواء طرابلس الشام القديم وناحية طرطوس وقضاء مصياف من أعمال حماه.

دولة دمشق:

التي أصدر المفوض نفسه في ٣ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٢٠ قراره بجعلها دولة مستقلة وبإبدال الوزارات بمديريات عامة وجعل حاكم لهذه الدولة بدلاً من رئيس وزراء ففقدت ما تمتاز به هذه المدينة من المميزات الطبيعية وأصبحت كغيرها من العواصم التي أحدثت والتي هي أقل شأناً منها بكثير.

دولة جبل الدروز:

التي أعلنت السلطة الفرنسية بتاريخ ٢٠ نيسان/أبريل سنة ١٩٢١ بلسان الجنرال غورو إنشاء الحكومة الجديدة فيه. وقد سبق ذلك أن أعلن استقلال لبنان في أول أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٢٠ بعد أن ضم إليه بيروت وصيدا وصور ومرجعيون (جبل عامل). وضم معها طرابلس والأقضية الأربعة التي فصلها عن سوريا وألحقها بلبنان وهي: حاصبيا وراشيا وبعلبك ومعلقة زحلة كما فصل معها قسماً من قضاء عكار وقضاء حصن الأكراد. وسمى ذلك: لبنان الكبير وعيّن له حاكماً فرنسياً.

وبيروت وصيدا وصور ومرجعيون التي ألحقت بلبنان كانت جزءاً من ولاية بيروت التي كانت تضم فيما تضم القسم الشمالي من فلسطين، محتوية على نابلس وجنين وطبريا وصفد وعكا وحيفا. كما كانت منها مدينة اللاذقية السورية وأصدر في اليوم نفسه القرار رقم ٣٣٦ الذي أعطى حاكم لبنان الفرنسي السلطة التنفيذية وجعله مسؤولاً عن السلامة العامة أمام المفوض السامي الفرنسي. وكانت صلاحياته تشمل وضع مشروع الموازنة ومشاريع الضرائب والقرارات وتعيين موظفي الدولة شرط عرض هذه الأمور على

المفوض السامي الفرنسي للموافقة عليها.

هذا هو الاستقلال الذي ذهبت الوفود اللبنانية إلى باريس للمطالبة به، هذا هو الاستقلال الذي طالب به البطريرك الحويك وأميل إده وداود عمون وأشباههم.

الشام سبع دول:

وهكذا أصبحت بلاد الشام سبع دول.

الإسكندرونة:

وظل لواء الإسكندرونة حتى صيف ١٩٢٤ جزءاً من دولة حلب فأصدر المفوض السامي قراراً قال فيه:

«يتمتع لواء إسكندرونة مع بقائه تابعاً للدولة السورية بنظام إداري ومالي خاص وتعتبر اللغة التركية لغة رسمية كالعربية والفرنسية ويعين متصرف لواء إسكندرون من قبل رئيس الدولة السورية بناء على اقتراح مندوب المفوض ويكون له كل السلطة المخولة لمتصرفي الألوية وله علاوة على ذلك النظر في شؤون المعارف والأشغال العامة».

على أن الانتخابات التي جرت على قاعدة اللواء في عهد المفوض السامي المسيو دي جوفنيل جعلت هذا اللواء منفصلاً بصورة إدارية عن سوريا ومربوطاً بالمفوضية العليا رأساً مع توسيع سلطة مندوب المفوض السامي فيه. ثم إنهم ما عتموا أن رجعوا عن ذلك بتاريخ ١٢ حزيران/ يونيو سنة ١٩٢٦ فقرروا إلغاء استقلاله وأدخلوه على قاعدة اللامركزية للبلاد السورية على أن يكون التعيين راجعاً إلى المرجع المختص على شريطة التفاهم مع المفوض السامي.

ويتألف هذا اللواء من مدن إسكندرونة وإنطاكية وبيلان وقرقخان وهو متاخم لتركيا.

ولم يلبث الفرنسيون أن سلموه إلى تركيا بعد معاهدة سنة ١٩٣٧.

الفصل الثالث عشر

حدود التقسيم بين البلاد العربية المقسمة

بعد أن استقر الأمر للفرنسيين في سوريا ولبنان وللإنكليز في فلسطين والعراق عقدوا بينهم اتفاقاً حددوا فيه الحدود التي تفصل بين ما تقاسموه من بلاد. وهذا هو:

أنابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية الوزيرين المفوضين الواضعين اسميهما ˚أدناه ليحلا جميع الأمور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق ولفرنسا على سوريا ولبنان في المجلس الأعلى الذي اجتمع في سان ريمو وقد اتفقتا على الشروط الآتية:

١ ـ تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الفرنسوي أي سوريا ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني أي فلسطين والعراق كما يلي:

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر إلى حدود ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة إلى غاية رومالين كوي ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسوي فيترك فيها

جميع الأراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بالبوكمال ويمتد باستقامة إلى أمتار فجنوب جبل الدروز ومن هنا يمتد إلى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمخ الواقعة على بحيرة طبريا سائراً إلى جنوب خط السكة الحديدية وموازياً له. وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسوي ويبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسوية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الامكان أن يمد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الأراضي المشمولة بالانتداب البريطاني وستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين أن يبنيا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية ليتمكنا من استعمال بحيرة طبريا بحرياً.

ومن الغرب يسير الخط من سمخ ماراً داخل بحيرة طبريا فأول وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا، إلى نبعه، ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسوية لغاية بانياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل إلى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية.

ويضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع أطراف البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسوي كصور وصيدا والمناطق الواقعة في الغرب وإلى الشرق من بانياس.

وتفصل التخوم المطلة بمفرق الماء في وادي الأردن وحوض

نهر الليطاني وتسير جنوباً مع وادي الأردن فوادي فرعم ووادي كركره اللذين يبقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليلاونة ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الفرنسوية ويصل الحد إلى شاطىء البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة وتظل في المنطقة الفرنسوية.

٢ ـ تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة أشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الفرنسي والمناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بيناها في المادة الأولى وتتألف هذه البعثة من أربعة أعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية اثنين منهم وتعين الاثنين الآخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوي والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين.

إذا وقع خلاف بين أعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الأمم ويكون قراره قطعياً.

وتقدم تقارير البعثة النهائية عن الحدود الثابتة التي عينت أخيراً وتربط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل أعضاء البعثة. وتوضع ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الأمم وتحفظ النسختين الأخرين الحكومتان المنتدبتان.

٣ ـ توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الفرنسوية المنتدبة لأجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لئلا يقلل إبرازها لحيز الفعل ماء دجلة

والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني.

٤ ـ توافق الحكومة البريطانية بالنظر إلى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة إلى خليج الإسكندرونة على أن لا تفاوض أحداً بخصوص التنازل عنها أو تسليمه إياها قبلما توافق فرنسا على ذلك.

٥ ـ توافق الحكومة الفرنسوية على وضع ترتيب حر يبين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبريا ونصيب استعمالاً مشتركاً.

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه إدارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي بأسرع ما يمكن أي بعد تنفيذ الانتداب على سوريا وفلسطين وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لإدارة السكة الحديدية البريطانية أن تسير قطاراتها ذهاباً وإياباً بين هاتين المنطقتين وفقاً لمصالحها. وتنقل البضائع التجارية إلى المنطقة المشمولة بالانتداب الفرنسوي بواسطتها، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والإدارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية، أما إذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة أشهر من تنفيذ الانتداب بين الإدارتين المذكورتين أعلاه فستعين جمعية الأمم حكماً يفصل الخلاف وعندئذٍ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضا الطرفين.

أ ـ يعمل بموجب هذه الاتفاقية إلى أجل غير مسمى وتصحح أحياناً بمقتضى الأحوال.

ب ـ يمكن للحكومة البريطانية أن تمد خطاً من الأنابيب الحديدية

بجانب السكة الحديدية ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائماً.

ج - توافق الحكومة الفرنسوية على تعيين بعثة خاصة تدرس الأراضي وبعد درسها إياها تعين الحدود في وادي اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية يمكن معها بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الأنابيب الموصل بين فلسطين وبين سكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطاني، وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسوي، ويجب على بريطانيا العظمى احقاق حقها هذا في مدة لا تتجاوز عشر سنوات.

د - تتألف البعثة التي ذكرناها أعلاه من عضو بريطاني وعضو فرنسوي ويضاف إليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هذا إن رأت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية لزوماً لذلك.

هـ - إذا اقتضى الأمر لأسباب فنية أن يمر خط السكة الحديدية - البريطانية ببعض الأماكن المشمولة بالانتداب الفرنسوي توافق الحكومة الفرنسوية على مرور هذا الخط بتلك المناطق وتقدم الحكومة البريطانية أو لعملائها المساعدات اللازمة.

و - إذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة أي أن تمد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفذ الحكومة الفرنسوية الشروط التي اشترطتها على نفسها بالفقرة الأولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة أشهر من إنشاء السكة.

ز - توافق الحكومة الفرنسوية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوي لتصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية.

٦ ـ تمّ الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل أعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسوية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو.

٧ ـ لا تضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسوية موانع في منطقتي انتدابهما لجمع الموظفين اللازمين لإدارة خط السكة الحجازية أو لاستخدامهم.

تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع الموظفين المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي بمنطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي لئلا تتأخر أعمال هذا الخط.

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية عند اللزوم على أن تعقدا اتفاقية مع الحكومات المحلية خلاصتها استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر بإحدى مناطق الانتداب.

٨ ـ يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سوريا وفلسطين غب مرور ستة أشهر من إمضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص مياه نهر الأردن الأعلى ونهر اليرموك وتوابعهما لاستخدامهما لأجل الري ولأجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسوي.

تزود الحكومة الفرنسوية الاخصائيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين الماء الزائد خدمة لمنافعها العامة.

إذا لم يحصل الاتفاق المطلوب بنهاية هذا الدرس تعرض المسألة على الحكومتين البريطانية والفرنسية لتدرساها وتقررا فيها قراراً نهائياً. تشترك إدارة فلسطين بقدر انتفاعها من

هذه الأعمال في دفع نفقات بناء الترع والخلجان والسدود والخزانات والأحواض والأقبية وخطوط الأنابيب الحديدية الخ.. وتشترك في جميع الأعمال التي من شأنها انبات الخراج وتنشيط تربيتها.

٩ ـ توافق الحكومتان البريطانية والفرنسية عملا بنص المادة «١٥» والمادة «١٦» من نظام الانتداب الفلسطيني وعملاً بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام الانتداب العراقي وعملاً بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبناني السوري وعملاً أيضاً بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التي تخص أناساً من التابعية الفرنسية أو من التبعة البريطانية على المثابرة في إدارة هذه المدارس في منطقتي انتدابهما، ويسمح بتعليم اللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية في هذه المدارس.

لا تعني هذه المادة بحال من الأحوال منح رعايا إحدى الدولتين المشار إليهما حق فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الأخرى.

هاردنج

ج. بيج

ذكريات

قلت فيما تقدم من القول إنني كنت سنة ١٩٢٠ ـ وهي السنة التي وقعت فيها هذه الأحداث ـ كنت في الثانية عشرة من عمري. وقد كان والدي عند إعلان الحرب العامة فضّل الانتقال

خلال الحرب العامة من دمشق إلى شقرا في جبل عامل. وانتهت الحرب ونحن هناك. ولما احتل الفرنسيون الساحل واحتل الإنكليز فلسطين، وبقي للعرب القسم الداخلي من سوريا، وبدأ التجاذب بين الفرنسيين وأنصارهم وعملائهم وبين الاستقلاليين، وانبث دعاة الفرنسيين في جبل عامل الذي كان ضمن المنطقة الغربية المحتلة من الفرنسيين، قرر والدي أن يحسم الأمر العاملي ويحدد موقف جبل عامل الاستقلالي تحديداً لا لبس فيه ولا غموض، فدعا إلى تجمع عاملي كبير تتمثل فيه جميع الشرائح العاملية من فقهاء ووجهاء وشيوخ وشبان، ليذهب هذا التجمع بكل فئاته إلى دمشق معلناً ولاءه للحكم الاستقلالي العربي، وأرسل رسله إلى كل القرى العاملية حاملين رسائله الخطية والشفهية في إيضاح الفكرة، والدعوة إلى اللقاء في قرية هونين لينطلق منها التجمع العاملي باتجاه دمشق، وقد كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى دمشق يومذاك هي ظهور الخيل. وفي الموعد المحدد كان يلتقي في هونين مئات الفرسان العامليين في موكب من أروع ما تقع عليه العين، موكب فيه العمائم الفقهائية التي اعتمرها أصحابها منذ كانوا في النجف دارسين ثم عادوا إلى جبل عامل منعقدة على رؤوس زاخرة بالعلم والشعر والنثر. وفيه العمائم التي لم يدرس أصحابها في النجف واكتفوا بالدراسة المحدودة في جبل عامل فالتفت عمائمهم البيضاء والخضراء على الطرابيش الحمراء. وفيه الوجهاء الذين تعلو رؤوسهم الطرابيش بحمرتها القانية. وفيه الذين غطّت رؤوسهم كوفياتهم البيضاء تحت العُقل السوداء، تقل الجميع خيول سباقة وتضطرم في نفوسهم شمائل عربية ورثوها عن أجدادهم اليمانيين العرب الأقحاح الذين حلّوا في هذا الجبل المنيع مهاجرين من اليمن فيمن هاجر مثلهم منها من قبائل العرب...

وكان على الركب العاملي أن يجتاز الحولة فسهول بانياس فالقنيطرة وصولاً إلى دمشق، وكانوا إذا كاد أن يجنّهم الليل في سيرهم الطويل يوزعون أنفسهم على القرى غير البعيدة عن الطريق فتبيت كل جماعة في بيت من البيوت المضيافة في القرى. ويصف والدي في بعض ما كتبه عن هذه الرحلة الاستقلالية الحماسية مبيتهم قائلاً:

«... وبتنا في طريقنا مع اثنين من العلماء ورجل من الوجهاء في (جباثا الزيت) عند الوجيه سعيد العاص وهو رجل مضياف ذوكرم وإكرام للضيف يندر وجود مثله».

هكذا مضى والدي إلى دمشق وبقيت الأسرة في شقرا، ولما بلغت أخي الأكبر أنباء ابتداء زحف الجيش الفرنسي على جبل عامل وما بدأ ينال القرى وسكانها من أذاه قرر الانتقال بالأسرة إلى دمشق. وهكذا وصلتُ إلى دمشق قبيل تفجر الموقف وهبوب العاصفة وأنا في الثانية عشرة من عمري.

ثم تفجر الموقف وهبت العاصفة وقامت الحرب في ميسلون وسقط الاستقلال ودخل الجنرال غورو دمشق فاتحاً بزهوه وخيلائه بعد اسبوع من معركة ميسلون، بعدما كان قد سبقه في دخولها الجنرال غوابييه على جواده ووراءه الجيش المنتصر...

وإذا كان الجنرال غوابييه قد سبق الجنرال غورو في الدخول إلى دمشق فاتحاً ممتطياً جواداً، وجال بجيشه في شوارع دمشق جولان القاهر الظافر، فإنه كان يجول في شوارع خالية انكفأ ناسها إلى بيوتهم يدارون ما هم فيه من نكد وأسى، وما يحسونه من إذلال وقهر...

أما الجنرال غورو فقد كان يعرف أنه الفاتح الحقيقي لدمشق وأن

غوابيه لم يكن إلاّ أداة من أدواته في ذلك الفتح لذلك أراد أن يدخلها بأبهة الفاتحين... الفاتحين القاهرين!..

وكان له ما أراد، فبعد أسبوع من معركة ميسلون، كنت أنا ابن الثانية عشرة الذي شهدت بعيني جموع المتطوعين الزاحفين في شوارع دمشق إلى محطة القطار المسماة محطة البرامكة، ليقلهم القطار إلى ميسلون لقتال جيش الجنرال غورو، شهدتهم بأهازيجهم الحماسية وصرخاتهم المدوّية، فراقت لي مرافقتهم فكنت أمشي مع الموكب حتى أصل معه إلى محطة البرامكة، ثم أعود لألتقي بموكب آخر فأنضم إليه حتى الوصول إلى المحطة وهكذا مع سائر المواكب...

ويعلم الله أنني كنت أتأجج حماسة مما أرى وأسمع، وأود لو كان في مقدوري أن أرافق هذه الجموع في القطار من المحطة إلى حيث تقصد، كما رافقتها من الشارع إلى المحطة!..

لا أدعي أن مفهوم الاستقلال كان واضحاً في ذهني، وأنني كنت مدركاً تمام الإدراك حقيقة ما يجري. بل أن الذي كنت أحسه في أعماقي أن الفرنسيين الغرباء الأعداء يريدون أن يدخلوا دمشق رغماً عنا نحن أهلها ويتحكموا بها وبنا، وأن هؤلاء المحتشدين الزاحفين يريدون صدهم عن ذلك.

بعد اسبوع كنت أنا نفسي ابن الثانية عشرة أخرج من سوق الحميدية إلى شارع النصر فتقع عيناي على مثل ما وقعت عليه قبل اسبوع!

جموع حاشدة و(عراضات) هازجة، الوجوه نفسها التي انطبعت صورها في ذهني قبل اسبوع، أراها اليوم بباصرتي المنفتحتين، أراها في هذه الحشود اليوم، كما رأيتها قبل سبعة أيام في تلك الحشود!

وكما كانت تلك الحشود تمشي باتجاه الغرب، كانت هذه الحشود تمشي هي الأخرى باتجاه الغرب!..

فأُصبت بذهول وضياع ... ولا أزال حتى هذا اليوم الذي أخط فيه هذه الكلمات من أيام سنة ١٩٩٦ أي بعد ست وسبعين سنة أتخيل ذاك الذهول وذاك الضياع كأني لا أزال فيهما!..

إلى أين تمشي هذه الجموع؟ وماذا تقول في أهازيجها؟

كنت لا أزال في غمرة الحزن الذي طغى عليَّ بعد معركة ميسلون... وكان يزيد في أحزاني ما أصبح عليه والدي من أسى عميق كان يلوح في محياه وفي كل حركة من حركاته وتصرف من تصرفاته. وكل من يراه يشعر أنه في كرب ما بعده كرب...

لم يعد بعد يوم ميسلون يقوى على إلقاء الدروس التي كان يتلقاها عليه في منزله في الصباح الباكر فريق من طلاب السنتين الأخيرتين من سنوات الدراسة الثانوية في اللغة العربية، ولا الدروس الفقهية التي كان يتلقاها ليلاً فريق من الشبان العاملين في التجارة والصناعة، وقعد عن حضور المجالس الأسبوعية التي كانت تعقد دورياً بإشرافه في المنازل للنظر في الشؤون العامة.

كما أنه انقطع عن الترنم بالشعر على الطريقة العاملية النجفية، هذا الترنم الذي كان يلجأ إليه ساعة يرتاح من مواصلة القراءة والكتابة...

كنت أنسحِر بصوته وهو يترنم بالشعر، لا لجمال الصوت، فلم يكن ذا صوت جميل جذّاب، بل لرقة الإنشاد وعذوبة الترنم، فكنت أجلس قريباً منه مأخوذاً بترنمه، وقد استظهرت الكثير من الشعر لكثرة ما سمعته يترنم به ولا أزال استظهره حتى الآن...

لقد انقطع كل ذلك... فكنت حزيناً لتلك الانقطاعات لأنها

تعرب عما عليه والدي من الحزن... والشيء الوحيد الذي لم ينقطع عنه هو الذهاب إلى المسجد ليؤم المصلين، وكنت أرافقه إلى المسجد فلا تفوتني رنة الحزن التي كانت تبدو في صوته وهو يبسط كفيه في القنوت، وكان له أكثر من دعاء يتلوه عند القنوت، ولم يفتني أن تلك الأدعية كلها قد غابت عن لسانه وأنه استبدلها بأدعية جديدة لم أكن أسمعها منه من قبل، ولا أزال حتى الآن أتذكر صوته الحزين وهو يردد: اللهم اكشف هذه الغمة عن هذه الأمة، وكيف كان يعلو صوته وهو يتلو: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون...

كان الحزن الشخصي ... حزني أنا يرهقني، وعندما ألقى والدي بأحزانه كنت أستحيل كتلة من الأحزان...

هكذا كنت عندما انطلقت خارجاً من سوق الحميدية إلى شارع النصر فأبصرت الحشود الزاخرة منطلقة في الشارع باتجاه الغرب...

إلى أين تمشي هذه الحشود؟ وماذا تقول؟

وإذا كانت الحشود التي كنت ألقاها قبل اسبوع فأمشي معها إلى محطة البرامكة ـ إذا كانت تثير حماستي وتزدهيني، فلا أشعر بالتعب ذهاباً إلى المحطة وإياباً منها ثم مواصلة هذا الذهاب وهذا الإياب مرات ومرات...

إذا كان الأمر كذلك فإنه لم يبن لي الشعور الذي أحسه برؤيتي هذه الجموع، ولم يتضح لي ما يعتادني وأنا أماشيها وأسمع صياحها!..

لقد كنت أماشيها فعلاً، وأسير في أطراف حواشيها ولكن لا متعمداً، كما كنت أفعل وأنا أرافق جموع قبل أسبوع... لقد كنت أماشي هذه الجموع لأن طريق الغاية التي أقصدها كان نفس

طريقها، لقد كان ذلك حتى مفترق شارع رامي الذي كان عليَّ أن أهبط فيه وصولاً إلى ساحة المرجة، ولما وصلت المفترق توقفت لأن الجموع ظلت في سيرها المستقيم في اتجاه الغرب، فتسمرت عند المفترق ولم أنطلق إلى يميني في شارع رامي، وبقيت هكذا دقائق أوازن بين انطلاقي إلى غايتي وبين مصاحبة الجموع... وتغلب عليَّ الفضول واستكشاف المجهول، فمشيت مع الجموع...

إلى أين تمشي هذه الجموع؟ وماذا تقول؟

لقد خطر لي خاطر لا يخطر إلاّ لمن كان في مثل سني، السن التي لم تتجاوز الطفولة إلاّ قليلاً... أيمكن أن تكون هذه الجموع ذاهبة للانتقام ممن اقتحموا دمشق وأذلوها؟ ولكن لا سلاح معها... ولكن ألم تذهب إلى ميسلون أيضاً بلا سلاح؟!

وبينما أنا أمشي مع الماشين إذ لمحني شاب من شباب حينا الذي نسكن فيه، كان واقفاً على الرصيف ينظر باندهال إلى الجموع الهازجة الهاتفة، فأسرع إليَّ وقال لي أين أنت ذاهب؟ فقلت له: أريد أن أعرف إلى أين يذهب هؤلاء الناس...

فقال لي إرجع، إنهم ذاهبون لاستقبال الجنرال غورو على أبواب دمشق!

فانضممت إليه وعدنا معاً إلى الحي، ومشيت والخجل من نفسي يكاد يقتلني... لقد مشيت مع الماشين لاستقبال غورو من أول شارع النصر إلى ما يقرب من محطة الحجاز، أي من أول شارع النصر إلى منتهاه...

وعلمنا بعد ذلك أن العملاء قد استطاعوا أن يخرجوا جماهير دمشق الكثيفة إلى موقع (المنشية) عند مدخل دمشق وأن تحتشد تلك الجماهير أشد الاحتشاد. وأن الجنرال غورو وصل بسيارته إلى

المنشية فحيّته الجماهير واستقل من هناك مركبة من المركبات التي تجرها الخيول، وأن (أبو شكري الطباع) وبعض أهله، فكوا جوادي المركبة وربطوا أنفسهم مكانها ليجروا بأجسادهم مركبة الجنرال.

وبعد يومين كان أديب التقي أحد تلاميذ والدي يزوره وينشد أمامه هذه الأبيات ووالدي يسمعها مطرقاً:

أأهل دمشق كيف سالمتم العدى — وكيف رضيتم بالمذلة والأسر
ونمتم على شوك الهوان وتلكم — ضحاياكم في ميسلون قرى النسر
بلادكم اجتيحت وتلكم رجالكم — موزعة الأشلاء في مهمه قفر
أتغفون والأقذاء ملء جفونكم — ولم تثأروا بالهالكين بلا وزر
أهَلْ دريتم أنكم إذ خرجتم — تلاقون (غورو) قد صبأتم إلى الكفر
ومن عجب أن تخرجوا للقائه — وتلك دماكم في الربى لم تزل تجري

فاستأذنت أديب التقي بأن يمليها عليّ فأملاها واستظهرتها ولا أزال، وأنا الآن أكتبها من ذاكرتي.

أما الجنرال غورو فقد أعدَّ نفسه لدخول دمشق لا إعداد القواد الفاتحين، بل إعداد الملوك القاهرين، فقد امتطى المركبة وأحاطها بكوكبات من الفرسان على خيولهم المطهمة...

لم يكن الفرسان فرنسيين، ولا كانت خيولهم هُجْناً، بل كان الفرسان عرباً وكانت خيولهم أصائل، كان الفرسان من عرب (الرولة) عشيرة نوري الشعلان أرسلهم أميرهم ليكونوا في موكب فاتح دمشق عاصمة العرب، فيزيدوا الموكب أبهة على أبهة، والعرب ذلاً على ذل!.. ولم يكونوا وحدهم بل كان يخالطهم فرسان ينتمون إلى الجانب الآخر من بلاد العرب... إلى الجانب الغربي... إلى بلاد طارق بن زياد... ومن الحق أن نقول إن هؤلاء

كانوا مقهورين مغصوبين... في حين أن أولئك كانوا مختارين متطوعين!

دخل الجنرال غورو دمشق مستقبلاً بأهازيج رجّالة العرب، وحداء فرسان العرب...

إن الجنرال غورو الذي دخل دمشق هذا الدخول الملوكي الإذلالي كان ينام ليله قرير العين... وليس بمقدور أحد أن يعرف ما إذا كان قد نام فعلاً، أم قضى ليله ساهراً؟

فكما أن الحزن يبكي العيون، فكذلك الفرح يريق دموعها، وكما يرهق الأسى القلب فلا تنام العين كمداً كذلك الفرح يبهج الفؤاد فلا يغمض الطرف ابتهاجاً، وأي فرح يمكن أن يضاهي فرح غورو وقد هدم في بضع ساعات مملكة وأنزل ملكاً عن عرشه وأخرجه من العاصمة التي توجته قبل شهور ـ أخرجه مكسور الخاطر دامي الجوانح، ثم دخل عاصمته فخرج شعب العاصمة يتلقاه بالأهازيج وبالطبول والزمور، ثم يتطوع دمشقيون ليجروا مركبته التي لم تعتد أن يجرها إلاّ الخيل!!..

فمن حقه أن لا ينام فرحاً، بل أن يطير من الفرح ـ كما يقول المثل الشعبي ـ لو استطاع أن يطير!..

ولكن لو وعى الجنرال غورو حقيقة التاريخ، ولو كان إنساناً سوياً لأدرك أن من يرى نفسه بطلاً من أبطال الحرب الكبرى، ومن فقد ذراعه في مواجهة الجيش الألماني الجبار، ومن عاد إلى باريس منتصراً على ذلك الجيش.

إن من كان كذلك سيكون صغيراً جداً حين يحاسب شعباً صغيراً ومملكة عزلاء على نصف ساعة تأخرت فيها البرقية المرسلة إليه فيأمر جيوشه المدججة بكل سلاح، ما دب منه وما طار وما

استطال وما استدار ـ يأمر جيوشه باستباحة ذاك الشعب واقتحام تلك المملكة، ثم يظل يخادع عند كل مرحلة فيتقدم مرحلة بعد مرحلة بحجة ليست في حقيقتها حجة وسبب ليس في واقعه سبباً!..

ثم يتلقى ألوفه المؤلفة المنتصرة من قبل على الجيش الألماني، والبالغ عددها خمسة عشر ألف جندي ـ يتلقاها ما يقل عن بضع مئات من الجنود فيوقفونها ساعات ولا يبرحون حتى تنفد ذخائرهم ويستشهد قائدهم...

إن من كان كذلك لا يستحق إلاّ لعنة التاريخ، وإن من كان كذلك يكون انتصاره هزيمة شنعاء. إن من يرى أن له البسالة في معارك الدردنيل والبطولة في وقعات الجيش الألماني عليه أن يخجل من نفسه ومن التاريخ كونه صاحب معركة ميسلون وفاتح دمشق...

ليست معارك الدردنيل ولا وقعات الجيش الألماني هي التي سيخلد فيها اسم الجنرال غورو، بل سيخلده أنه صاحب حرب ميسلون وهادم استقلال سوريا، ولكنه خلود مخز... خلود لا يفارقه الكره له والحقد عليه...

ولن يكون في تاريخ سوريا اسم مبغوض كاسم (غورو) وحسبه في ذلك سبة وعاراً...

نيران على حافات السراب

اكتساح ميسلون في ٢٤ تموز/يوليو، واستقبال دمشق بعد اسبوع أوهما (غورو) أن الدنيا صفت له، وأن سوريا عنت فاستسلم للطغيان وراح يعيش في بيروت عيش الأباطرة، لا يخرج إلاّ وقد

أحاطت سيارته فوارس شاهري السيوف ترقل خيولهم حوله في سيارته المكشوفة متطلعاً حوله بخيلاء، متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال بانتفاخ وازدهاء!

إنه فاتح دمشق وطارد الملوك ومقسّم الشعوب ومنشيء الدول من دولة واحدة!.. أليس في ذلك ما يزدهيه ويبعث خيلاءه ويجعله لا يتنقل إلاّ تنقل الامبراطور في مواكب الخيالة تحفه من الأمام والوراء واليمين والشمال!..

كم دولة كانت في امبراطورية غليوم الألماني المقهور الذي كان غورو بين قاهريه وكم دولة كانت في سلطان امبراطور إنكلترا القاهر الذي كان غورو من شركائه في الإقهار؟ أليس ما في قبضة يد غورو من الدول ما يزيد عدداً على ما في يد كل واحد من الأمبراطورين؟

أليس في سلطته سبع دول أقامها هو بنفسه دولاً لكل دولة علمها الخاص بها؟

إذاً فمن حقه أن يعيش عيش الأباطرة وأن يخرج بمواكب الفرسان، وأن يستقبله الجند على الصفين أينما قصد، وأن تصدح له الموسيقى حيث يحل ركابه!..

ومن أين للملوك ما له من السلطان؟ ومن أين للأباطرة ما له من الشأن؟

إنهم يملكون ولا يحكمون. إن لهم مظاهر الملك دون حقائقه... أما هو فإنه المالك الحاكم: كلمته قانون، وإشارته تنفيذ، ورضاه نعيم، وغضبه جحيم!..

ولكن غورو السابح في أحلام الغطرسة، الموقن أن الناس همدوا، وأن لا راد لأمره ولا معترض على قراره، فوجيء بعد أقل من شهر

من توطيد سلطانه بأن الرصاص في حوران يطلق على أعوانه. وأن من أقرّهم حكاماً في دمشق قد قتلوا في (خربة الغزالة) في حوران!

ففي ٢١ آب/أغسطس ١٩٢٠ ذهب من دمشق بالقطار رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وعبد الرحمان اليوسف رئيس مجلس الشورى، المعتبر وزيراً بين الوزراء وعطا الأيوبي وزير الداخلية، ومعهم شيخان من المنتمين في مظاهرهما إلى رجال الدين وهما الشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الجليل الدرة، قاصدين حوران للتمهيد فيها للحكم الفرنسي بعد أن بدت بوادر تحرك وطني في حوران.

والشيخ عبد القادر الخطيب من أشهر مشاهير المتزلفين إلى كل سلطة، السائرين في ركاب كل حاكم، فعندما أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك خطب يوم الجمعة في الجامع الأموي معلناً أن الشريف حسين خارجي خرج على خليفة المسلمين يجب قتاله، ثم شتمه بكل ما قدر عليه من شتم.

وفي اليوم الأول لوصول الأمير فيصل إلى دمشق وتوجهه إلى دار الحكومة فيها وازدحام الناس عليه كان الشيخ عبد القادر يشق طريقه بين تلك الجماهير ويصل إلى فيصل ويرفع صوته بخطاب حار يبايع فيه الملك حسين بإمارة المؤمنين، ويشيد به وبنجله البطل العظيم فيصل. ولم يكن قد مضى شهر على إخراج الفرنسيين لفيصل من دمشق حتى كان الشيخ عبد القادر الخطيب ضمن وفد أرسله الفرنسيون لتوطيد حكمهم في حوران.

وإذا لم يكن للشيخ عبد الجليل الدرة شهرة الشيخ عبد القادر الخطيب فإنه من النوع نفسه الذي ينتمي إليه زميله الخطيب!

إنهما شيخان يعتمران العمامة الدينية ويسلكان نفسيهما في سلك رجال الدين!

ووصل الوفد الرفيع المستوى إلى محطة (خربة الغزالة) وكان الحورانيون قد علموا بتوجهه إليهم والغاية من هذا التوجه، فأعدوا له استقبالاً حاراً، وهل هناك ما هو أشد حرارة من نار الرصاص؟!

فما أن وقف القطار حتى رأى الموفدون تحشد الناس في المحطة وسمعوا دوي أهازيجهم فحسبوا أن ذلك ترحيب بهم، ولم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة فقتل رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وقتل عبد الرحمن اليوسف واستطاع الثلاثة الآخرون الإفلات هاربين على وجوههم...

وكان هذا أول تمرد يواجهه الجنرال غورو، فقابله بأشد أنواع العنف فأرسل الطائرات تهدم القرى على أهلها وتحرق البيادر بما فيها من غلال وحبوب.

وقاتل الحورانيون ما استطاعوا القتال، ثم فرضت عليهم الغرامات الباهظة بألوف الليرات الذهبية...

وأصدرت السلطات الفرنسية البلاغات واصفة ـ بكل تفاخر ما جرى ـ فكان من صدى ذلك أن أرسل حزب الاتحاد السوري الذي كان يتخذ من القاهرة مقراً، برقيات إلى رؤساء حكومات الحلفاء ومجالسها النيابية ورئيس الولايات المتحدة الأميركية وإلى كبريات الصحف العالمية البرقية الاحتجاجية التالية:

ذهل السوريون لقراءة البلاغات الفرنسية الصادرة بتاريخ ٢٣ آب/ أغسطس وأول أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٢٠ المنبئة بتدمير الجيش الفرنسي تدميراً منظماً لمقاطعة حوران الزراعية التي هي أهراء سوريا. الطيارات تخرب القرى بأكملها قاتلة للنساء والأولاد بلا

رحمة. نحن نستصرخ الأمم المتحدة ومنها الأمة الفرنسية ضد هذه الأعمال الوحشية التي يقصّر عنها الوصف وتورث الأحقاد بإطالة زمن القتال. (انتهى)

استندت هذه البرقية إلى البلاغات الفرنسية نفسها التي تباهت معترفة بما فعلت.

ولم يكتف الفرنسيون بذلك، بل وقع اختيارهم على أربعة رجال اعتبروهم مسؤولين عن قتل من قتل فأعدموهم في العشرين من أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٢٢.

وكما قامت الثورة في حوارن فقد ظلت ثورة الشيخ صالح العلي في المنطقة العلوية مشتعلة، كما قامت في الشمال ثورة إبراهيم هنانو. ولما كانت هاتان الثورتان ظلتا ممتدتين حتى سنة ١٩٢١ وحديثنا في هذا الجزء من الكتاب يقف عند أحداث سنة ١٩٢٠ فإننا نؤخر الحديث عنهما إلى جزء مقبل.

على أننا نستثني من أحداث سنة ١٩٢١ حدثاً واحداً لارتباطه بشخص الجنرال غورو واعتبارنا له امتداداً لما هو مرتبط بشخصه.

ففي ٢٣ حزيران/يونيو سنة ١٩٢١ كان الجنرال غورو وبصحبته الرجل الذي نصبه حاكماً لدولة دمشق حقي العظم يتجهان بالسيارة إلى القنيطرة للوصول إلى مقر محمود الفاعور أمير عرب الفضل في الجولان الذي كان قد أعدّ للجنرال استقبالاً حافلاً. وقبل الوصول إلى القنيطرة انهال الرصاص على السيارة ومن فيها فقتل مرافق الجنرال وأصيب حقي العظم برصاصات في فخذه وذراعه وشفته لم تكن قاتلة.

أما الجنرال نفسه ـ وهو المقصود ـ فقد أصيب كم يده المقطوعة فقط.

ولن نطيل في الحديث عما حدث بل نكتفي باعتراف الجنرال نفسه في البلاغ الرسمي الذي نشر عن الحادث وهذا نصه:

«في يوم ٢٣ حزيران/يونيو ظهرت على طريق القنيطرة عصابة قادمة من شرق الأردن وبعد أن قضت مأربها عادت في اليوم نفسه إلى عجلون وهذه نتائج التحقيق والعقوبات: زحفت حملة بقيادة الكولونيل دوكرو من دمشق يوم ٢٣ حزيران/ يونيو فوصلت إلى القنيطرة يوم ٢٦ منه فدمرت بأمر المندوب السامي قرى: جباثا الخشب، والمنشية، وعوفاني، وطرنجة، والأحمر، وتل الشيخة لأنها آوت مجرمي القنيطرة فأصبحت شريكة لهم في الخيانة.

وقد حجزت أموال أهاليها وحكم فوق ذلك على كل قرية بغرامة من خمسين جنيهاً إلى مئة جنيه ذهباً. ودمرت الحملة نفسها ١٧ مزرعة في جباثا الخشب وارصانيا وترانك. وفي ٢٩ منه زحفت على مجدل شمس وجباثا الزيت وفي ٣٠ منه عادت إلى القنيطرة حيث باعت الأموال المحجوزة».

ونلاحظ في البلاغ عدة أمور منها أنه لم يتطرق إلى إطلاق الرصاص على سيارة الجنرال غورو، ويقصد بهذا عدم إذاعة ذلك بين الناس لما فيه من كسر هيبته والتجرؤ عليه. ومنها أن تدمير القرى والمزارع كان بأمر شخصي من المندوب السامي الجنرال غورو. ومنها الاعتراف العلني الصريح بنهب أموال القرى بما فيها من أغنام وماعز وبقر وخيل وغير ذلك.

بعد واحد وعشرين شهراً

لقد حقق الجنرال غورو حلمه فدخل دمشق فاتحاً، وقضى على الاستقلال فيها وتشرد الوطنيون في كل مكان، وحكم الفرنسيون سوريا بالحديد والنار وقسّموها إلى دويلات، وخفت الصوت الوطني عند تشتت قادته وهمدت الحركة!

على أن دمشق الحقيقية لم تكن هي التي مشت تلك المشية لاستقبال غورو، ولا كان أبو شكري الطباع ورفاقه هم الذين يمثلونها، بل أن دمشق الحقيقية كانت مكبوتة وراء جدران منازلها الضاوية، وفي حنايا أزقتها الخاوية!..

ثم بدأ فريق من القياديين النازحين يتسللون إلى دمشق، ولكن ظلوا فيها مشتتين متفردين، قد يلتقون ولكن بتحفظ، وقد يتكلمون ولكن بتهامس، حتى كان شهر نيسان/ أبريل من السنة ١٩٢٢ فإذا بالدكتور عبد الرحمان شهبندر يتلقى ـ لاعتباره من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت ـ رسالة من رئيس الجامعة وفيها عزم المستر كراين على زيارة دمشق. والمستر كراين هو الذي كان سنة ١٩١٩ رئيساً للجنة الاستفتاء التي قدمت سوريا ولبنان لاستفتاء أهلهما حول ما يريدون في شأن الاستقلال والانتداب وما إلى ذلك، وبدا المستر كراين يومذاك بمظهر الصديق للاستقلاليين العرب وترك في نفوسهم أثراً طيباً.

ووصل كراين إلى دمشق، وفي ٢٢ نيسان/أبريل سنة ١٩٢٢ أي بعد ٢١ شهراً من معركة ميسلون وزوال الاستقلال العربي السوري، وفي جو من الاستسلام الوطني الكامل ـ التقى الشهبندر المستر كراين في فندقه في دمشق، فطلب إليه كراين أن يجمعه بأرباب الرأي في البلاد، فلبى رغبته، وعقدت اجتماعات في المنازل الدمشقية وفي البساتين، كان رجالها يشكون من الاستعمار مرّ الشكوى، ويخطب الخطباء متحمسين حتى كان يوم سفر المستر كراين، فاحتشد لوداعه جمهور يهتف للاستقلال، وخطب الشهبندر وغيره، وما إن انطلقت السيارة بالمستر كراين ومضت حتى انقلب الأمر إلى تظاهرة حاشدة كانت الأولى من نوعها بعد

ذلك الكبت الطويل، ومشت الجموع في الشوارع هاتفة هازجة متحمسة تنادي بالاستقلال وإسقاط الاستعمار.

وانتهى الأمر عند هذا الحد...

كانت المظاهرة مفتاح النضال الوطني الذي انفتح بابه على الفرنسيين في بلاد الشام كلها فأقضّ مضاجعهم طيلة احتلالهم لهذه البلاد.

ومؤرخ الأحداث العربية المعاصرة يجب أن يقف طويلاً أمام هذا اليوم الدمشقي الأصيل، وأن يتحدث كثيراً عن رجاله الثلاثة عبد الرحمان شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم الذين كان هذا اليوم ومقدماته يومهم الخالد. إنه يوم كان له ما بعده، كما كان يقول الأقدمون.

لقد سمى الصحفي الخالد نجيب الريس هؤلاء الثلاثة ـ وقد كان رفيقهم في السجن كما سنرى ـ سماهم في مقال افتتاحي بجريدته «القبس» عند عودتهم من المنفى بعد إشعالهم ما أشعلوا في الثورة السورية الكبرى التي اندلعت سنة ١٩٢٥ ـ سماهم: (أصحاب الصيحة الأولى)، فكان أصدق اسم يطلق عليهم، وكان الصائح الأول من بينهم: الشهبندر، ثم تصايح معه رفيقاه، وتتابع التصايح بعد ذلك في بلاد الشام كلها...

إذا كان أمر المظاهرة الحماسية قد انتهى عند حدّ تفرق جمهورها وانصرافه إلى المنازل والدور، وإذا كان لم يبق له في يومه ذاك من مفعول إلاّ الذكرى الجميلة العذبة في أذهان المتظاهرين، فإنه لم يكن كذلك عند الجنرال غورو، فقد محت هذه الانتفاضة اللاهبة من ذاكرته ذلك الاستقبال المصطنع عند باب دمشق، ولم يعد في ذاكرته إلاّ اللهيب المتوهج من يوم دمشق الحماسي، وأيقن أن

دمشق ليست هي التي بدت له حول (المنشية)، ولا رجالها هم الذين جرّوا عربته بأجسادهم، بل أن دمشق هي التي بدت له عند روابي ميسلون، وأن رجالها هم الذين تساقطوا برصاص جنوده على قمم تلك الروابي، وفي أجزاعها وسفوحها، وأن بقايا السيوف إن كانوا قد قبعوا إلى حين، فإنهم قد وثبوا في هذا الحين.

لذلك حزم أمره وتذكر أنه القائد العسكري الصارم الذي لا يقعقع له بالشنان ـ كما كان يعبر الأسلاف ـ ففي السابع من نيسان/ أبريل ألقت السلطات الفرنسية تنفيذاً لأوامره القبض على كل من الدكتور عبد الرحمان شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم، وزجتهم في سجن القلعة مع المجرمين اللصوص والقتلة!

كان هؤلاء الثلاثة في الواقع ـ كما قلنا ـ هم قادة الموقف من أوله إلى آخره...

وسرى نبأ القبض عليهم في دمشق مسرى النار في الهشيم فتحفزت النفوس. وفي يوم الجمعة خطب الخطباء في المسجد الأموي شباناً وشيوخاً محرضين مثيرين، فخرجت التظاهرات الصاخبة متحدية طالبة الإفراج عنهم هاتفة للاستقلال ولسقوط الاستعمار، فقبضت السلطة على مجموعة من الشبان والكهول، فلم تتوقف التظاهرات وأطلق عليها الرصاص، ثم أعلن ما يشبه الأحكام العرفية واحتل الجند مواقع في المدينة، ولا أزال حتى الآن أتخيل المصفّحتين الهادرتين الراكضتين بأقصى السرعة في سوق الحميدية لتصلا إلى باب المسجد الأموي!

ولا أزال حتى الآن ـ وأنا في الثامنة والثمانين من سني حياتي ـ أكاد انتفض حماسة عند تذكرهما كما انتفضت حماسة ـ وأنا في الرابعة عشرة ـ عند رؤيتهما يومذاك!.. ويشهد الله أنهما لم تثيرا

ذعري، بل أثارتا في أعماقي كوامن الشمم العربي، وأني رأيت في زحفهما وصخبهما مذعورتين ثأراً ليوم مشاهدتي جمهور الزاحفين لاستقبال غورو!

سيق المعتقلون جميعاً، وفيهم الفتى اليافع نجيب الريس، إلى محكمة عسكرية فرنسية. وخصصتُ نجيب الريّس بالذكر لأن له من بين إخوانه المعتقلين شأناً يتميز به عن شأنهم كما سأبينه. فحكمت المحكمة على الشهبندر بالسجن عشرين سنة، وعلى سعيد حيدر بالسجن خمس عشرة سنة، وعلى حسن الحكيم بالسجن عشر سنوات.

وقد كان التفاوت في سني كل من المحكومين متناسباً مع ما كان له من نشاط وجهد...

كما حكم على المعتقلين الآخرين بأحكام مختلفة أقلها خمس سنوات، وسيق الجميع إلى جزيرة أرواد ليقضوا مدة السجن في أقبيتها المظلمة!

أما شأن الفتى اليافع نجيب الريّس الذي تميز به عن غيره من السجناء الأحرار، فهو أن شاعريته انبعثت من بين تلك الظلمات، وتفجرت من خلال الأغلال والقيود، فنظم ذاك النشيد الخالد الذي سارت به الركبان في البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها، والذي ظلّ يتغنى به العرب سواء أطبقت عليهم أبواب سجون الاستعمار، أو لم تطبق عليهم أبواب تلك السجون، بل أطبق عليهم باب السجن الأكبر الذي هو وطنهم، لأنهم كانوا جميعاً سجناء الاستعمار في أوطانهم...

يقول نجيب الريّس في نشيده:

يا ظلام السجن خيّم   إننا نهوى الظلاما

ليس بعد الليل إلاّ فجرُ مجدٍ يتسامى

لم يكن النشيد وحده هو ما انبثقت عنه شاعرية (الفتى اليافع) نجيب الريّس في كهوف أرواد، بل نستطيع القول إنه أوجد في الأدب العربي الحديث ما يمكن أن نطلق عليه (أدبيات السجون)، هذا النوع من الأدب الذي عرفه شعراؤنا الماضون، ولم يكن له أثر في أدبنا الحديث، وقد تفرّد به نجيب الريّس حتى اليوم.

فعدا النشيد فقد نظم قصيدتين من روي وقافية واحدة قال في الأولى:

حسب الصباح وحسبي ما أعانيه يا ليل منك متى تنأى وتدنيه
ما في أديمك إلاّ صفحة غشيت بها النجوم فلا نجم أراعيه
أرخيت فوقي سدولاً كنت أدفعها بالنوم عني فلا نوم أرجيه
وكنت بالدمع أحياناً أبددها والدمع قد جفّ مني في مآقيه
خسرت نومي ودمعي بل فقدتهما في كهف أرواد لا شيدت مبانيه
أرواد يا معقل الأحرار كم رجل مشى إليك مشاة البأس والتيه
فلا الحراب ولا نقل البنادق في أيدي الجنود ولا الأغلال تؤذيه
ولا السفينة والمجذاف يدفعها والموج يغري بها حيناً وتغريه
ولا المظالم والسجّان ينفذها تقوى على الحر نيلاً من مباديه
أخت الخضم وكم بالشام من شفة هتافة باسم شاطيك ومن فيه
ما زلت منفى شباب العرب من قدم يأتيك كل فتى حلّت أمانيه
يا صاحب السجن ما للشمس تمنعها عنا وما للهواء الطلق تُغليه
خفف بربك عنا ما نكابده من وحشة السجن لا كانت لياليه
لا أكذب الله أني قد بلوتهم وذقت من ظلمهم أدهى دواهيه
ففي سبيلك يا شبه الجزيرة ما ينتابني من عذاب لا أسميه

وفيك يا وطن الأحرار ما اختلقت فينا السياسة من كذب وتشويه
فتى الجزيرة لا تيأس فأنت لها إن يعظم الخطب أو تعدو عواديه
فرج عن الوطن المحزون كربته فأنت عدته الكبرى وحاميه
قل للشباب وما فيهم أخو خور والربع ربعهم عزت مغانيه
مدوا أياديكم للحق خالصة عزّ الشباب ولا خابت مساعيه

يقول في القصيدة الثانية:

ربع جلتك الليالي عن مغانيه فما لعينك لا تنفك تبكيه
أضنيت جسمك في تذكاره عبثاً فهل حسبت طوال الذكر يدنيه
لله أنت وقلب بتٌّ تحمله ما بين جنبيك كم همّ يعانيه
حملته الحب غضا فاستهام به فليتك اليوم تدري ما يقاسيه
قد مضه حب من يهوى فليس له إلاّ الشكاة ولكن من يشاكيه
لولا التأسي بقرب الوصل لانطفأت آماله وذوت يأساً أمانيه
لكن في النفس آمالاً يعيش بها كذاك ذو الداء فالآمال تحييه

* * *

يا ساكني جنة (الفيحاء) هل لكم علم بصب يلاقي ما يلاقيه
أنأته عنكم ليال كلها غير فالشوق يدنيه والأقدار تقصيه
مشارف (الشام) هلى أبقى على هضابك الخضر أم نالتك أيديه
وهل (بدمر) مغنى الأنس يجمع في جناته الحور أم دكّت مبانيه
لله في (الربوة) الغناء عهد صباً بالنفس لو بيع يوم منه أشريه
فارقته مغرماً أبغي سعادته لا كدّر الله أيام الصفافية
أقسمت بالجانب الشرقي من بردى وبالظباء شرودات بواديه
مذ بنت عن ذلك الوادي وبهجته عفت القريض وعافتني قوافيه
يا (قاسيون) تحيات امرىء دنف تأبى الليالي عليه ما يرجيه
بالله أشرف على الوادي فهل ذبلت فيه الأزاهر أم غاضت سواقيه

واهاً على وقفة بالسفح علّ بها ... دمعي يسحّ فقد جفت مآقيه
يا أيها الماخر المزجي سفينته ... فوق الخضم تهادى في مجاريه
انشر قلوعك واغنم ريح ساجية ... من الليالي فخير الليل ساجيه
قل للشباب الأولى في (جلّق) ربضوا ... قولاً صريحاً خلا من كل تمويه
قلبي على العهد باقٍ لا يغيره ... شجو ممض ونأي بات يضنيه

وفي ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٢٢ سافر الجنرال غورو إلى باريس ثم لم يعد، وفي ١٩ أيار/ مايو سنة ١٩٢٣ جاء مفوض سام جديد هو الجنرال ويغان، وفي ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٢٣ أطلق سجناء أرواد.

ولا نريد الاسترسال في ما بعد أحداث سنة ١٩٢٠، فما بعدها سنخصص له دراسات مستقلة تنشر في جزء وربما في أجزاء متتابعة.

على أننا لا يمكن إلاّ أن نشير إشارات سريعة إلى ومضات إن لم نقل جذوات كانت تذكو بين الحين والحين فتذكو معها روح النضال، حتى كانت الهبة الكبرى هبة سنة ١٩٢٥ سنة الثورة المسلحة العارمة.

وفي أواخر سنة ١٩٢٤ يهبط دمشق (بلفور) الشهير، يهبطها قادماً من فلسطين التي حلّها استجابة لدعوة الصهاينة الذين دعوه ليحضر افتتاح الجامعة العبرية، أول جامعة يقيمها اليهود...

بلفور في دمشق!.. يا للصرخة المدوية! أتبلغ الاستهانة بالعرب في نفس بلفور أن يحسب أنه يهبط عاصمتهم الخالدة رضي النفس ناعم البال، وأن يتنشق عبير الغوطة رغداً، ويرنو إلى قاسيون هنيئاً، ويشرب ماء (الفيجة) متلذذاً؟!

يا للهول! وهبت دمشق في وجه بلفور تكدر صفاءه وترنق ماءه وتخمد رجاءه، وهببنا معها نحن أبناء السادسة عشرة فما دونها وما فوقها نهز قبضاتنا في الهواء، ونرسل هتافاتنا في أجواز الفضاء مهددين متوعدين، مصمّمين على اقتحام فندق بلفور والفتك به في الفندق!

وبينما نحن في منتصف شارع النصر نملؤه بجموعنا إذا بالفرسان المغاربة المجندين في الجيش الفرنسي يغيرون علينا بخيولهم شاهرين سيوفهم ويقتحموننا ضاربين بالسيوف يمنة ويسرة فيتساقط الجرحى ذات اليمين وذات اليسار، وكادت ضربة سيف تنال وجهي لولا أن ألقيت بنفسي في مثل لمح البصر على الشجيرات المتكاثفة في خط مستقيم في قلب الشارع فنجوت...

وإذا كنا لم نستطع الفتك ببلفور وحالت بيننا وبينه سنابك الخيل وحدود السيوف، فإن دمشق لم تدعه أن يقر فيها، بل أسرعت السلطات إلى تهريبه من باب جانبي للفندق موصلة إياه إلى طريق بيروت ناجياً بنفسه من غضب دمشق...

تلك كانت ومضة من الومضات، أو بالأحرى جذوة من الجذوات...

وجذوة أخرى:

ذلك أنه كان قد مرّ ثلاث سنوات على يوم ميسلون دون أن يجرؤ أحد على الاحتفاء بهذا اليوم، وكان شبح المحاكم العسكرية، وخيال كهوف جزيرة أرواد لا يزالان يلوحان أمام العيون!

ولكن تقرر في هذه السنة تحدي القوة والالتقاء جماهيرياً حول قبر شهيد ميلسون يوسف العظمة، ولا أتذكر الآن التفاصيل، وكل ما أتذكره أنني تعهدت بإبلاغ الأمر إلى جماعة من الشبان والكهول

وحثهم إلى الوصول إلى ميسلون بعد ظهر يوم ٢٤ تموز/ يوليو.

وأتذكر أنني التقيت في ساحة (المرجة) بأربعة أشخاص من القاصدين الذهاب إلى ميسلون فاستأجرنا سيارة تقلنا إلى هناك.

وإذا كان إيراد هذا القول سهلاً، فلم يكن الأمر يومذاك على شيء من السهولة، فقد كان ما يصل إليَّ من المال هو أقل من القليل، وكان دفع أجرة السيارة ذهاباً إلى ميسلون وإياباً منها شيئاً فوق طاقتي، فاستدنت مبلغاً ظللت أوفيه أقساطاً فترة طويلة حارماً نفسي من إنفاق ذلك القليل الذي كنت أنفقه...

ووصلنا إلى ميسلون جماعة بعد جماعة حتى غدونا بضع مئات، فتلا مقرىء من القرآن آيات فيها: ﴿وأأسفاً على يوسف﴾ ثم أنشد الجميع بصوت واحد نشيد (أمين الشهيد) وهو نشيد رمزي نظمه أديب التقي كان يرمز فيه إلى اسم يوسف العظمة باسم (أمين الشهيد) لأنه كان من الخطر كل الخطر أن يذكر إنسان في نشيد اسم يوسف العظمة، وكنا نحن التلاميذ ننشد النشيد الرمزي ونعرف مغزاه، ولكن لم يدر في خلدي أن النشيد كان محفوظاً في أوساط دمشق كلها قبل أن سمعت ذلك الجمهور ينشده مجتمعاً...

كانت ساعة رهيبة تلك الساعة التي تجاوبت فيها أودية ميسلون وثناياها لأول مرة بتلك الأصوات العربية الهادرة بنشيد (أمين الشهيد)، كما تجاوبت تلك الأودية وتلك الثنايا قبل ثلاث سنوات بهدير المدافع!

واستولى علينا جميعاً ونحن ننتخي بألفاظ النشيد ومعانيه، ونحن نتشامخ بهاماتنا ونتطاول بقاماتنا إلى العلاء خلال الإنشاد ـ استولى علينا جميعاً روح يصعب على قلمي تصويره، وكل ما

أستطيع قوله: إنه كان روحاً هو مزيج من الحماسة والأسى والتحدي غمرنا جميعاً وأحالنا ـ نحن المئات ـ رجلاً عربياً واحداً منطلقاً من العروبة الأصيلة الشماء بكل ما فيها من أنفة وكرامة وبطولة وحباً للثأر وحماية للدار!..

لقد كانت أيام الحياة تمر ولا تزال أيامها تمر ولم يستطع يوم من أيامها أن يطغى في النفس على يوم ٢٤ تموز/ يوليو سنة ١٩٢٣.

وخطب بعد إنشاد النشيد الدكتور خالد الخطيب، ثم انتظمنا في صف طويل من السيارات سار على نفس الطريق التي سار عليها الجنرال (غوابيه) بدباباته وفرسانه ومشاته متجهاً إلى دمشق وهو يحسب أنه قد أخمد صوت العرب فيها إلى الأبد، ثم سار عليها بعد اسبوع الجنرال غورو بموكبه المجلجل الصاخب وقد خيّل إليه أن دم يوسف العظمة قد أهدر، وأن دماء العرب التي أراقها على الربوات والسهول، وفي الشعاب والحقول قد طلت!

وأن ليس بعد اليوم من ينادي يا لثارات ميسلون!..

ولكن الصرخات التي تعالت منا في ميسلون، ثم ظلت تتعالى على الطريق من ميسلون، مترددأ صداها على الأفق الأعلى، وفي الصعيد الأدنى، حتى مضينا إلى مداخل دمشق إلى النقطة التي استُقبل فيها الجنرال غورو ثم انطلق بموكبه الفروسي المزدهي المتباهي...

إن صرخاتنا تلك بكل حرف من حروفها، وبكل صوت من أصواتها كانت تمحو كل ما حسب غورو وصنائعه أنهم قد سجلوه في صحف التاريخ من هوان دمشق وذل العرب!

إن السيارات الجماد التي كانت تنحدر بنا كان ضجيج محركاتها يصرخ دون أن يصرخ: يا لثارات العرب!

وإن كل خلجة من خلجات وجوهنا كانت نداء بأعلى صوت: يا لثارات العرب!

واستقبلنا الجمهور الدمشقي على أطراف الشوارع ـ وهو يعلم أين كنا ـ استقبل موكبنا بكل ما في حناياه من عاطفة معرباً عن ذلك بالتصفيق الرنان!

لقد كان يوماً من أيام العرب في دمشق، أو قل من أيام دمشق العربية، حق له أن يسجل في تاريخ بلاد الشام...

الفصل الرابع عشر

في بلاد الشام الجنوبية

فلسطين

سنخص فلسطين بحديث لم نذكر مثله في بقية الأقطار الشامية، لأنه أريد لفلسطين ما لم يُرد لغيرها من تغيير المعالم وطمس الأثر وإحلال الطارئين عليها محل النازلين بها، وتحويلها من أرض عربية إلى أخرى هجينة...

لهذا سنفصل من أمورها تفصيلات تظل منقوشة في الذاكرة العربية جيلاً بعد جيل، حتى يعيدها جيل يوفقه الله إلى إعادتها إلى أصالتها ويزيل عنها محنتها فنقول:

معاهدة سايكس ـ بيكو قطّعت بلاد الشام قطعتين، جعلت قطعة منهما وهي الشمال من نصيب الفرنسيين، وجعلت القطعة الأخرى وهي الجنوب من نصيب الإنكليز. ثم استمر الإنكليز والفرنسيون في التقطيع، فقطّع الفرنسيون الشمال إلى قطع ذكرناها فيما تقدم، وقطّع الإنكليز الجنوب إلى قطعتين، هما شرق الأردن وفلسطين. أما شرق الأردن فيمتد من جنوبي درعا حتى خليج العقبة إلى الشرق من نهر الأردن.

وحدود فلسطين هي: غرباً البحر المتوسط على ساحل طوله نحو ٢٢٤ كلم. وشرقاً سوريا، ويبلغ طول الحدود بينها وبين فلسطين نحو ٧٠ كلم، والأردن على حدود طولها نحو ٣٦٠ كلم. وشمالاً لبنان على حدود طولها ٧٩ كلم. وجنوباً سيناء وخليج العقبة، ويبلغ طول الحدود المصرية ـ الفلسطينية بين رأس طابا على خليج العقبة ورفح على البحر المتوسط ٢٤٠ كلم. وطول الساحل الفلسطيني الواقع على خليج العقبة عشرة كلم ونصف كلم.

وهذه الحدود هي صنيعة معاهدة سايكس ـ بيكو أولاً، ثم الاتفاقات الفرنسية ـ الإنكليزية ثانياً، وقد تحددت بين فلسطين من جهة ولبنان وسوريا من جهة أخرى بمقتضى الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني المنعقد في ١٩٢٠/١٢/٢٣.

ولكن المطامع الصهيونية التي كانت ترمي أول الأمر إلى إدخال قسم من جبل عامل المحتوي على نهر الليطاني ـ إدخاله ضمن فلسطين لتستولي في النهاية على مياه الليطاني وفشلت في ذلك، عادت تسعى إلى تعديل الحدود المقررة، وذلك بسلخ منطقة (الحولة) بسهولها الخصبة ومياهها الغزيرة ـ بسلخها عن لبنان وإلحاقها بفلسطين، ولما كانت هذه المنطقة السهلية تظل مهددة من القمم العاملية المشرفة عليها من علٍ، كان السعي الصهيوني جاهداً لا في إلحاق الحولة وحدها بفلسطين بل في إلحاق قسم من جبل عامل المشرف بقممه العالية على سهل الحولة.

وتمّ ذلك للصهاينة. ففي العام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ عدلت الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية، فأدخلت ضمن حدود فلسطين بعض الأراضي السورية القريبة من نهري بانياس والحاصباني، وكذلك بعض المواقع اللبنانية، وكان أهم ما أخذ من لبنان هو منطقة

(الحولة) وقمم جبل عامل المطلة عليها بما فيها من قرى.

وتمّ للصهاينة ما كانوا يطمحون إليه من الاستيلاء على الحولة ومروجها الخضراء ومياهها الدافقة، فإن آل سلام في بيروت وكبيرهم سليم سلام (أبو علي) باعوا في تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٣٤ ذلك كله للصهاينة بمبلغ ضخم، وتبلغ مساحة الأرض نحو خمسة وخمسين ألف دونم هي من أجود الأراضي وأخصبها.

ويقول عزة دروزة في مذكراته:

> تمّ الاتفاق بين سليم سلام وبين شركة تحسين الأراضي اليهودية في فلسطين، (وهي مؤسسة الأراضي اليهودية القومية) على الصفقة بمبلغ جسيم قيل إنه مئتا ألف جنيه فلسطيني.

ثم يقول عزة دروزة:

> ولقد كان للتنازل والبيع رد فعل مرير في نفوس الوطنيين...

ويتابع عزة دروزة قوله:

> وقد حملت جريدة فلسطين حملة شهيرة على سليم سلام، كان فيها في الحق ترديد لمرارة النفوس... إلى آخر ما قال...

وكان من نتائج استيلاء اليهود على الحولة ما صرّح به الجنرال اليهودي (متيتاهوبيلد) بأن ذلك جعل سوريا بلا حدود آمنة.

كما كان من نتائجه مصادرة أراضي المزارعين العرب سواء في الحولة أو جبل عامل وطردهم من ديارهم.

وقد كان لبيع الحولة لليهود وقع أليم في نفوسنا نحن في جبل عامل. وأدرك بعيدو النظر أن اليهود لن يقفوا عند الحولة، بل سيقفزون منها إلى أطراف جبل عامل المتصلة بها ومنها بلدة (هونين) وأنهم يتطلعون إلى القمم العالية، ولا بد لهم من أن يصلوا

إليها بعد أن اكتسحوا الحولة... وقد جرى كل ذلك...

وفضلاً عن هذا فقد كانت لنا رابطة عاطفية تشدنا إلى الحولة وهي المتصلة أرضها بجبل عامل، فقد طالما كنا ـ نحن في شقرا ـ نركب الخيل إلى بلدة (حولا) ومنها إلى قمة (المنارة) فنطل من هناك على بحيرة الحولة وسهولها، وكثيراً ما كنا نعبر الطريق من بلدة (عديسة) إلى (جديدة مرجعيون) مارين في مشارف الحولة وهي تحت أبصارنا بنضرتها وزرقة مائها وانتشار قراها.

الفاجعة الوطنية والفاجعة العاطفية أوحتا إليَّ بقصيدة قدمت لها عند نشرها بما يلي:

«اشترى اليهود الحولة فأخذت الأرض تبدو غير الأرض والوجوه غير الوجوه. وللحولة في القلب أعذب الذكريات وأحلاها فهي تتصل بجبل عامل وتشرف عليها قممه وهضابه، والذين قضوا الغدوات على ذروة المنارة وظلال شجرات العبابيد وما إلى هاتيك الأصواح والسفوح من مسالك وملاعب يعرفون أي أسى يملك النفوس ويطغى على القلوب بعد أن استعجم السهل وتنكر الجبل»:

ودعــي فــوق روابـيــك الخيــامــا
والـعـراب الجرد والـعـرب الـكـرامــا
قـد أضـعـنـاك ولم نـرع الـذمـامـا
فـاغـفـري لـلـعـرب آثـامـا جـسـامـا

* * *

يـا ربـى الحولـة والـدنـيـا تحـول
ودعـي الأهـل فـقـد حـان الـرحـيـل
لا ظبى البيض ولا تلك الخيول
بـعـدنـا فـيـك تـلالا وتجـول

فإذا ما أقفرت منا السهول
وإلى الأعلاج ألقيت الزماما
إذرفي الدمع لذكرانا سجاما

* * *

«أتعودين كأيام الوصال»
والصبا تحمل أعراف الدوالي
والصبايا الهيف أمثال اللآلي
يتهادين نشاوى بالجمال
والمذاكي القب تنزو في المجال
عاديات تملأ الجو قتاما
فوقها الأبطال كالشهب ترامى

* * *

ونعود إلى الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني فنقول:

بموجب هذا الاتفاق يسير خط الحدود من (رأس الناقورة) الواقع على البحر المتوسط باتجاه الشرق إلى قرية (يارون) في لبنان، ومن ثم يسير باتجاه الشمال الشرقي إلى (قَدَس) و(المطلة) في فلسطين، وعبر وادي الأردن إلى (تل القاضي) في فلسطين، وإلى بانياس في سوريا.

وبعد ذلك يسير خط الحدود باتجاه الجنوب الغربي إلى جسر (بنات يعقوب) ومن ثم يسير باتجاه الجنوب على طول نهر الأردن حتى بحيرة طبريا وساحلها الشرقي إلى نقطة تكاد تكون إلى الشرق من مدينة طبريا حيث ينحرف خط الحدود باتجاه الجنوب الشرقي إلى أن يصل محطة (الحمة) الواقعة على سكة حديد (درعا ـ سمخ).

وحسب هذا التحديد تقع بحيرة الحولة وحوضها، وبحيرة طبريا بأكملها في فلسطين.

ويتألف القسم الفلسطيني الواقع شرقي البحيرتين من قطاع ضيق يمتد على طول ساحل بحيرة الحولة الشرقي، وقطعة ضيقة تقع شرقي بحيرة طبريا يتراوح عرضها بين ١٠ ـ ٢٠٠٠ متر على أكثر تعديل.

وأما الحدود مع شرقي الأردن فقد حددها المندوب السامي البريطاني لفلسطين وشرقي الأردن في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٢. وهي تبدأ من نقطة اتصال اليرموك بالأردن فتسير جنوباً من منتصف مجرى نهر الأردن والبحر الميت وادي العربة حيث تنتهي في ساحل خليج العقبة على بعد ميلين غربي مدينة العقبة.

وكانت الحدود بين فلسطين ومصر حددت بموجب الاتفاقية المعقودة في ١٢ شعبان ١٣٢٤هـ/ أول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٦ بين خديوية مصر والحكومة العثمانية على الشكل التالي:

يتعين الحد بين مصر والشام من رأس طابا على الساحل الغربي لخليج العقبة ممتداً إلى قمة جبل فورت ماراً على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا، ثم من قمة جبل فورت يتجه إلى الخط الفاصل إلى نقطة المفرق على قمة جبل فتحي ملتقى طريق غزة إلى العقبة بطريق نخل إلى العقبة. ومن هذه النقطة إلى التل الذي إلى الشرق من مكان ماء يعرف بثميلة الردادي والمطلة على الثميلة بحيث تبقى الثميلة غربي الخط. ومن هناك إلى قمة رأس الردادي ثم إلى رأس جبل الصفرة ومنه إلى رأس القمة الشرقية بجبل قم قف ثم إلى سويلة شمالي الثميلة، ومنها إلى غرب الشمال الغربي من سماوة، ومنها إلى قمة التل الواقع إلى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة في الفرع الشمالي من وادي ماميين، ومنها إلى غربي جبل

المقراة فإلى رأس العين إلى نقطة على جبل أم حواويط إلى منتصف المسافة بين عمودين قائمين في الجنوب الغربي من بئر رفح، ومنها إلى نقطة على التلال الرملية في اتجاه ٢٨ درجة أي ٨٠ درجة إلى الغرب وعلى مسافة ٤٢٠ متراً في خط مستقيم من هذه النقطة باتجاه ٣٣,٤٥ درجة من الشمال المغنطيسي أعني ٢٦ درجة إلى الغرب إلى شاطىء البحر المتوسط ماراً بتل خرائب على ساحل البحر الأحمر.

وكان العثمانيون يعتبرون هذه الحدود حدوداً إدارية تفصل بين (خديوية مصر) التي كانت لهم سيادة اسمية عليها وبين ولاية سوريا (دمشق) ومتصرفية القدس.

مساحتها

تبلغ مساحة فلسطين حوالى ٢٧,٠٠٩ كلم مربعة: ١٠٤٢٩ ميلاً مربعاً، من هذه المساحة ٧٠٤ كلم مربعة: ٢٦٢ ميلاً مربعاً، مساحة بحيرة الحولة وبحيرة طبريا ونصف مساحة البحر الميت.

ولا يمكن اعتبار أرقام مساحة فلسطين صحيحة ونهائية، وذلك لعدم تعيين الحدود في وادي عربة بين فلسطين وشرقي الأردن. فقد جعل الحد في وسط الوادي ولكنه لم يعين حتى نهاية الحكم البريطاني، فضلاً عن أن مجرى نهر الأردن الذي يفصل بين البلدين عرضة للتغيرات الكثيرة، الأمر الذي يؤثر في خط الحدود، وبالتالي في مساحة البلاد.

ذكرت الوكالة اليهودية في الصفحة ٤٣٥ من إحصاءاتها المطبوعة في العام ١٩٤٧ بأن ما يملكه اليهود من أراض في فلسطين في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٤٦ يبلغ ١٨٠٧٠٠ دونم،

أي ما يعادل ٦,٨٪ من جميع أراضي البلاد. وفي آخر إحصاء لليهود أنهم كانوا يملكون في نهاية الانتداب البريطاني من فلسطين ٧,١٥٪ من مجموع مساحة البلاد.

طلائع الاعتداء

كان أول تدخل عملي إنكليزي لنصرة اليهود إقامة قنصلية إنكليزية في القدس سنة ١٨٣٩ هي أول قنصلية غربية تقام فيها، وكان الغرض الأول منها حماية الجالية اليهودية في فلسطين التي لم يكن يتجاوز عدد أفرادها ٩٧٠٠ نسمة.

ثم راحت بريطانيا بشخص رئيس وزرائها الفايكونت بالمرستون تعمل على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد تبنى فكرة بالمرستون رجال السياسة الاستعمارية البريطانية الذين توالوا على الحكم في بريطانيا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وكان في أذهانهم إقامة سد يحجز بين الشرق العربي وبين الغرب العربي لئلا تتكرر وثبة محمد علي حين زحف جيشه بقيادة ولده إبراهيم إلى بلاد الشام فاجتاحها مكوناً دولة عربية ناهضة كان يمكن أن يكون لها من الشأن ـ لولا إجهاضها من الإنكليز ـ ما يحول دون انفاذ المخططات الاستعمارية المعدة للعرب وبلادهم.

وجاء شق قناة السويس واحتلال الإنكليز لمصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مقوياً عزم الإنكليز في السيطرة على فلسطين بإقامة كيان يهودي فيها تحت حمايتهم.

وإذا كان تبني بالمرستون ومن جاء بعده من السياسيين الإنكليز للفكرة الصهيونية[1] هو البارز في تلك الفترة، فإن الدعوة الصهيونية لم تتبلور سياسياً في الفكر اليهودي إلاّ بعدما تبين أن ما انبثق عن الثورة الفرنسية من مبادىء في الإخاء والمساواة قد فشل

في صهر اليهود بالشعوب التي يعيشون بينها. وذلك إما لعدم قابليتهم هم للانصهار، أو لأن تلك الشعوب تأبى هذا الانصهار، أو للسببين معاً...

وأول دعوة يهودية صهيونية صريحة كانت هي التي أطلقها اليهودي (هيرش كاليشر) سنة ١٨٦١ في كتابه (البحث عن صهيون). وفي العام التالي أصدر (هس) كتابه (روما والقدس) الذي دعا فيه إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين.

وتلاهما معاصرهما (دافيد غوردن) بالدعوة إلى ما سماه (دين العمل) الذي شدّد فيه على أهمية تملك اليهود لفلسطين والعمل على تكوين أمة يهودية شأنها شأن غيرها من الأمم. وفي العام ١٨٨٢ أصدر (ليون بينكر) كتابه (التحرير الذاتي) حلّل فيه الوضع اليهودي العام وانتهى إلى المناداة بوطن قومي يهودي فكان كتابه هذا أقوى الكتابات الصهيونية وأبعدها أثراً.

وأول دفعة من اليهود هاجرت إلى فلسطين بقصد الاستيطان كانت مؤلفة من عشرين يهودياً هاجروا سنة ١٨٨٢ فحولوا عدة قرى عربية نائية إلى مستعمرات صهيونية كانت المراكز الرئيسية للاستعمار الزراعي الصهيوني.

وفي ٢٧ آب/أغسطس ١٨٩٧ استطاع يهودي نمساوي اسمه (ثيودور هرتزل) أن يعقد مؤتمراً صهيونياً في مدينة (بازل) بسويسرا مؤلفاً من ٢٠٤ مندوبين يمثلون جمعيات صهيونية متناثرة في أرجاء مختلفة فكان هذا أول عمل تنظيمي مبرمج للحركة الصهيونية بعد أن كانت قبله آراء ومساعي متباعدة مبعثرة يعوزها التخطيط والتنظيم والمنهج الواضح والأداة البشرية القادرة على تنفيذها.

وانجلى المؤتمر عن وضع ما عرف ببرنامج بازل ما حدد الأهداف

وأنشأ الأداة، فقامت المنظمة الصهيونية العالمية التي حددت أغراضها بالعمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين وإذكاء الشعور القومي اليهودي وتنظيم اليهودية العالمية. وكان سبيلها إلى ذلك غزو فلسطين بالتسلل والهجرة التدريجية، فأقامت مؤسسات التهجير وشراء الأراضي وتمويل الاستيطان.

وما بين العامين ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ بدأ ما عرف في تاريخ الصهيونية بالهجرة الثانية وكان من أبرز وجوهها دافيد بن غريون الذي صار عند إعلان قيام ما سمي إسرائيل أول رئيس وزراء لها.

وأول صدام مسلح وقع بين العرب والصهاينة كان سنة ١٨٨٦ وذلك عندما تملك الصهاينة الخضيرة وملبس (بتاح تيكفا) وطردوا الفلاحين العرب الذين هاجموهم واشتبكوا معهم بقتال. أما في المدن فقد بدت مخاوف المهنيين والتجار من تدفق اليهود إليها، فأرسلت العرائض إلى الصدر الأعظم مطالبة بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين ومنعهم من تملك الأرض فيها وذلك في العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

وبحلول سنة ١٩٠٩ كان الناس قد وعوا حقيقة الخطر الصهيوني وأصبح الحديث عن الهجرة اليهودية وشرها شغل الناس ومدار أحاديثهم. ولم يكن يومذاك في فلسطين من الصحف سوى (الأصمعي) و(الكرمل) فكانت الصحيفتان صدى لما يعتمل في نفوس الفلسطينيين من مخاوف. وشاركت صحف بيروت وصحف دمشق في التنبيه إلى الخطر الداهم، كما قام نواب فلسطين في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) بالتنديد بالهجرة اليهودية والدعوة للصهيونية.

وبعد مرور ستة أشهر على الاجتماع الأول للحركة الصهيونية، بعث سكرتيرها أ.س. جودا بسؤال إلى مجلة «المقتطف» القاهرية مستعلماً حول إمكان تحقيق حلم هذه الحركة. واستبعد الدكتور يعقوب صروف، رئيس تحرير «المقتطف»، في العدد الصادر بتاريخ شهر نيسان/ أبريل ١٨٩٨، نجاح دعوة الصهيونيين مقترحاً «بأن السعي لدى حكومات روسيا ورومانيا والبلغار في إصلاح شأن اليهود فيها أقرب منالاً، لا سيما أن طلب كفالة الدول الأوروبية وحمايتها لليهود الذين يراد نقلهم إلى فلسطين عقبة كبيرة في سبيل هذا الغرض لأن الدولة العثمانية لا ترضى به».

وفي سنة ١٩٠٥ نشرت الموسوعة اليهودية مقالة مسهبة حول الصهيونية وغاياتها، فما كان من الصحافي الفلسطيني نجيب نصار، الذي يعتبر من الرواد الأوائل الذين نبهوا العالم العربي إلى أخطار الصهيونية، إلا أن ترجم هذه المقالة إلى العربية وأخذ يفند مزاعم الصهيونية في مجلته «الكرمل».

وفي العام ١٩١٠ قامت حركة تدعو إلى مقاطعة البضائع اليهودية لأن الصهاينة يقاطعون البضائع العربية والأيدي العاملة العربية. في آب/ أغسطس سنة ١٩١٣ أعلنت صحيفة «فلسطين» أنها ستزيد عدد صفحاتها لتتمكن من استيعاب العدد المتزايد من العرائض والاحتجاجات المهاجمة للصهيونية. وفي الشهر نفسه نشرت صحيفة «الكرمل» نبأ قيام تظاهرة كبيرة في نابلس احتجاجاً على اعتزام الحكومة بيع أراضي بيسان التي هي من أملاك الدولة لليهود. ثم نشرت خبر إنشاء (جمعية مكافحة للصهيونية) في نابلس وإنشاء فروع لها في مدن فلسطينية أخرى. وفي ٧ تموز/ يوليو ١٩١٣ نشرت (نداء إلى الفلسطينيين) تلقته من القدس جاء فيه:

«... هل تقبلون أن تصبحوا عبيداً للصهيونيين الذين جاءوا لطردكم من بلادكم مدعين أنها بلادهم؟ أيرضيكم ذلك أيها المسلمون والسوريون والعرب؟ إننا نؤثر الموت على أن نسمح بأن يحدث ذلك».

وفي انتخابات سنة ١٩١٤ حرص المرشحون في بياناتهم على الجهر بمقاومتهم للصهيونية...

ثم قامت الحرب العالمية الأولى فكانت فلسطين ضمن الدولة العربية الموعودة، وفي الوقت نفسه كان الواعدون قد عقدوا معاهدة سايكس ـ بيكو المقسمة للبلاد العربية بين المنتصرين، وانجلت الحرب عن وعد لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين أعطاه بلفور وزير الخارجية البريطانية باسم حكومته في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٧.

وبانتهاء الحرب اعتبر الفلسطينيون وطنهم جزءاً من بلاد الشام وأنه (سوريا الجنوبية) وكان لهم مندوبوهم فيما سمي (المؤتمر السوري) في دمشق الذي اعتبر (برلماناً) لبلاد الشام والذي أعلن قيام المملكة العربية السورية المستقلة وملكية فيصل، ولما تألفت الوزارة الأولى لهذه المملكة كان وزير خارجيتها (سعيد الحسيني) فلسطينياً.

ومنذ سنة ١٩١٨ سنة انتهاء الحرب عمد الفلسطينيون إلى إقامة النوادي والجمعيات بما فيها أول نادٍ نسائي فلسطيني، وشعاراتها مقاومة الصهيونية. وفي شهر حزيران/ يونيو أقيمت في القدس (الجمعية الإسلامية المسيحية) التي عمت فروعها بعد ذلك المدن الفلسطينية وكان شعارها مقاومة السيطرة اليهودية والنفوذ الصهيوني وشراء اليهود للأرض.

وفي مطلع العام ١٩١٩ عقد مؤتمر عربي للبحث في أمر عرض

المطالب العربية - الفلسطينية على مؤتمر السلام في باريس بشأن تقرير المصير ورفض الوطن القومي اليهودي.

وفي شهر شباط/فبراير سنة ١٩٢٠ قامت تظاهرة عربية كبيرة، تلتها في شهر آذار/مارس تظاهرة أخرى تأييداً لإعلان ملكية فيصل على المملكة العربية السورية المعتبرة فلسطين جزءاً منها.

وشنت مجموعتان فلسطينيتان مسلحتان هجوماً على مستوطنتين يهوديتين قرب الحدود السورية قتل فيهما الكابتن جوزيف ترامبلدور وستة يهود آخرين. وفي شهر نيسان/ أبريل احتشدت جموع المسلمين في القدس للاحتفال بموسم النبي موسى فكان ذلك مثاراً لانتفاضة عارمة امتدت من الرابع من نيسان/ أبريل إلى العاشر منه أعلنت خلالها الأحكام العرفية وبلغ عدد الإصابات فيها ٢٥١ إصابة معظم المصابين بها من اليهود وجرح سبعة جنود بريطانيين بأيدي المتظاهرين العرب، وبلغت الإصابات العربية ٢٨ إصابة بينها أربعة قتلى بالرصاص. وصدرت أحكام مختلفة بالسجن على ٢٣ شخصاً وأُقيل موسى كاظم الحسيني من رئاسة بلدية القدس بسبب اشتراكه في التظاهرات.

وبالرغم من عنف المعارضة العربية ودمويتها فإن بريطانيا مضت في تطبيق سياسة الوطن القومي اليهودي فعينت يهودياً صهيونياً إنكليزياً هو هربرت صموئيل أول مندوب سام لها في فلسطين، وكان قد أجمع الصهاينة على ترشيحه وعين وفقاً لرغبتهم، ووصل فلسطين بطريق البحر في أول تموز/ يوليو سنة ١٩٢٠ وانتقل بخفارة عسكرية شديدة بالقطار من يافا إلى القدس.

فكانت هذه أول خطوة في تسليم الصهاينة الحكم في فلسطين. والشهر الذي وصل هربرت صموئيل في أوله إلى فلسطين مثبتاً

الانتصار، كان هو الشهر نفسه الذي خرج في أواخره فيصل من دمشق ماراً بفلسطين، متمثلة في خروجه الهزيمة، ثم توالت الانتصارات وتوالت الهزائم...

وقد أمضى هربرت صموئيل في فلسطين خمسة أعوام أي إلى تموز/يوليو سنة ١٩٢٥ وضع خلالها القوانين في مصلحة اليهود وفاتحاً فلسطين أمام الهجرة اليهودية المنظمة، وكان اليهودي حين يصل إلى فلسطين ويمضي فيها ثلاثة أشهر يصبح له الحق في اكتساب الجنسية الفلسطينية، وجعلت اللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب اللغتين العربية والإنكليزية، واختص اليهود بمدارسهم ليربوا نشأهم التربية الصهيونية الكاملة، وصارت لهم صحفهم باللغة العبرية.

وكان هربرت صموئيل يراعي التقاليد اليهودية في بيته كأنه حاخام. وبكل ذلك استحق اللقب الذي أطلقه عليه اليهود، وهو: (أمير إسرائيل الأول). وقد أطلقت النار عليه مرتين في فلسطين ونجا في كلتا المرتين، مرة في بيسان في الشمال ومرة في غزة في الجنوب.

أما مؤتمر السلام في باريس فلم يخف تحيّزه لليهود. فقد حدد واجبات بريطانيا بصفتها دولة منتدبة من خلال تكرار نص وعد بلفور في صك الانتداب.

وأخذ صموئيل يعمل على التنفيذ التدريجي لخطة تهويد فلسطين عن طريق الهجرة والاستيطان.

وفي كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٢٠ انعقد المؤتمر الفلسطيني الثالث ووضع سياسة وطنية عامة التزمت بها المؤتمرات التي تلته وانطلقت من رفض وعد بلفور وعدم شرعية الانتداب البريطاني

ورفض الهجرة اليهودية والمطالبة بحكومة وطنية.

وقد كان أخطر ما يواجه فلسطين والعرب فيها هو إباحة هجرة اليهود إليها من كل مكان.

* * *

لا نتحدث هنا أكثر من ذلك عن جنوبي بلاد الشام (فلسطين) لأن مدى حديثنا يجب أن لا يتعدى السنة ١٩٢٠ إلاّ بما لا بد منه.

الهوامش

(١) الصهيونية: نسبة إلى جبل صهيون في القدس. وفي عهد داود كانت الخليل عاصمة ملكه ثم انتقل إلى القدس بعد فتحه لها وجعل جبل صهيون مقراً لحكمه.

فهرس الاعلام

غ

ف

ق

ك

فهرس الأماكن

أ

ب

ر

ز

س

ص

ط

ع

ف

حسن الأمين

سراب الاستقلال في بلاد الشام

١٩١٨ - ١٩٢٠

يروي هذا الكتاب باللحظات والدقائق وبأسلوب قصصي وصحافي رائع، تفاصيل الوقائع التي شهدتها بلاد الشام أثناء الصراع بين الانتداب والاستقلال، عبر شهادات وأوراق من عاصروا تلك الأحداث وكانوا جزءاً لا يتجزأ من صورتها.

فمن انبعاث الحكم العربي إلى معاهدة سايكس بيكو إلى رحلة الأمير فيصل الأوروبية إلى أوضاع لبنان وجبل عامل إلخ. تتتالى المشاهد وتحتشد الأسماء: من الجنرال اللنبي إلى الشريف ناصر ورستم حيدر وداقيد فرومكين وصبحي العمري وعمر الداعوق وفارس الخوري وعجاج نويهض والشيخ أحمد رضا وغيرهم.

وأيضاً ثمة معاهدات ووثائق ومذكرات سياسية وعسكرية نادرة، يحاول المؤلف من خلال تعددها وتعدد مصادرها ورواتها، أن يرسم صورة حية وصادقة، عن تلك الأيام والسنوات العصيبة التي عاشتها بلاد الشام.




1855132656